

مارون عسبود



مجددون ومُجترّون

دار مارون عسبود

دار الثقة والماف



مارون عسبود

مجددون ومُجترّون

دار مارون عسبود بيروت دار الشفاء
ص.ب. ٥٤٣

الطبعة الخامسة

١٩٧٩

جميع الحقوق محفوظة

مؤلفات مارون عبود

المجموعة الكاملة

الأول : في البراسة

أدب العرب - الرؤوس

الثاني : رواد النهضة الحديثة - الشعر العامي - جدد وقدماء

الثالث : النقد الاجتماعي

سبل ومناهج - حبر على ورق - آخر حجر

الرابع : النقد الأدبي

على المحاك - مجددون ومجترون - في المختبر

الخامس : دمع وأرجوان - نقداً عابراً - على الطائر

السادس : في تاحة

فارس آغا - الأمير الأحمر

السابع : في الأقصوصة

أحاديث القرية - وجوه وحكايات - أقزام جبابرة

الثامن : في النقد السياسي

من الجراب - قبل انفجار البركان - أشباح ورموز -

مناوشات

التاسع : التراجم

أحمد فارس الشدياق (صقر لبنان)

أبو العلاء المعري (زوينة الدهور)

بديع الزمان الهمداني

أمين الريحاني

العاشر : رسائل وأحاديث صحفية

تحت الطبع

الحادي عشر :

مكتـمة

القديم والجديد نضال الأبد ، بل صراع الحياة . في عشّ العصفور الدوري
كما في عرين الأسد ، بين الآباء والأبناء ، والأخوة والأخوات والكنة
وحماها ، وهنا التننور المسجور والفرن الحامي ...

تكون الحماة أرجح عقلاً وأوفر علماً وتراها الكنة اختاً للقريللاً وأنثى
الكهوف . أمّا الحماة فتقف بالمرصاد كعدّاد التكسي ... إن مشّت الكنة
رأت خطواتها أوسع من المعتاد ، وأشارت بتعديلها لتكون على التام ، كما رسمها
السلف الصالح ... وإذا تبسّمت صفقت على فخذيها وصاحت بإبنها : قل
لبنت عمك لا تفتح بوزها على مصراعيه ثاني مرة ، هذا عيب ! وإذا حكّت
فهي ثائرة ، لسانها أطول من اذنيها ، وإن سكنت فالمسكينة حمارة ، الدجاجة
تأكل عشاءها ، وإن رفعت صوتها كانت وحشة مقطوعة من الحرج ، وإن
خفّت صوتها فهي حبة رقطاء تحكي في عبتها . وإن قصّرت ثوبها فهي
من سلالة حاتم في الفتنة والاغراء ، وما هكذا تعمل بنت الأوامر . وإن
عملت بوصايا الله والكنيسة فكل قماش يبروت لا يكفيننا ، والله يساعدك
يا ابني ! وإن كبرت لقمعتها فهي غولة ، لعنة الله على من ربّوها ، وإن
بيّنت سنّها ، فالبنت عينها شاردة ...

وتروز الكنة حماها فتراها أقل من خرقه بالية ، أولى لها ان تلقى في
المطبخ ، لا ان تتقدّم عليها في المحضر ، وتسود وجه البيت . فلتنقبر !

ابن عزرائيل كنتاس البيوت ؟ ألا يرى هذا الوجه المتكرّش كأنه آخر
البنذورة ؟ ...

والحماة تخاف على ولدها من هذا الطاعون . البيت يخرب إذا تخلّت
هي عنه لهذه البنت الطائشة ، وإذا زارتها جارتها تسر النجوى قائلة : غضب
من ربّنا ، يا جارة ، حلّ علينا . يا قلة الحظّ ! ثم تقرصها في جنبها
قرصات لاذعة لها الف معنى ومعنى ، بينا الكنة المسكينة تقرأ أو تطرّز ،
أو تترنّم كذاب عنقرة ... وتختّم الحماة رسالتها هذه بصريف الاسنان
مقروناً بأحرّ العواطف : يخرب بيتها ، لا يهمها شيء ، سواء عندها خرب
البيت أم عمير ، فتجيب الجارة الحكيمة : السكوت أحسن يا جارة ، ما
في اليد حيلة !

أجل ما في اليد حيلة ، وهذه مصيبتنا بعينها في الأدب . الأدب يريد
أن يمشي ، والحماة قرم عنيد واقف بالدرب ، لا تفتح الطريق إلا إذا مشينا
على جثتها . فلنمش !

كان من الأزياء الأدبية ، منذ نصف قرن خلا ، أن يقدم الكاتب لإسمه
بسجعة فيقول : ألّفه الفقير الى عفوره الرزّاق فارس بن يوسف الشدياق ،
أو صنّفه العبد الفقير الجاني ، سعيد الخوري الشرتوني اللبناني . وقد
ادركت ، تلميذاً ، آخر هذه السوق ، فكتبت على دفتر لي مدرسي سيبقى
بعدي وقف ذريعة : المحتاج إلى عفوره المعبود ، مارون حنا الخوري
عبود . وكان هنالك زي آخر اعظم خطراً وهو أن يصدر المؤلف كتابه
ببيتين من الشعر ، كما فعل المعلم بطرس البستاني ، فكتب على قاموسه الشهير :

قل لمن لا يرى الأواخر شيئاً ويرى للوائيل التقديما
ان ذاك القديم كان حديثاً وسيمسي هذا الحديث قديماً

فتعظيم القديم من طبيعة الناس ، ولذلك عبدوا جدودهم ... فكل رجل ،

ولو خاملاً ، يستحيل يوم يموت شيئاً عظيماً ، تهال عليه الرحمات ، ويرون انه كان من المفارِد ، لا تمضى عليه مشكلة ، مع ان المرحوم كان لا يمشى ولا ينشئ ، ولكنه دخل الأبواب الدهرية فصار ملك المجد ...

وقبالة جيل القديم يرتفع قوأم آخر يساميه ويطاوله ، هو جيل الجديد ، والتوأمان لا يلتقيان . فزعم الشعر العربي واحد لا غير ، هو الذي ضيَّع ملك أبيه ، ولكن عرش ذلك الوالد المحترم لا يساوي بيتاً من قصائد ابنه . طاح تاج ابن حجر فداء رأس دارة جلجل . ونودي بأمرى القيس ملكاً على الادب العربي ، وثبت عرشه مدة ستة عشر قرناً ، لا يثور عليه إلا عصابات تذوب جهودها في الحثاق التي تحيط بالقديم .

وقرأ شبابنا آداب الأمم فأغرثهم بالخلق ، فتجهم لهم المحاربون القدماء . يريدون أن تظل الجبهة في البيداء فقالوا : ليس هذا من كلام العرب .

إن الشعر معمل تصنع فيه التمايز ، ولهذا يحق لنا أن نقول للشاعر : كن كيف شئت ، إلا اثنتين فلا تقر بها أبداً : النحو واللغة .

فتنت العرب التمايز الراقصة فصرخوا بصاحبها : أنت أشعر العرب . وأدركوا ان الشعر موسيقى أولاً فقدّموا البحاري وأخروا ابن الرومي . واهتز ابن الأثير « لوطن النهى » في شعر أبي تمام ، وأعجب « بقلب يطل على افكاره » عند أبي عبادة ، كما نعجب نحن « بضیوف الله » عند شوقي ، لا بقريش الشهباء وكبش النظاح ...

يصلح الشباب أوارهم فنشّوها لهم ، وبدلاً من أن تنثر الزهر على الموكب العابر نرجه بالحجارة . ما قتل الادب العربي الا توسله الى الفن بلغة « رسمية » لا يجيد عنها . ولو كان في ذلك الاسلوب « الرسمي » خير ، ما نزل القرآن الكريم بلغة الناس الفاتية ، الطرية ، الناعمة ، المصقولة .

يحاول الشباب خلق الشعر المصفى ، فنغضب تلك الغضبة المضرة ليظل

أكثر شعرنا نثراً . وكما كانوا يحتكون في البصرة والكوفة الى وافد من البادية ، نحتكم نحن اليوم الى الكتب القديمة ، حتى في الفن ... إن باب القياس أوسع من الهاوية ، فدعوا السماع ، واضربوا في مناكب الارض ، ولا تكونوا من ذوات المعدتين .

فلندع المجترين يتبلغون بما في بطونهم ، ولنخلق طعاماً جديداً . إن في الأدب أزياء تتجدد . إن البساتين تحتاج ، دائماً ، الى التطعيم ، والآداب بساتين الشعوب ، فلنطعم أدبنا فقد أصبح برتياً . قد حان لهذه الوثنية الأدبية ان تتوارى ، فالفن لا يعرف الا إلهاً واحداً هو الجمال . ان افلح الشباب ففلاحهم مجد لنا ولهم ، وان اخفقوا فالتبعة عليهم . ان اللواء معقود لهم ، وسيظل في يدهم حتى تعقده المبقرية لجليل آخر . ان الذرية محبوبة إلا في الأدب ، ففلان وفلان وغيرهما لا يريدون ان يتواروا . إن الحماية لا تدع ثروتها حتى يغلق عزرائيل ذلك الفم الذهبي ...

ملء العرب القديم في كل عصر ففضل الاصمعي ابن بُرد على مروان ابن ابي حفصة ، وابن الأثير نادى : إن باب الجديد مفتوح حتى يوم القيامة .

منذ دهور وأعيننا في ظهورنا ، وأكثرنا يعارض الذي عيناه في وجهه . فهذا الشعر الذي يقوله شعراء اليوم هو الشعر حقاً ، ولكنه في حاجة الى خلق مستمر ، فقد كاد ان يصير ادب عصائب طير تهتدي بعصائب .

كان الاعرابي يؤثر - كالأب يرعون اليوم - شعراً موسيقياً خفّ معناه ، على شعر بلا موسيقى ، وان رجحت كفة معانيه . فلنسر على هذه الطريق 'نفلح' . اما المتوغلون في الوثنية الادبية فلهم اقول : اذا كان استطاع تبديل حياة النبات بتبديل الضوء ، أفلا استطاع الشعر على ضوء مصباح اديسون بدلاً من ذبال امرئ القيس المقتل ؟!

نيسان ١٩٤٨

مارون عبود

المجستون

١

لما ظهر كتاب « الألفاظ الكتابية » لعبد الرحمن بن عيسى الهمداني ، قال رجل لا أذكر اسمه ولا كلمته بعينها : لو غدا حكه إليّ لقطعت يده .

يا ليتك قطع تلك اليد ، وأحرق ذلك الكتاب ! فكتاب « الفاظ » عبد الرحمن و « صبح » الفلقشندي ، و « نجدة » الشرتوني ، و « نجمة » اليازجي ، مراعى لسوائم التقليد ، وزرائب لشويعات النقل ، ومستودعات لمعانيات اللغة ، لا مثل لها الا تلك المخازن التي تكثرى منها الثياب للسهرات والطقوس المحدث لها طراز خاص من أزياء تواضع عليها الناس . فما قتل أدبنا وأفقده الحس والشعور غير هذه الرواسم « الكليشيات » التي نجثها ونحشرها بين كلمات مرصوفة ونشكتها شك الحرز في فساطين النوريات ، ثم تنبأى بها كالقرعاء ...

الادب ، كثيره من الفنون الرفيعة ، صورة من صور مشاهد الحياة التقطتها العين ، ورسمها القلم على الورق صورة حية ، فلابست العقول ، ووعتها الأذان . كانت رائحة يوم ابتكرت ، فهي لم تنشأ ليلوكها ضيفن الادب ويتقيأها على القرطاس دهوراً وعصوراً ، ولا لتؤدى لها ضروب العبادة

والتقديس ، وتسمي ترجان كل من حل قلماً يستوحىها دون تفكير بما تحتها ، ولا نظر الى ما فوقها ، كأنها فرضت على الانشاء فرضاً ، فلا يحمل ان يتريثاً إلا بها ، ومن لم يحسن التأدية بها فذاك غير فصيح ، فهب بعض المتشرفين يصمّون أدبنا بكثرة روايته ، ومستحاثاته ومومياءاته ...

إن هذه العناصر من التعبير تفسد البناية الشخصية الادبية . ونحن أفقر أهل الارض في أدبنا إلى كل ما هو شخصي . خذ قطعة أو قصيدة ، وضع ديباجتها تحت المكبرة ، كما يفعل الحائكون ، فتبدو لك فيها هذه التعابير كرقعة نابية لونا وديباجة ، وهكذا يظهر منظومنا ومنثورنا كالسرح المزين بما يدينه من المكان المقصود ، وان شئت كلمة أوضح ، فقل أنها كالقديد في مآدبة طعامها طازج .

لو رصدنا الكون لرأينا حركة رابعة تدهش المتأمل وقلنا مع القرآن الكريم « وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمرّ مرّ السحاب » . فلا جامد جمدة الموت الا عقول البشر ، فالذين يفكرون بمقولهم هم أندر من الراديوم . هناك فئة قليلة جداً تفكر اتفاقاً ، والذين يفكرون بعقول جيرانهم لا تحصيلهم الارقام ، أما أكثر الناس فلا يفكرون . عقول صغار في جث ضخام . مثلما يأكلون ويشربون وينامون ، هكذا يقرأون ويتكلمون ويكتبون . ومثلما يمشون ولا يعنون أين يضعون أقدامهم ، هكذا تنظف أفواههم تعابير رأوها نائمة في بطون الكتب فأيقظوها ليستخدموها في الافصاح عن خلجات نفوسهم وبدوانها ، والتنفيس عن عواطف مكبوتة ، كأننا التعبير علك يُمضغ .

مسكين الانسان ! ما أشبهه بحصان العربية يتبع الطريق وسوط العرف ينهره ويلدغ قفاه ، فلا يتعوّج ، ولا يتعرج ، الا ليستريح ريثما يستأنف السير ... ما أكثر الذين يقومون بعملهم الانساني ولا يفكرون انهم ناس ! وما

أبعدنا عن تحييص ما نقرأ ، وما نكتب ، وما نسمع ، وما نعتقد ، فكأننا أبواق تنفخ العادة فينا ما شأت من اصوات قد تكون هي أنكر الاصوات لا غيرها ... فنضم ما ألفناه وتعودناه إلى مجموعة الميراث الاقدس . فكمن ألفاظ طناتنة ، وتماييز غامضة حائرة تطربنا ، وما ندري لماذا ، وتهيمن وتسيطر علينا كأنها غواميس طبيعية لا بد من تفاعلها ، ثم لا تفكر لماذا .

قد يعتب عليك أحدم إذا لم تقل : « ان شاء الله » كما فعل أبو نصر بالمثنى ، ليلة غدوته في طلب منيته . وهذا اللائم يتلفظ بها ولا يدري لماذا ، وقد يقولها ويجهل أنه قالها . ومثل هؤلاء إذا ناقشتهم أخفى الامور والقضايا عن الادراك ، وجدت عندهم لكل سؤال جواباً مما لقنوم إياه ، وأملوه عليهم ، كأنما تفسيتهم أحد كتب الرسائل القديمة : المكتوب وجوابه قبائله ، او كالذي ألفناه في التخاطب فنقول : « مشتاقون » لمن نكره محضره ، و « داع لك » لمن تمنى قصف عمره ...

كم من كاتب يحدثك عن الملأ الاعلى ، وهو ينكت مزابل المادة كالشقبان في ليالي كفون المظلمة ، ليزدرد ديدانها ويلتهم حشراتا !

ان المفكرين الحقيقيين قليل في هذا الوري ، والمشكلين الحقيقيين أقل منهم . أما الطمستون إلى كل شيء قلء الارض ، أكثر من الذباب والبرغش حول المستنقعات . وهل من مستنقعات أذن من رواكد العقل البشري ؟ ما أشبه هؤلاء بصبيان يحسون منتهى الدنيا وراء الجبل القاعدة في حضنه قريبهم ، وكما كانت دهشتنا عظيمة حين تسلقنا الجبل ورأينا وراءه أشياء أخرى ...

وأفئك أويئة الانسانية ، ذلك الاطمئنان الداخلي ، مرض الدماء الذين يعمون دائماً في زبد أنفهم ، ولا يفوصون في لجتها ، تلهمهم ثرثرة الساقية عن صمت النهر الهاديء حيث الحيتان الضخمة التي تبتلع حوت يونان ...

إن هؤلاء يخافون المعرفة فيتجنبونها ويؤثرون الجهل عليها ، وهذه الحياة المخدرة ، التي يلد بها كل رجل ، مشترك العقل ، تدفعهم إلى تقديس القديم ، فيرون في الثورة عليه خروجاً على المجتمع ، ومروقاً من عرفه وتقاليده ، فيسمون فاعله في الدين زنديقاً ، وفي الأدب شعوبياً ، وفي العادات والتقاليد معتوهاً أبسه .

وهذا الذي يسمونه « الرأي العام » يحفظ لنا انماطاً من الحقائق المائنة ، كالسردين في علبه ، فنحترم ونقدس كل ما تواطأ السلف على احترامه وتقديسه بلا نظر ولا تأمل ، ويتبع بعضنا بعضاً كقطيع غم قائلين : قالوا ... فعلوا ... حكوا ... فلنحكم !

الرأي العام غوغاء يتراكمضون خلف عدو أفلت منهم يستطيع ان يحوثهم معتوه واحد عن وجهتهم - وهم مئات - فيمضون حيث أشار ، ولا يسألون ولا يفكرون . والعرف الذي يقده الناس اشبه بالكظيمة « الترموس » التي تحفظ لي القهوة فاترة حتى الضحى ، أو كالحزانة المثلوجة تصون الطعام حيناً فلا يفسد ولا يمتن ، فنأكله ولا نبالي بما بقي فيه من غذاء .

لقد عثمنا ، فلنخصص . فأنا لا يعينني الآن إلا الادب ، ولكن ما الحيلة والادب جذر كل عدد من مسألة الكون العظمى ، او كالمثارة التي يراها المسافر في عرض البحر فيحل على ضوءها شيئاً من لغز ظلمته ؟

التعبير جسد الفكرة ، وقليل ما يمثل هذا الجسد الكلامي محاسن الروح كلها . واحياناً تكون تلك الروح - الفكرة - دميمة ، والالفاظ حسنة كبهاء جميلة الوجه والجسد . تراها فقرني لجمال بلا عقل ، يعجبك ولا يستهويك . اما نحن ففرضنا الفكرة الجيدة ، او الصورة الرائعة التي لا يدل الكلام عليها إلا كما تدل الصيغ الرمزية على الاجسام الكيماوية . فهذه لا

يفهمها الا من مارس الكيمياء وعرف مصطلحاتها . وتلك لا يدركها إلا من فهم نفس قائلها ، وأحيا الزمان الذي قلمت فيه ، وأعد لها المكان كما يهتئ المخرج الحاذق ما يقتضي مسرحه من آلة .

أمّا التعابير التي تستعمل بلا كيل ولا ميزان ، ولا تشكيل ولا تغيير ، فما هي الا "مقاييس تخمينية لافكارنا لا تقوّمها تماماً . انها كتلك القوارير الجاهزة تعالج بها كل الادواء ، ولا تشفي من داء . فهيئات أن تؤدي الجمل كل ما يحسه الشاعر - لا نعني الوزانين - وهذا سبب الغموض في بيان عباقرة الشعراء ، عرباً وعجماً ، حتى عدّوا اللغات عاجزة لأنها لم تكن لأغراضهم . ولولا هذا الضيق لم يكن التشبيه والاستعارة والكناية .

وكثيراً ما يتعدّى كلامنا الطغاف فنقول عن شيء : نأفه . غريب . مدّش ! ولو فكرنا لرأينا اننا اكرم من روكلر حين يهتز للإحسان فيسب الملايين . وهذا الاسراف والتبذير في التعابير والالفاظ برهان على اننا نفكر بعقول جيراننا ، ولا نعتقد ما نقول . فكم من مرة نكرر صلاة تعلمناها ، وفكرنا هائم ، فتموج الالفاظ على شفاهنا ولا تلج قرارة انفسنا . فاذا شئنا خلق ادب جديد ، فلنخلعن أنفسنا التي البستنا اياها الاجيال ، ونفكر بعقل جديد وتعبير حديث .

ان في ذاتنا حقائق خفية عنا ولا نحاول كشف غطاها ، ولو فعلنا لكانت هي وحدها الادب المنشود . فعظم تقاومنا ومقاييسنا الحاضرة ستزل عن منصبها وتبدو لنا انها من خداع النظر . ولا خوف على الامم من الذين يفكرون تفكيراً شخصياً ، بل الخوف كله من الذين هم صمم المتعصبين لكل قديم ، يتبعهم جمهور من العميان المذاهب ، ولا يقولون ولا يفكرون الى اين ...

ان المتمسكين بالقديم على علاته ، هم كأولئك الشيوخ الذين يتناسون عيوب زمانهم ورتائل جيلهم ، ويتأسفون على اخلاقه الفاضلة دامين الزمن

الحاضر . ألم تأملهم - تأملهم اذا شئت - كيف ينقرون الارض بمصيبتهم
متأوهين قائلين : دنيا زائلة ؟ ..

رويداً رويداً يا عم ، انت الزائل وحدك . لماذا لم تقرر هذا قبلاً
ابتليت بهذا الرعشان ؟ !

ان الجحود ، والايمان ، والتمرد على القديم النخر ، من خواص القلب
المخلص والروح النقية . والتجديد في كل شيء لا يرتجى الا من هذه الفئة
النادرة . ولولا « المنفعة » التي تهاجم الفنون تحت راية الرأي العام لساو
الادب وكل فن بخطى واسعة الى القمة ، ولكن حب الاشتهار بين
« الجماهير » - شهرة تسبق صاحبها الى القبر - يحمل الكاتب ، والشاعر ،
والمصور ، وكل فنان على محابة الناس والتعلق لهم ... وهكذا يظل المجدد
مدتراً بأكفان المتقدمين ، وان غسلها وكواها ليخفي ما علق بها من
صديد .

الناس بلاء الناس ، يولد بعضهم بغضاً كالقروء وتمجيبهم حركاتهم
« السعدانية » فلا يملّون تكرارها . خذ الفكر العربي منذ ترعرع ونشأ
حتى اليوم ، وأرني عناصر التجديد فيه ، ثم قل لي ماذا قال « العلماء »
في كل جديد عند ظهوره ؟ ألم يسمّوا الشعراء العباسيين مولدين ومحدثين ،
ولم يحتجوا بكلامهم ؟ وأخيراً أذكرك بما فعله بشار بن عمه سيويه ...
وابن الرومي بالاخفش ...

يا حبذا هؤلاء المولدون ، يا ليتهم غوا وكثروا وملأوا الارض ، كما
قال رب التوراة لمخلوق اليوم السادس ... حقاً انهم مولدون غير معقنين ،
ولو فكر كل عربي بعدم واعل رأيه مثلهم لابتدع واستنبط تماير ومعاني ،
الا ان اكثرنا لا يعقلون . نرى وكأنتنا لا نرى ، يسيطر علينا عقلنا
الباطن ثم لا نتذكر شيئاً لا من احلام اليقظة ولا من احلام الليل ،

فندوته العالمين .

ماذا يقول أباؤنا في شعراء الاندلس ؟ ألا يرون فيهم شعراء طراز خاص ؟ بل ماذا يقولون في موشح لسان الدين بن الخطيب ؟ ألم يقيموه نموذجاً للشعر الاندلسي ؟ هلمّ تناقش ، على عجل ، مطلع هذا القصيد الرائع الذي يرويه كل من ألمّ ولو قليلاً بالادب العربي وشعره :

جادك الغيث اذا الغيث همى يا زمان الوصل بالاندلس

ماذا ترى ؟ أفكرّ لسان الدين بمقل ومحيط اندلسيين ؟ لماذا يتمنى الغيث ؟ انه لو افكر لم يقل هكذا ، لقد شغل عقله تصوّر شاعر الصحراء المتقدمة احشاؤه ، فانساه توالي المطر وغزارته في الاندلس ، فنظم كأنه ييثرب او منى وقد التصق لسانه بحنكه ، ولا يقع على نقطة ماء يبيل بها طرف لسانه .

اتبعني يا اخي ولا تقف ، فسأعرض عليك شريطاً ادبياً تراه كل يوم في سياحتك العقلية ، واعذرني ، اذا قلت لك ، انك قلما فكرت به تفكيراً عميقاً . انني ادعوك الى التفكير العميق ، فخفف سيرك . المفرق خطر ، خطر الموت !.

٢

ويعد فلا بدّ لهذا الانسان العاقل المجنون من أوهام يرتع بها . ان خلس من وهم تملق بآخر ، كالخرباء في الشجرة الغضة الاشبة ، فالانسان يبني دائماً دنيا جديدة يعيش فيها ، وكلما ظن انه أفلت من وهم ارتقى في حضن آخر ، كمن يضل في مفازة يهائم تكذب فيها العين والاذن ،

فكيف انجّه يستقبل افقاً جديداً ، مدّة العين والبصر .

خذ مثلاً من يسمّون انفسهم أحرار التفكير (Libres penseurs) .
أحقاً ما يدعون ؟ لا ، وحياتك يا اخي ، قد لا يفكرون مرة واحدة ،
بجريّة مطلقة ، في حياتهم كلها . انهم يتابعون من استتبّط هذا الاسم
بلا تفكير . وكما في الدين كذلك في الادب ، فالذين يعدون انفسهم
مجددين يقلدون ولا يدرون . وتلك مصيبة ...

من يخلُ بنفسه ساعة ليناقد الادب العربي كيف صرف عشرة أجيال
تدهشه دعوى شعرائنا الصارخة وتبجحهم الأجل في كل حقبة حتى
الساعة ، ويستفزع تحتّر العقول وجودها كالجليد . اذا فتح أذنه جيداً
سمع قعقة سلاسل التقليد التي يسحبها شعراؤنا وكتّابنا على بلاط الكهوف
المظلمة كالحصان المقيّد ، ولا يستحي أن يقول : هل كان هؤلاء بلا عقول ،
ما خلا نفرأ منهم ؟ وهذا النفران حاول التجديد ساعة في شبابه وأبدع
بعض صور وخواطر — لا اقول اوحثها اليه ربة الشعر ، فهذا تعبیر
مضغه العالم عشرات الاجيال وقد حان أن يلفظه بعد يقظة وجدانه —
عاد في شيخوخته الى صيرة المتقدمين ، كأننا انحطاط قواه أعدّ لبذور
التقليد تلك التربة الفاترة فطرت والتفتت ، وأخذت الوراثة تعمل عملها .

فالتقليد ، داء أدبنا الويل ، هو تصلّب شرايين قلب الادب العربي .
والعتيق هيات أن يلين بعدما يبس . فلنفقش اذن عن القلوب الفتية .
اننا لهؤلاء نكتب هذه الحمية ، نكتبها للشباب قبل ان تدركهم السن ،
فالحمية رأس كل دواء .

ألا ترى كيف ندعى الى حفلات الرثاء فنبكي على الموتى بعد الف
عام ؟ ما أرق قلوبنا وأسخى عيوننا ! لقد صار الشعراء في هذه الايام
كالناديين والناديات ، وكثيراً ما يزوجونهم في مأتم واحد . والغريب

العجيب أن تسمع هؤلاء الشعراء يسألون الشمس ألا تطلع حزناً على
الفقيد الغالي ...

اتفق أن كسفت الشمس يوم موت ابن عمده الرسول العظيم ، فأراد
أحدهم ان يمتها عجبوبة ، فقال النبي الكريم : ما كان للشمس ان تتكسف
لموت احد !

فهل قرأ هذا شعراؤنا وكفوا عن تشييع الشمس وتكفينها وتحنيطها ...
وهي الأم المحيية ، وهلا اثثوا عن تشييع احبابهم بها ؟ فمن يستطيع
أن ينظر الى عجبوبة كالشمس او يقربها ؟ افلا يحتاج الى نظارتين سوداوين ؟
ثم من يجب وجهاً بضخامة القمر لا يضارعه الا وجه جدنا الفرزدق رحمه
الله ؟ هذا تشييع لذت للناس طريئاً ، اما اليوم فصرتا نقرأه ولا نحس .

قلنا في ما سبق ان اكثر الناس يفكرون بمقول جيرانهم ، والآث
نقرر ان معظم شعراء العرب فكثروا بمقول نفر قليل ممن تقدموم ،
وبأذهان من قلادوم من العرب والمعجم . فمن لم يفكر بعقل عمر والمتنبي
والبهاء ، فكثّر بعقل موسى وبودلر ومالرمه وببيرون وغوته وغيرهم .

قال الشاعر العربي : سقى ضريحك صيبُ القطر .

والله ما ادري لماذا هذه السقيا ؟ أليفرخ وينبت ويصير دمنة ترعاها
الابل والشاء ؟ ام لقرقوي كبده الباردة ؟ اما نحن فأعدنا كلامهم بلا
تفكير ، ورددنا ما قالوه اجيالاً ، ولم نتساءل لماذا .

وقال النائر : سقى الله قبره ، وبرّد ضريحه ، وطيبّ نراه .

تلك صورة انتزعها الجاهلي من معتقده ومحيطه ، فهو وليد أرض
ملتهبة وريب خرافات ، فأشفق على من هوى من الحر والعطش حق
قال طرفة ابن العبد :

فدعني اروي هامتي قبل موتها ستعلم ان متنا غداً آيتنا الصدي

اما نحن فما يجعلنا نقول مثلهم ؟ أدينتنا ، وعندنا الجنة وفيها كل
بكر نضير ؟ أبلادنا ، وهي غزيرة المياه لا يزورها الحر الا لماماً ، وإذا
مرت ريح الخمسين صرنا بحاجة الى الدفء .

ألسنا نقول هذا لأننا نفكر بعقول غيرنا ؟

وقف امرؤ القيس على الاطلال وبكى واستبكى ، فأعجب العرب
بهذه الصورة الجديدة ، وفنتهم تعبيره الطريف « قيد الاوابد » ثم اخرج
صوراً جديدة لم يسبق اليها ، فخلع عليه الادباء من ثنائهم حلاً ومطارف
لم يلبس سليمان يوم عرسه اجمل منها ، فاقتفى اثره الشعراء ووقفوا
جميعاً حيث وقف ، حتى أدرك المتنبى ذلك بعد أجيال فقال :

إذا كان مدح فالنسيب المقدم أكل فصيح قال شعراً متم ؟

اما الناس فلم يقفوا مطيعهم على هؤلاء الواقفين على الطلول بعد امرئ
القيس ، ولا جبروا خاطرهم بكلمة . بيد ان ذلك الازدراء لم يردعهم ،
فظلوا يقفون ويبكون ويلأون الليالي نواحاً وعويلاً ، ولا يزالون يلوكون
هذه التعابير ويمطونها كما يفعل الصبي بملكنه .

فيا عجباً لمن يفكر بالوقوف على الطلول ، وعنده فنادق الاصطياف
التي يجري فيها ما لم يحلم به امرؤ القيس وعمر ... فأين اصحابنا يقفون
امامها ، وهي العامرة اليوم بحسن العرب والمعجم ، والحالية بعد شهرين
من ذلك الجمال الفاتن العابت بالاحلام التي ترن الجبال رزاة ...

وكانت الاسلام ، فانفرد الاخطل بوصف الخمرة وفاق من تقدموه
وعاصروه ، ومدح الملوك مدحاً هزئاً ، لأنه نجيتهم وجلسهم وحليفهم ،
فما بالنا نسمع حتى اليوم من هم كيوحنا لا يشربون خمرأ ولا مسكراً ،
يحدثوننا بلسان الاخطل وأبي نواس وغيرهما ممن لم يصحوا ساعة في
حياتهم حتى قالوا : وما العيش الا سكرة اثر سكرة ثم لا ينجحون

ان يمدحوا او يرثوا من لم يروا لهم صورة وجه ...

وفكر عمر بن ابي ربيعة بذاته فوصفها وصفاً واقعياً دقيقاً فأعجب الناس بقوله ، وشاقهم تمبيره : حيرَ الدمع ، وماء الشباب ، فقلته من أتوا بعده ولا يزالون . ولو درى المقلد انه دون المقلد مها سما خياله ، واتسع فكره ، وطاوعه الكلام ، لعدل عن التقليد ، ولم يصبه ما اصاب بسمرك داهية الالمان بعد خطاب انكليزي القاه في لندن ، فاستحق ثناء مفكري الانكليز الا واحداً منهم ، فإنه هزّ يد المستشار قائلاً له : صنع في جرمانيا . فمرق بسمرك وضحك السامعون متألمين .

واعجب العجب ان يقول شاعر قصيدة مطلعها : بانث سعاد ، فيليس اشرف جبة ، ثم يأتي بعده زهاء مائة شاعر يقولون قصائد اولها « بانث سعاد » ولا يلبسون قميصاً مرقعاً ، حتى يقوم في آخر الزمان شاعر طريد — احمد فارس الشدياق — ويقول قصيدة استهلها بيبانث سعاد فيحمل على بارجة ويكرم ايما اكرام ، ولا ادري بل لا اخمن اننا انتهينا من بانث سعاد ...

قال امرؤ القيس : ألا ايها الليل الطويل الا انجل ، فرددوا قوله اجيالاً ، حتى ادرك ذلك بشار الاعمى فقال :

لم يطل ليلى ولكن لم انم ونقى غنى الكرى طيف ألم

إن في هذا البيت حقيقة لا يعلمها إلا المزمون ، فهم ، وحدم ، يعرفون ماذا يفعل الطيف اذا طرق ، وعرض بين الاهداب والاحداق ... وكان هذه الفكرة لم ترق لابن الفارض بعد أجيال ، فأخذ يتأوه ويتململ على فراشه هاتقاً :

يا ليل ما لك أولٌ يرجى ولا للشوق آخرٌ

وقال الأخطل : ما زال في ماردن الزيت يعتصر ، فتابعه الكتاب

والشعراء وقالوا : ما غرّد القمريّ ، وما كثر الجديدات ، وما اختلف الملوان ، وما ذر شارق ولاح بارق حتى وما بلّ بحر صوفة ... وهكذا دواليك ، وان طلبت التمتة وجدها عند الهمداني صاحب كتاب الالفاظ .

وانتشر القرصان في بحور الشعر ، وكثر صعاليك الادب كثرة رابعة ، ففزا المتأخرون المتقدمين حتى تناولوا الفكرة الواحدة وصّبّوها بألف قالب وقالب ، كأن الغزو سنة عربية لا محيد عنها حتى في الادب . وهذا دليل على ان الاحفاد لا يفكرون ، فقالوا الشعر في غرض واحد ، ولم يختلفوا في التعبير الا قليلا . ان هذه القوالب لا تزال مصفوفة في دواوينهم كالتي يضعها الفاخوري لجراره وأباريقه واكوازه وصحونه ، فإذا لم يقم من يحطّمها ويبتدع انماطاً جديدة تأخذها العين ، فالادب العربي لا يتجه اتجاهاً مستقيماً الى التجديد .

٣

وصم متمشرق العرب بضؤولة خيالهم ، فنحا نحوه كل متمشرق ومستعرب ، ولم يفكروا ان العربي البدوي رحالة لا يقر له قرار ، فهو لا يثبت في مكان ليطيل التأمل ، أنعامه سائرة وهو سائر وراءها ، لا يستسلم لعقله الباطن لتتجلى له الرؤى ، فهو حسي واقعي . واذا استمرأ المرعى واستقرّ بمكان الى حين ، فهو كأخيه الذئب ينام باحدى مقلتيه ويتقي بأخرى المنايا ...

ويعيبون عليه ضحل مباحثه كأنهم يحهلون ان الراعي لا يخلق الارض حلقاً ، ولا يقتلع الأنبتة من جذورها ، فشان العربي في بيانه شأنه مع قطعانه ، وهو كالنحلة تلثم الزهرة ولا تعضها .

ذاك شأن القدماء ، اما الجدد فترسموا خطى الاولين قائلين : انّا وجدنا

آباءنا على أمة ، وانا على آثامهم مقتدون . لم يخرجوا عن دائرة رسمها لهم
الغابرون لاعتدادهم بأنفسهم وتقديسهم السلف . اراحهم الاسلام من تأليه اللات
والعزى ، ولم يرحمهم من تقديس شعرائهم وتنزيهم حتى العصاة .

قال بول كلوديل في معرض كلامه عن هينو : لا شيء يبيت الامم
كلاستنقاع في بؤرة التفتن والفساد ، وكالاطمئنان الى الراحة والارتضاء
بالدون ، وكترك الواجب والتردد في التضحية . وهذا ما اصاب العرب في
الادب فقصروا في مضاميره .

اما هؤلاء المشرقون ، فلا أراهم يفهمون لباب الأدب العربي فهماً
صحيحاً ، بل يفهمون تاريخه . وتفهم تاريخ الادب غير تمحيص نصوصه ،
فترجوا الشعر العربي الى لغتهم كما فهموه ، ونظروا الى ما قال الشاعر لا
الى كيف قال ، ففاتهم جمال التعبير ولم يأبهوا للموسيقى ، كانوا الشعر
يقوم بمناه دون مبناه ، فجاءت تراجمهم متشابهة الصور مماثلة لأنهم فهموها
فهماً سطحياً .

لا يذكرني هؤلاء المشرقين غير اخوانهم المرسلين الاجانب الذين
يعظون في كنائسنا برطانة تضحك الشكلي فوق النمش ، وتفقد الهيكل
مهابته والشعب خشوعه . يظنون ان الوعظ ما يفعلون فتجيء عظمتهم
ملهاة ومسلاة ...

فما قولك في الذين يزعمون ان الشعر الرفيع يقوم بالترجمة ، ويحاربهم
في زعمهم فريق منا ؟ فالريحاني ادل بهذا المذهب في كتيبه « انتم
الشعراء » وتمثل الامثال .

لا أرى الشعر يقاس بالترجمة - نعني الشعر لا النظم - وكل قطعة
فنية في كل ادب تذهب بروعتها ترجمتها . خذ الشعر الجاهلي وترجم منه
ما شئت ، ثم قل لي ماذا ابقث منه الترجمة ؟ وهذه التوراة ألم تفقدما الترجمة

شيئاً بل اشياء من روعتها للشعرية ؟ ..

فلأقولْ عنك الامر . هاك ، مثلاً ، ترجمة كليان هيار لشعر عنتره ، فهو يقول ان عنتره هو القاتل « اننا ندور كما تدور الرحي على قطبها ، بينما سيوفنا تتفتت على رؤوس محاربينا » .

اعرفت اي بيت ترجم من شعر عنتره ؟ وهل بقي شيء يقال له شعر ؟

خذ مثلاً آخر ، ترجمة نجيب الحداد لقطعة هينو « واترلو » . راجعها في منتخباته ، وقل لي اين الشعر فيها ؟

قال شلي : كل شعر سامٍ لا يحدّد ، قد تزيج ستاراً إثر ستار ولا تنصّل الى جماله الحقيقي ، فإذا يبقى من الجمال الذي يعنيه الشاعر اذا ترجم هذا الشعر ؟ وقال ايضاً : الشعر في رائحة الورد ولونها ، لا في نسيج العناصر التي تتألف منها . فلغة الشعراء تظهر دائماً بلون خاص ، وموسيقى لها صداها ، وبدونها لا تكون شعراً ، فترجمة الشعر ضرب من العبث ، ومن يحاول ترجمة شاعر الى غير لغته كان كمن يلقي بنفسه في بوتقة ليكشف اسرار لونها ورائحتها » .

قال فالري : الناثر يمشي مشياً ، والشاعر يرقص رقصاً ، وهل يكون الرقص بلا وزن ؟ وابن الايقاع الذي ينفق الشاعر ساعات وشهوراً لإحداثه إذا ترجمت شعره إلى غير لغته ؟

يذكرني هذا القول بـ « ولز » عندما كتب كتاباً يعارض فيه سفر أيّوب ، فقال بلسان بطل روايته — وهو أب مات ولده ، فمزّاه الناس بخلود روحه في السماء — فاجابهم : انا احببت جسده لا روحه ...

فاذا كان الشعر يقاس بالترجمة فما هو الذي نسميه فناً ؟ الفكرة التي يرمي اليها التمثال هي الفن ، ام ما في التمثال من حياة ؟ ان تكن الفكرة فلنقم نصباً كما كان يفعل العرب ونسميه هُبْل والعزّي ، أو فلنحفر

فكرتنا في حجر وندعو الناس إلى الإعجاب بها كفن . واذا كان هذا ،
فأي فرق بين تمثال يحفره رودين ، وبين ما يركمه الصبيان من الثلج في
شباط ليخلقوا منه تمثالا ؟ ..

وقياساً على هذا تقني زجاجة من ماء الورد عن جنيئة ضاحكة ، وقارورة
من ماء الزهر خير من مشهد بستان منور في صيداء ، فلا تعود تشاق
أيار نفوس الوري .. ولكن هكذا قال بعض المشرقين فلنقل مثلهم ،
فلنجتر ما قالوا . هكذا حكوا فلنحك !

قلنا ان المعنى روح والتعبير جسد ، وهذه الكلمة قالها المتأني منذ الف
عام وازيد ، ولكن الهمداني وغيره من مصنفي كتب الالفاظ يريدون
ان تكون الاجساد كلها متثلة ، ولو كان ذلك للّ الناس بعضهم وذهب
ما نسميه « جالاً » ، فما قولك ، اراحك الله ممن يفكرون بقول جيرانهم ،
بوجود متشابهة تروح ونحيء في مكان واحد ؟

إن هذا ما أصاب أدبنا المسكين فكثرت الجرّة فيه وصار كزاً .
تماهير ككسّر يابسة في جراب متكرّش ، وانشاء متورّم كلحم تفحه الجزار ،
وتقليد طويل العمر فلم يستنبط بعد المتقدمين ، تعبيراً جديداً سوى شعراء
قليلين جداً واقل منهم استنباطهم . وما اشبههم بالنحاة الذين يصنفون كتب
النحو ولا يزالون يمثّلون بـ « عندي رطل زيتاً » ، والزيت ملء الارض
في هذه الديار .

فلو قرأت احمد شوقي ، مثلاً ، رأيت عنده تعابير جديدة ولكن اكثرها
منبوش من اضرة القدماء فهو كالذي يمشي عليه الأثريون في مدافن
جبيل والأقصر ، وما احدث شوقي بضعة تعابير حتى تناقلها عنه شعراء
اليوم مثل : رفراف الحلد ، وجارة الوادي الخ .

الشعر موسيقى قبل اي شيء آخر ، وهذه الموسيقى معنى ، واذا فقدته

فهي ألحان مشوّشة لا تطرب ولا تهز . وكما تتجدد الموسيقى وتتنوع
هكذا يجب ان يتطور الشعر ، ولن يدرك هذا الا بخلق تعابير جديدة ،
لها رنة وصدى ووقع طيّب في النفس ، فقد مللنا تعابير الاقدمين كما مللنا
وغلّ كل لحن يكرر ويعاد كل يوم ، فالالتجاء الى هذه التعابير الهرمة
يقتل المعاني في ادبنا ويلهينا عن التفكير .

فالشاعر كياوي ألفاظه الأجسام ، يؤلف منها مخلوقات جديدة ، وهو
كالباقى الذي يخرج من نباتين نباتاً ثالثاً له خواصها ولكنه غيرهما .

وكما يطعم النباتي شجرة برية فتصير بستانية ، هكذا يفعل الشاعر في
الألفاظ حين يركبها تركيباً فنياً . أريد ان لا يفهم من هذا أننا ندعو
الى نبذ القديم وتركه يجملته . اننا ندعو الى ترك تعابير عمت حتى ختت .
ندعو الى ادب جديد ليس كما تخرجه لنا الطباعة من رسوم رافائيل
وميكالنج ، وليس كالخطوط التي يرسمها الصبيان على الحيطان ، فمثل هذا
الادب يجب ان يموت لأنه لا يكون من مواليد الحياة والسعادة . إننا
ندعو الى أدب له جمال الروح والجسد ، فالمعاني هي الخطوط ، أما التعابير
فهي الألوان .

لم ينبذ القدماء ابن الرومي الا لجهومة ألفاظه وابتذال تركيبه وتعبيره ،
وهذا خير معبر لنا عن ذوقهم الفني . أما بعض ادباء اليوم فلم يكرموا
ابن الرومي هذا التكريم الضخم الا لابتلائهم بدائه .

ولم تكن الجرّة في التعابير فقط ، بل اجتزّ العرب المعاني فما زالت الحكمة
تتناقل من ابي العتاهية الى الزهاوي ، وما زالت الاغراض هي هي ، والتعبير
هو هو ، فلم تصفحت ما قيل في حفلة الفردوسي وحفلة المتنبي وما قيل
في وديع عقل يوم موته ، وقابلته بما قاله هيفو في تيوفيل غوتيه ، ظهر
لك أن تصيّدنا تعابير الاقدمين ومعانيمهم يقتل شعرنا الحديث .

وأقوى مشجع على هذا الشعر الخفيض كيلُ الصحف الثناء لهؤلاء المحترمين .

فكل حفلة عند الصحف شائعة ، وكل قصيدة عصماء رائنة أو قطعة من الخلود ، وكل خطبة حجاجية طارقية . لا اكتم أنني سررت جداً بما قرأت من فصول نقد لحفلة المتنبي ، وأعجبتني مقابلة الصحافة كلها بما يستاهل ، فليت الكتاب الذين يعينهم هذا الأمر يدققون أكثر ، ولا يرحمون هؤلاء الذين يركبون المنابر ليسمعوا الناس مبتذل القول .

وما زال الشاعر العربي يفكر بالتعبير الذي تقضى شبابه وذهب وقته ، فهيات أن يبدع ، وما زال يتخيل أننا نقيسه بالمقدمين لا نخرج من أقبيلتهم السوداء .

قال الدكتور غرمانبوس المتمشرق الجعري : ان الشعر العربي في أدواره كافة يتجه اتجاهاً واحداً نحو الافراط في العناية بالألفاظ اذ يعتمد الشاعر الغوص في محيط اللغة حتى ينتقي الالفاظ المختارة ، وفي سبيل هذه الغاية تضيق من بين يديه الغايات العاطفية والفكرية التي من اجلها نظم القصيدة ، فكان الشاعر يرى ان القصيدة ليست سوى طاقة من الالفاظ البارزة الجميلة .

لا يادكتور ، إننا نشكو قلة الإبداع والتفتيش في محيط اللغة ، إننا نشكي ادبنا من تعابير بعينها يحجرها الشعراء ، فلو قرأت شعراً قراءة متأنة لرأيت ان شعراءنا لا يفوصون في محيط اللغة كما توهمت ، بل يفوص المتأخر في بحر المتقدم حتى جاءت التعابير والألفاظ هي هي ، وهذا الذي جعل الشعر العربي كريهاً مقبهاً ، ما أشبه شعراءنا وكتابنا بولد يأخذ عن أبيه تعابيره ونبراته ومعانيه فلا ترى الإنسانية في هذا المخلوق إنساناً جديداً . إن ترومت نقاد العرب حصر الأدباء في نطاق ضيق من التعبير فصار الأدب إلى ما صار إليه .

والجمهور ، أو الرأي العام ، اضخم حجر عثرة في ميل تقدم الفنون كلها ، فهو الذي يخلق الجمود في كل شيء وخصوصاً في الادب والدين . فاللقويون يقولون الباب بوجه اللسان ، واللاهوتيون يسدونه بوجه العقل ، ويحرمون التفكير ويتجهضون على أصحابه ، كما فعل احد الآباء في رده علينا بالبشير . ولا بأس عليهم ان لا يفتروا مدافعين عن الله ، كأن الله من حزبهم ، كما قال غوبلز ، أما الرأي العام فهو عبد الفريقين .

قال جورج سورل : قد كان غضب باغي Péguy شديداً عندما ظهر كتاب روستان Rostand وتناولته الصحافة بالأطراء وقامت الضجة حوله ، وتفاضت عن كتاب باغي « جان درك » الذي ظهر في تلك الفترة عنها . اعتقد باغي انه « مضام مظلوم » فافهمته أن الفن الحقيقي لا يمكن ان يدركه الناس كما يدركون الانتاج المادي ، وانه يجب ان تنقضي عدة سنين على الفنان ليعرف قدره ، فدقة الفن لا تفهم فوراً ، وكل غرابة تدهش وتنبذ بادية بدء .

ثم يعقب سورل على هذا الكلام قائلاً : اما باغي فلم يجب ، والسكوت دليل الامتناع . ويقول سورل ان « جان درك » باغي طريقة فنية الخ .

فاذا كان التجديد يسبب لصاحبه غضباً وسخطاً في أمة كادت تبلغ الاوج الفني الادبي ، افلا نعذر العربي اذا خشي التجديد ولم يجرؤ عليه ، وارضى الجمهور كروستان ؟

وهل اكثر خصوم المتني غير جنوحه الى التجديد ، فشقه طريقاً جديداً اكثر من المعجبين به - اللهم من الذين لا يقدرسون القديم ، وما اقلهم - ولا يرون في الشعر الجاهلي ما نراه نحن في قداسة سيدنا البابا من عصمة وتنزيه .

والآن قد حان ان نمر مرة عجلي بما يمضفه الكتاب والشعراء من تعابير ، وما يجترّونه من جل ، وما تتلقفه اقلامهم من الفاظ كأنها كرة وضعت لصوالجة ...

يقولون : بُعد الثريا عن الثرى . قالها عربي مولع بالجناس فحلت يوم مولدها . ويقولون : مزجر الكلب ، قالوها يوم لم تكن الكلاب تجلس على مقاعد الرجال وفي احضان السيدات وتنام بين اذرعهن . . . وقالوا : لله دره ، ولفظ كالدر ، وقصيدة عصماء ، وثقته مصدر ، وكأن على رؤوسهم الطير ، وكن افواه القرب ، وكلفني عرق القربة ، وشاعر فحل ، واقتض ابكار المعاني ، وتقليم الاظافر ، وذو قرن الغزالة ، وارخت حبالها الذهبية النع ...

اهكذا يكون البحث في محيط اللغة يا دكتور غرمانوس ! لا والله ، فلو كانوا يبحثون لما حلت اللفظة الواحدة عندهم محل عشرين ، ولو كان التنقيب الذي زعمت لما كانت هذه الرخاوة في منشورنا ومنظومنا . ان الفاظ العربي اليوم كمبائه ، فهي لا تصلح لواحد ، وتصلح لكل منا على وجه الأرض ، هي ثوب يشمله وان لم تفصل لتلبسه .

فلنسأل الدكتور المتمشرق — ان هذه الالقاب الضخمة ترعب — ما يقول في تقليم الاظافر ، وقد صار موضة يدين بها حتى بعض الكهنة العصريين ... وعندنا ، بعد ، من يستعمل هذا التعبير كأننا في قلب الصحراء ، زمن تأبط شراً ، والشنفرى ، وكل صمالك العرب .

وما رأيہ يعمق القرية ، والمياه توزع على البيوت وتكاد تحترق في كل غرفة ؟ بل ما رأي جنابه باقتضاض أبكار المعاني ؟ أليست من ملائمت الشاعر الفحل ؟ كم واحداً يفكر بما يكتب عندما يخطها على الورق ؟ ..

بل ما رأي القراء بالزخشري القائل : فلان فقيه عالم بذوات الضبع وذوات الحمل ؟ انني أعجب كيف لم يهتد اليها الكتاب ليستعملوها في وصف الشعراء والفحول الذين يفتضون ابكار المعاني .

وفه دره ، اي درّ نعي ساعة نقولها متمججين ولا نياق عندنا ؟

وما تقول بنفثة مصدور ، وكثيراً ما يستعملونها ! ارتاح النفس كثيراً الى رؤية البصاق مصوراً على الورق ؟ اشهد ان نفسي كادت تجيش عندما قرأت مثل هذه العبارة لوليّ الدين يكن : « عينان كأنها بصقتان » واسفت ان يستعمل اديب متأنق مثل هذا التعبير .

واقواء القرب ما يذكرنا بها وعندنا الميازيب والشلالات ؟

وطلوع الشمس ، أنظّل نعبّر عنه بذرّ قرن الغزالة ، وارخت جبالها الذهبية ؟ فإين الذهب لنذكره بعد ؟ اما غرق مع ذكاء الشاعر فياض ؟

وما رأيك بشاعر كالبارودي يصرخ :

هل من فتى ينشد قلبي معي بين خدور العين فالاجرع

وعنده مدينة تضيع فيها الجمال المحملة هشيم برسم وأرز ، ومدينة تستغوي الحبيس . وما تقول بآء وجرة يذكرهما ابن عاصي حماء - الفارض - القاعد على ضفاف النيل ؟

حقاً يا كلوديل ان التعفن آفة الفكر البشري ، وما اكثر المجترين .

اما الصور التي اجترّوها في قبولة الفكر العربي ، وقبولة الفكر اجيال واعقاب ، فنظرة الى أي ديوان شئت تركيبها متكئة على الارائك والصفف . شبه بدوي النظرة بالسهم ، والحاجب بالقوس ، فاجترّ تشبيه كل من قال شعراً من المتبدّين والمتحضّرين . لقد شبه ذاك البدوي بما لديه من آلة خبّر آلام وقمها ونزعها ، فما للحضري يردّها حق اليوم ولا قوس عنده ولا سهم ؟

وشبه آخر القد بالنصن ، والاصابع بالعنّاب ، والعين بالترجس ، والحد بالورد النخ ، فصارت قدود الحسان جنات تجري من تحتها الانهار . وشبه أحدم صدغ الحبيب بالمعرب ، فصرنا لا نرى الا عقارب يصورها المتأخرون والمتقدمون تارة شائلة أذناها وطوراً مرتججة .

ان زعم المتقدمين « من سرق واسترق فقد استحق » مهّد لهذا الاجترار ووطأ له ، فقلّ التفكير وابتذل التعبير . واذا شئت ان ترى فاستعرض كتب الادب كمثل السائر ، والصناعتين ، والوساطة ، وغيرها . لسنا ننكر على بشار اجادته حين قال :

وكنا اذا الجبار صمّر خده مشينا اليه بالسيوف نعاتبه
فقد برّ الفرزدق بصورة فيها كل الفن واللباقة والتنوّق ، ولكننا نلوم ابانواس في تضمينه بيت بشار وافساده إياه . قال بشار :

يارحمة الله حلي في مساكننا حسي برائحة الفردوس من فيك
وقال ابو نواس :

يارحمة الله حلي في ماسكننا وجاورينا ، فدتك النفس من جار

ماذا قال أبو نواس ؟ الا ترى انه لم يفكر ، بل خطر على باله مثل النحاة : يا جارتا ما انت جارة ، وعنت له التفتية ، وما اشيع هذه الكذبة عند العرب ، فقال : فدتك النفس من جار ، وكثّل بيته . وابو نواس شاعر إمام . قال الجاحظ في شعره : هذا شعر لو نقر لطن . ارأيت عمل الرواسم في الأدب العربي ؟

قال النقاد : ان بشاراً شاعر لا صبر له ولا جلد . ما صدقوا فيما زعموا ، فبشار جليد في الشعر الخالد ، ولكنه كان مهزلاً ماجناً فترك كل شيء في شعره على علاته ، اللهم في الشعر الذي نسميه شعر الساعة ، يقوله الشاعر ارضاء لمن يُبرمونه ، اما فيما عدا هذا فلبشار شخصية أبرز من الشمس وانتم من الريح ولا تجدها في شعر شاعر عربي .

قال طرفة الجاهلي : فدعني أروي هامتي الخ ، فقام شاعر بعد اجيال يقول :

فيا رب ان اهلك ولم ترو هامتي بليلى امت لا قبر اعطش من قبري
كأنا فتنت هذه الصورة شاعرا فنسي دينه الحنيف مهدّم خرافات
الجاهلية وعقائدها .

وقال ديك الجن المحصي يحتر في احدى قيلولاته :

وعقدت بين قضيب بان اهيف وكتيب رمل عقدة الزنار
فصرنا نرى في قدود الاحباب اغصانا ، وفي الاكفال كنبانا . شكل
غريب مدهش تصوره ديك الجن فقل لنا حبيبه كالنملة او الزنبور .
ان كتيب هذا الشاعر المأفون يغلي ثمنه اليوم الاستعمار الصهيوني ، ولا يحمي
مواته الاخير بزراعة الليمون والموز .

وبعد فما أصرح الاخطل القائل : نحن معاشر الشعراء اسرق من الصاغة

لقد صدق التقليد ، وان يسرق فقد سرق اخ له من قبل ، هو الاعشى ،
كلاما سرق صورة النابغة ، ولكن الاخطل اخذا بشحمها ولحمها فقال :
وما الفرات اذا جاشت حوالبه الخ

ان هذا التقليد عاق الفكر العربي عن اتجاهاه ، فلم يتجه شعراؤنا في
تفكيرهم الى سمت معين ، ولم ينشدوا مثلاً أعلى ولا افتتحوا آفاقاً جديدة في
تفكيرهم وتصويرهم . نقرأ شعر متأخرهم فلا يصح لك منه شيء يقال
له شعر لم يقل مثله ، وترى التضاد في شعرهم جلياً . واليك مثلاً اكبرهم
شيخ المعرة ، فبينما هو يقررنا على قضية ، اذا هو يضادها حين تراءت له
أخرى احب ان يتبناها ، فكأنما هو ينظم أرجوزة في النحو والصرف
كأن مالك ، ولذلك تظهر شخصية شعرائنا ككتين رؤيا يوحنا بسبعة
رؤوس ، ولا يفهم من هذا ان المري إمتة بل انه كالراديو تتغلب
طفيليات احياناً في ما يذيع على الملاء .

خذ مثلاً بشاراً وعمر وابا نواس والمتني وابن الرومي وغيرهم ، فانك
ترام مجددين ومقلدين في وقت واحد . اذكر لك منهم ابن الرومي ،
اما انت فتقص من شئت ، فان ابن الرومي مجدد ومقلد في قصيدة واحدة ،
وما تلك إلا قصيدة «وحيد» الغنية التي يعجب بها ادياء عصرنا ، ففيها
يشبه ابن الرومي قدّ وحيد بالنصن ، وجيدها ومقلتها بالظلي ، وخدها بالنار ،
وريقها بالبرد ، ثم يراها ظبية وقرية ، وينمت الحافظها بالضعف ولا ينسى
عقد السحر التي خبرنا عمر في «داليته» ان هنداً التي لا تتجز ما تمد
نقشها له ، وهلم جرا . اما حين وصفها فأرانا «وحيد» راقصة نكاد نصفق
لها اليوم ، ونعطيهها نصف ملكنا كهرودوس .

واذكر لك شاعراً آخر من منافسي المتني وهو البيهقي - والبيهقي
والسري الرفاء لو لم يظهرهما مع المتني لكأناه - فالبيهقي يصف الربيع

ويذكر نرجس العيون ، وشمس العقار ، كما فعل المتقدمون ويفعل المتأخرون والمعاصرون .

ومن كتابنا الاحياء خذ مثلاً العقاد ، فانه يكتب كتاباً ضخماً في ابن الرومي سبقه الى موضوعه المازني ، ولم يزد العقاد عليه إلا دراسة عصر ابن الرومي ، وهي بالتاريخ اشبه منها بالدراسة الادبية الفنية ، دراسة واسعة غير عميقة ، كأدب طه حسين الذي عرّفه العقاد في هلال يوليو ١٩٣٥ .

ثم حاول العقاد ان يحدد في الشعر ، فنظم ما سماه غزلاً فلسفياً - ما أقل عقل الحبيب المتفلسف - وكرّ كرة أخرى فنظم لنا قصيدة خنثى ، لا هي فكاهة ولا هي جد ، بل هي نظم قنفذي ككل شعر عقادنا الجليل ، واليك مطالعها :

البيلا البيلا البيلا ما أحلى « سلب » البيلا

وان شئتُها كلها فارجم الى هدية الكروان « ص ١٣٩ » . نشدتك الله ان تقرأ هذه الرائعة ، فالبيلا هي البيرة ، وسلب هي شرب .

وتفرّب العقاد فنظم في الشيطان الذي لم يبق شاعر غربي ، قديم او جديد ، الا قلد شاعر عوص - ايوب - وقال فيه شعراً ، - تلقّيت مجموعة شعرية موضوعها لوسيفورس - فجاءت قصيدة العقاد التي سماها طه حسين ملحمة ، من الشعر المقادي البارد الذي يقول خيراً منه طالب موهوب متمرّن . شعر لا يرث ولا يطن ، اخرس يتوكأ على عصوين ويتهادى بين اثنين : عبد الرحمن صدقي وطه حسين . فأنسى له يرقص رقصاً كما يريد الشعر بول فاليري ؟ وصاحب هذا النظم ، « الفقير » الى ربة الشعر ، كما يوقع المتواضعون من رجال الدين محدثك دائماً عن الفن ويتفنى بحاله ! رحم الله مجنون ليلي فقد مات ولما يبلغ وطرا .

فلو تكون الاعمال بالنيات في الشعر ايضاً ، لوقع اجر هذا الفاضل علينا

وجعلناه فوق سدره المنتهى حيث وضع بشاره الحوري احمد شوقي ،
ولكن الفن لا رحمة ولا هوادة فيه . الفن غير الدين .

ويدهشني ان من ينظم مثل هذه السخافة التي يسميها طه شعراً يقول
بمعرض كلامه عن الادب العالمي (صوت الاحرار ٩ ك ١ ، ١٩٣٣) :
« ربما كان لنا الآن ادب صالح للنوع في لغات العالم لو تيسرت له وسائل
النوع » . طبعاً لا يعني المقاد غير شعره ، لأن شوقياً في نظر العقاد
كالمقاد في نظرنا او اقل .

فأي وسائل ذبوع يرتجي المقاد غير الترجمة ؟ اما قال صالح جودت في
مجلة الامام (١ ديسمبر ١٩٣٤) : « نحن نعرض شعره - اي المقاد -
للترجمة الى الافرنسية والانجليزية ، وندفع بعض الادباء لترجمته الى اليونانية » .

حاشية : اخال او أزعم ، كما يقول طه ، ان بغية العقاد من ترجمة
شعره الى اليونانية ايضاً ان تيسر للناس المقابلة بين شعره وشعر هوميروس ...
اذكر جيداً انني قرأت للعقاد كلمة في الالبادة حين ترجمت ، فرأى حضرته
شعر هوميروس يكاد يكون هراء في هذا العصر . قد يصح هذا الكلام
بشعر هوميروس اذا قارناه بشعر المقاد ...

ثم ماذا صار يا صالح ؟ لم يصر شعر المقاد عالمياً ! حقاً ان قصيدة الببلا
والفزل الفلسفي وقصيدة الشيطان التي زعم لنا طه انه قرأها وقرأها
وقرأها .. لمن زوائج الادب العالمي ، ومثلها كل ما نظمه المقاد ببراعته
وكسبه بنبوته .

وهذا ايليا ابو ماضي يحاول التجديد ، ومومياءات الاقدمين تغويه
بظواهر لا تعد ، كأنها الشياطين في اسطورة القديس انطونيوس (راجع
رواية فلوير) فيرصها بين عذاراه الطريئة ، فتبدو كحصىات فيفساء
في جدار جلّ ما فيه حديث . خذ مثلاً قصيدته التي يختم كل مقطع

منها بـ « لم أجد أحداً » ، إبحث لتعلم من اي شاعر قديم استعار هذه
« اللازمة » .

ثم خذ قصيدة أخرى سينية عنونت بهذا الشطر « وبلادنا متروكة
للناس » فقرأ فيها يشبه كامريء القيس « بمسبح الرهبان في الاغلاس » ،
كانه نسي ان زماناً كانت فيه للرهبان مصابيح تضاء في الاغلاس قد
انقضى عهده .. ثم لا يحجم ايليا ان يتفحنا بالكذبذب ، ويأخذ تعبير الشاعر
الاموي عينه « حز مواسي » ليسد به ثمة قافية في القرن العشرين .

ويستعمل هذا المثل ، محشوراً ، فيقول : وضريت اخماسي الى اسداسي .
ومحصول كلامه دق الكف بالكف للتحسر ، وليس هذا مفاد المثل العربي :
ضريت اخماساً الى اسداس ، الا اذا كانت يد من يقوله سداسية .

وفي قصيدته « الفراشة » يخاطبها قائلاً :

وكلما نورت في السفح زنبقة حشت للسفح من شوق مطاياك
ذكرتني تعبير ابي ماضي هذا بقول المتفلوطي لفرح انطون ، حين عاد
من اميركا الى مصر او حين ذهب الى اميركا — لا اذكر جيداً :

ان كنت لا تبغي لنفسك راحة فأرح مطبك والدني وبنيتها
ففقّب فرح المجدد على بيت المتفلوطي هذا بقوله : اتنا ركبنا الباخرة
فلانة فلا خيل ولا نياق .

فنصيحتي الادبية الى الشاعر ابي ماضي ان ينقّي شعره من هذا الزؤان ،
من هذه التعابير البائخة ، ويبدع تعابير جديدة تليق بشعره المعصري ،
فالشعر موسيقى أولاً ، والنغم المبتذل لا يهز النفوس .

ثم ما قولك بالزهاوي — اراحه الله في ضريحه من منكر ونكير —
القائل في فردوسيته التي يأتي ذكرها مع الفردوسيات والفردوسيين :

ولقد مرتني كما سر غيري ما بها من تزاهة الاحكام

زرت بالامس الروض امتع عيني واذا الورد فيه ذو أكام
 أي فرق بين هذا الكلام وبين محليات الصحف ؟ فهل تقول بعد هذا :
 من قال السماء فوقنا ، والأرض تحتنا ماذا قال ؟ ... ولكن كل كلام
 يستقيم وزنه هو الشعر عند الزهاوي والمعاد ، فهما بيضتا دجاجة واحدة في
 النظم ، وان رجح الزهاوي وشال المعاد في الميزان . فسبحان مقسم
 الارزاق وواهب القرائح !

٦

وهذا اخونا بشاره الخوري يقول قصيدة وطنية ، مطلعها : عش عزيزاً
 او مت بها مستقلاً . فيذكرنا بالمتني القائل : عش عزيزاً او مت وانت
 كريم . ثم افتتح قصيدة أخرى بقوله :

جعلت رسولي نسيم الصباح اليك وطرسي خدود الملاح

مليح وأي مليح هذا الطرس يقده صاحبنا من خدود الملاح ليصح
 فيه قول المثل : من يقص من جلد غيره يوسع . أما رسوله نسيم الصباح
 فيذكرنا بقول « الميجانا » : يا ربح ودّي للحبيب سلامنا . وقد يكون
 شاعر الميجانا أروع وأرق .

وفي هذه القصيدة التي بناها شاعرنا على الحاء ، لا شيء إلا لأن المنظومة
 له اسمه صلاح ، يأخذ بشارة قول بشار :

إذا ايقظتك صروف العدى فنبّه لها عمراً ثم نم
 فيقول :

إذا شاقك الشعر حر النجار فنبّه له العربي الفصاح

قابل ايها القاريء العزيز ، بين القولين ، تجدهما متقاربين كالسمين ، اي
بشاره وبشار ، ثم قس أنت على ما قيل ما لم يقل ، ولا تكلتني ،
وحدي ، الإستقراء .

الشاعر الذي لا يحدد فضله على الشعر العربي ، هو الذي يجري في
عروقه دمًا جديدًا . وهذا الشاعر هو خليل مطران ، قال شعراً ستصفي
اليه الاجيال مها عتق ، ولكنه حين شاء أن يرثي حافظ ابراهيم قال :

عظم الله فيك أجر الضاد وبنيها من حاضر او باد

وشكر الله سعيك يا خليل ، قف حدّ الحيط حتى نعزيك بالفقيد
العزيز . اليس هذا من الاجترار يا صاحبي ؟ ان في قصيدتك الطويلة ابياتاً
من الشعر ، ولكتك اردت ان تطولها فقمعت تجرّ كالعزّ في القبلولة .

والآن أنقض يدي من المجترّين ، ولا أقسو على مطران لانه كريم لا
يرد طالباً ، فهو على دين بشار في هذا ، يرضيهم كما ارضى المرعث ربابة
رية البيت ليأكل البيض طازجاً ... ثم ان عملاً آخر يدعوني ، ولهذا اترك
الطريق مفتوحاً لمن يحبي بعدي فينتقب عن المجترّين . فهذا الاتكال على
القدماء وهذا الغزو الادبي ، وهذا الاجترار ، بل هذا الاستنقاع كالבוشرية
قبل ان شجّرت ، وهذه للضفادع التي تنق فيها هي التي جعلت هذا الجمود
في أدبنا العربي . وقد أدرك ذلك بعضهم فقال في أحدم : لو قيل لكل
كلمة إرجمي الى صاحبك لما بقي له واحدة .

وآفة رواسم الاقدمين تنتشر اليوم في شعراء الجيل الطالع — الذين
يسمّون رمزيين — قال جبران : أشباح الليل ، لأنه كان يسهر الليل وينام
النهار ، فسمعنا كثيرين يقولونها مع أنهم كرسل المسيح لم يسهروا معه
ليلة واحدة ... وخلق الشاعر سعيد عقل صوراً وتعبيرات ، فاغار عليها الذين
استحلوها حتى عجم بها شعر الناشئين والبالغين فأفسدوا الطريقة وجنوا

عليها وعلى صاحبها . ونبش طه حسين تعابير من خزائن العرب مثل : انا زعيم ، وغيرها ، وألح علينا في استعمالها الحاح الذباب على قاضي الجاحظ ، ثم كرر وقال : مليح ومليح ومليح فقاموا ينحون نحوه .

فلندع للرجل تعابيره يا بشر ، فكثروا وانبشوا مثله فالميراث واسع ... رحم الله الأجداد كم أحيوا ، وما أكسل الأحفاد الذين لا يرجعون الى دفاتر جدودهم العتيقة ...

ان قلة التفكير تولد الاتباع الأعمى . قال طه حسين ، كما قال الشدياق منذ قرن : إن تكلف السجع صناعة ممقوتة ، فتابعه الكثيرون بلا تبصر حتى أصبحوا يرون كل سجع شيعاً ، وكل « بديع » رديئاً ، ولم يقم من يفكر تفكيراً معاكساً غير زكي مبارك فكتب كتابه القيم « النثر الفني » يعارض المتمشقين وطه حسين الذي تابعهم ويتابعهم دائماً .

وغير بدع أن تجدد الإجتراح في احدى صور الاقدمين ، او في معنى من معانيهم يعالجه العشرات منهم ، ويرددونه في كير نظمهم ، ولكن الغريب العجيب أن يختار شاعر معنى واحداً من معانيه فيقوله مراراً كما فعل شوقي في بيته : وانما الامم الاخلاق النخ ، حتى يقول الراقعي في نقد صديقه شوقي بعد موته : ومن عيوبه التكرار ، ان له بيتاً يدور في قصائده دوران الحمار في الساقية ...

وقصارى الكلام ان الطريق التي نسلكتها لا تؤدي بنا إلى ما نرجو من أدب رفيع ، فإذا ظللنا نجتر وتعلمك منبطين عافطين كالغز ، فنحن على ما نحن . انه لن يكون لنا أدب عالمي ما لم نفكر مثل العالم . فلندع ما مات من كلام السلف ، ولنفتش عما يخلفه في ديوان العرب .

بشارة الخوري ابن نخلة في رثاء احمد شوقي

باسم « البيان والجمال » اللذين لا نهاية لهما نفتتح « معرضنا » هذا .
فالادب بضاعة تعرض ، واسواقها القراء ، فمنها المستنبط البديع ومنها المزجي
والمزيف . وكذلك الادباء ، فمنهم من يؤتى قوة الاستنباط والاختراع
فتدهش السوق سلعه ، ومنهم المقلد الذي يتحامل على نفسه ، ويجر قوائمه
جراً ليخوض المعمة ، فيقصر عن بلوغ المحج .

والادب محصول ، فان سميت قحاً ففيه حب مكنتز وفيه كعاير ،
وان سميت ثمراً ففيه الجليل والدميم ، والزكي والكز ، وان سميت زهراً
ففيه الفاتنة الضحوك التي تتناول لتتكى ، على صدرك ، وفيه التي تقبل نعلك
فتدوسها غير مذموم ولا ملوم .

وان تسميه حيواناً ففيه الفاره والتنبل ، والحديد والبليد ، فقل سبحان
من خلق عباقرة في كل الكائنات ، في عالم الناس والوحش والطير والنبات
والجماد . ولكن عطاياه السنيّة نادرة وسخاءه قلّة ...

اما ان شبهته — أي الادب — بالأوادم فيشتدّ الالتباس عليك ويصعب
تمييز هذا من ذاك ، فالبشر يتصنعون ويتشبهون ليخفوا دمايتهم ، وهم

كأنهم يسرون على الدرب المؤدي الى القرية ، ولكن الزمان يقربهم
وينخلهم ...

فما اقل حظ المقلدين ، وما خيبة من لا يزيد على العقد خרزة ، وما تمس
الغزاة الذين لا يمودون بالسبايا البارعات .

يقول الشاعر : مساكين أهل العشق الخ ، أما أنا فاقول : مساكين دراويش
الادب ، فهم لا يبنون غير قهقور ، ومحسبون انهم يشيدون اهراماً تتزحلق
عليها العوادي وتقضي لسيلها .

يخلق ملايين كل عام ليس بينهم بارع الجمال ، وتغرّ القرون ولا ترى
امة مفرداً يحطم المقاييس النادرة ويخلق فناً جديداً . إن الأشكال المتبدلة
لا تفتن ولا تغري ، وليس من ينقل التصاوير الرائعة عن معجم لاروس
كن يخلقها ، وإن احكم النقل . إن الفن يكره الضرائر ولا يصني الى
ثروتهن ، والإبداع ، وحده ، يكتب ، الاسماء في سفر الخلود . فاكثر فينا
ايها الفن من أبنائك ، واقصر عن هيكلك جبروتك من لا يفوزون بجزء
من لاهوتك .

يقول « المجترّون » ان لغتنا العربية لا تعبّر عن افكارنا ، والتعبير ، مهما
سما ، يظل مقصراً عما نريد . هذا صدق إن سمعته من مقلدي الأقدمين
الذين يعبرون عن طلوع شمس لبنان : بذو قرن الغزالة ، ويقولون :
أثقل من رضوى ، وصنين قبالة عيونهم . ان من يؤمن بالوحي والالهام
ولا ينام ، والكتاب على صدره ، لا يأكل من قله خبز البقاء . ليس
معنى هذا أن نكلف الكتب ما ليس عليها ، فالكتب لا تحيي الموتى ، ولا
تحوّل الاحق عاقلاً ولا البليد ذكياً ، ولكن طبيعة الانسان اذا كان فيها
ادنى قبول ، فالكتب تشعّد وتفتق . فليتبذّر العقلاء كلمة قالها عربي منذ
الف ومئتي سنة .

اللغة بغلة شعوس حرون فلنحتل لركوبها والا لبطتنا، فليتان المستعجلون،
والكلبة لا تحيا ولا تتطق الا إذا قعدت لزق جارتها . فان أقعدتها فانت
ذاك النابغة ، والا فدع الألفاظ في زرائبها ، ولا تجلب الدب الى كرمك .

لم يخل قرن من الوف النظميين والمنشئين ، والقناطير المقنطرة من دفاترم
الخربشة تملأ الخزائن والرفوف . اما الكتاب والشعراء الذين ما برحوا
في فم الأجيال ، فتعدهم على اصابعك العشر . ألا فليتعظ الأحياء بالاموات ،
وكم في التاريخ من عبر للناس لو يتفكرون ...

لم نقل ما قلنا لنقطع رجاء عشاق الأدب ، فهم يعلمون مثلنا ان أداة
الادب الخالد قريبة يدها الذوق والتفكير ، ويجعلها الاطلاع ، وملاكها
الابداع ، ومن يتكل على الآلهة مات كموسى في الصحراء ولن يدخل
أرض الميعاد . كن مبدعاً ، وسواء عندي أكنت شعلة من السماء او
شرارة من جهنم . أبهري بنورك أو أحرقي بنارك ، فأنا على الحالين
صابر . إنني لا أحب الطعام الفاتر فكن إما بارداً واما سخناً يحرق شفتي
ولساني وسقف خنكي . فما أبشع وجوه القروء ، وكم نرثي لهم اذ يقفون
مسوخاً بين الجبابرة .

يقولون : لا يعجبه العجب . يا ويلي ! كيف لا يعجبني شيء وأنا
اطير به فرحاً واصفق له طرباً متى وجدته ؟ أما ان اكذب على نفسي
وعلى الناس ، اما ان أقول للخصي : ما أفطلك ! وللقزم : ما أطولك !
وللكرفح : يا غصن البان يا عمري ! فلساني لا يطاوعني وضحي لمتي
يضيء لي سبيل الاخلاص للنورية .

فكما يتمنى الأب أن يكون ابنه بارع الجمال وإن كان هو بشعاً ،
وكما يتمناه نابغة وإن كان هو بهولاً ، وكما يتمنى مع كل هذا ، وقبل
كل ذلك ، أن يكون فيه شيء من ملامحه للإطمئنان .. هكذا تتمنى نحر

لأدبنا العربي .

اظنني في غنى عن يمين الاخلاص ، ولكنني أحلفها لقليلي الايمان :

« أنا ، مارون عبود ، أقسمت وأقسم بحياة مارون عبود ، أعز الناس عندي ، الا اكتب في باب النقد الا ما اعتقده حقاً ، وان اخطأت فأنا غير مسؤول ... » .

فمن شاء فليصدقني ، ومن شاء فليتهمني ، وليعذرني اخواني فمن يحمل رطلا لا يحمل قنطاراً .

شوقية بشارة

نشرت جريدة المكشوف القراء في عددها الثمانين قصيدتي الشاعرين بشارة الحوري وأمين نخلة في رثاء الشاعر أحمد شوقي ، ومن كلامها الذي قدّمت به القصيدتين لقراءها : « ولنا نقصد من نشر الإثنتين معاً الا خدمة الادب والتاريخ ، تاركين للقراء ان يخرجوا من هذه المقابلة التي هيأتها لهم جريدتهم بالرأي الذي يوحيه اليهم ذوقهم الفني » .

قيل كان أبو نواس يصلي مع الجماعة فقال الامام : « قل يا ايها الكافرون » . فأجاب شاعرنا المتع : اللهم لييك . فأني بأس علينا لو لبّينا صديقنا الحبيشي ، ونحن من قراء مكشوفه ، مبتدئين بأخطئنا الصغير ؟

لا بد للشاعر من جوّ او محيط — سمّه ما شئت — يشرح فيه حين يعمل قصيدة . أمّا محيط أحنّا بشارة في قصيدته هذه ، فكان في السماوات العلى ، بل في السماء السابعة ، التي زارها مار بولس وعاد يخبر المؤمنين عنها . وقد يكون فاقه بشارة اذ بلغ « سدرة المنتهى » فاسمعه يعيط وينادي :

قف في ربي الخلد واهتف باسم شاعره فسدرة المنتهى أدنى منابر

لقد فصل بشارة من جلد غيره فوسع ، جعل سدرة المنتهى ، وهي عن بين العرش ، أدنى منابر الشاعر ، أما منبره الأعلى فهو « كتلك الساعة

التي لا يعلمها أحد الا الآب ، كما قال المسيح لتلاميذه عن الموت ،
فكونوا متيقّنين .

لم يحسب بشارة أقل حساب لقوله تعالى : إذ يغشى السدرة ما يغشى .
فحشر أحمد شوقي ولم يبال ...

لست أنكر أنهم يشبهون الشعراء بالطيور ، وسدرة المنتهى شجرة نبق
كما يقول المفسّرون ، فالتشبيه غير غريب . ولكن هذا الجو عال جداً
يخشى فيه على الطيور من الاختناق . فلو جعله ، مثلاً ، مع الرجال الذين
يسبحون لله بالغدو والآمال هان الأمر ، ولكن أنكون كرّمنا الشاعر
أو مدحناه إذا لم نطير فوق الكارويم والساووم ؟

وبعد أن قال بشاره بيته الأول في ذلك الأفق انقضّ فجأة كالعقاب
على رفّ حمام ، وخرّ الى ذقنه يقول :

وامسح جبينك بالركن الذي انبلجت أشعة الوحي شعراً من منائره
ومع أن « شعراً » ليست من الدخيل على الموضوع فقد جاءت نابية
وصدمت موسيقى البيت صدمة غير هيّنة . ويرفع الشاعر رأسه بعد هذه
الحرّة فيرى :

آلهة الشعر قامت عن ميامنه وربة النثر قامت عن مياسره

وبكلمة خلق بشارة ربة جديدة للنثر حفظاً للتوازن ، وهكذا رأى
أحمد شوقي كما رأى « يوحنا » الحمل المذبح . واهتزّت الحور لهذه الرؤيا
وقصّت شذوراً من غداثها لتكون ستائر لعرش شوقي السماوي ... ثم
ماذا رأى ابن الإنسان ؟ رأى أتراب مريم لاهيات لاعبات « باللاقوط »
في خائله ، ورهط جبريل يحبو في مقاصره ، كالعصافير التي تنتفجناحها
وتترك لعبة للولاد . وتكميلاً للحساب يأتي الملهمون بنو هومير ايضاً ،
ولا يتركون سجعاً لطائره . « كذا » .

ويضطرب الملكوت فتساءل الملائكة من هذا ؟ فيقال لهم كما أجاب
الفرزدق بالنيابة عن زين العابدين : « هذا الذي » أربع مرات ، فيوفق
الشاعر حين لا يحاول عمل المعجزات والعجائب فيقول بيتين من أجود
الشعر ، كأنها صورة ناطقة لشوقي ، واليكها :

هذا الذي لمس الآلام فابتسمت جراحها ثم ذابت في محاجرهِ
كم في ثغور العذارى من يوارقهِ وفي جفون اليتامى من مواطرهِ

لم ينزل الشاعر بعد من فوق ، فقد استطيب المناخ ، وقال أيضاً ما
يشبه « العجائب السبع الأول » ولكن « كم ودت » خفتت من وهجها
الحامي وحرّما الكاوي ، وقد ختمها بقوله :

والزُّهر لو كن ازراراً مفضضة على النبول الضوافي من مآزرهِ

ان هذه الابيات الاربعة عشر التي قالها شاعر العرب الاكبر ... في
السماء السابعة تذكرني كلمة قالها أحمد فارس الشدياق في شعراء الفرج
والترج ، منذ تسعين سنة :

« ومن كان قد قرأ بعض الشعر ، وسمع من أهل العلم ، مثلاً ، ان
الشعر منقبة سنية تصدى الى اي نظم كان ، فاذا رأى طائراً في الجو نظم
فيه قصيدة ، وإذا تزوج احد في بلده نظم فيه تواريخ ، وإذا توفي أحد
قال : قد غاض بحر الكرم ، ودكت أركان المعالي ، وذوت رياض الفضائل ،
وأفل نجم الهدى ، وخسف بدر المجد ، وكسفت شمس الفضل ، ثم لا يزال
يصعد في عاجلة النبي الياس حتى يصل الى الفلك الاثير ، ويعدد جميع ما
هنالك من النجوم وينتزع منها كفنأ لمرثية » (كشف الغبا ، ص ١٦٦ .)

قلت : حقاً انها لنبوءة ، ليرحم الله شدياقنا ، فهاذا كان يقول لبشارهِ
لو استيقظ على عياطهِ وصريحهِ « في ربي الخلد » ، ورآه منتصباً كالناتور
فوق شمارينج جبال الجنة ، وقد تعلق بالحرباء باغصان سدرية المنتهى يهزهز

اغصانها ، بل ما تراه كان يفعل به - والشيخ الشدياق ، رحمة الله على تراه ، احرص ما يكون على النساء - لو رآه مهاجم الحوريات بجزءه ليقص شعورهن المجدولة ويعمل منها ستائر لشوقي ، ثم يأخذ النجوم ليزرر بها الذبول الضوافي من مآزره ؟ فليت شعري كيف يكون شوقي في هذه القطيفة التي صارت سماء ذات أبراج ، بل كيف يختال فيها ؟ ثم ماذا كان يقول الشدياق لبشاره لو رآه رهط جبريل يملجون في الجنة وقد هيئت أجنحتهم ، وهم يحرونها وراءهم كالمكانس ؟ ! .

لا شك في أنه يرثي له كشاعر عربي لبناني ، ويهدي اليه كشف الخبا والفاريق ، ويقف الى جنبه ، ويوشه قائلا : الآب الأزلي مستريح فلا تزعجه هياطك ومياطك ... استح يا ابني ، بأي عين تقابل شراء الجنة ؟ ! إياك ثم إياك أن تنظم شعراً قبل أن تقرأ كشف الخبا والفاريق ، ثم يجبر خاطره فيه شيئاً من أوسمته بعد ان يعاهده على ان يقول شعراً يطبق احتمال الفهاء ...

وكأنني بواحد يسألني : ما قولتك ، لماذا فاجأ بشاره مصر العزيزة بهذه الاعاجيب ؟ الجواب : لا شك ان بشاره سمع أن في مصر سحرة نازلوا موسى الكلم بحضرة فرعون فتغلثب عليهم بمعونة الرب ، فتوكل بشاره على الله وجاءهم بالكبيرة فوهرهم ، والضربة لمن سبق ... ويعلم بشاره أيضاً أن الجمهور سيّد هذه المواقف ، والجمهور لا يستفزه إلا الخفة والأسماء الضخمة فأكثر منها وراح يصرخ فيهم :

شوقي ... سلوا الافق هل ثارت عجاجته لما ثوى المتني في حفائره

أأسب دين القافية ... فالتني المسكين أكلته الذئاب قرب دير العاقول فكيف لا يرضى له بشاره بحفرة واحدة ؟ ! وصاح ايضاً : « شوقي سلوا البحر » ثم « شوقي سلوا الليل » ، ولو سأل أكثر لكان الاستحسان اعظم ، والتصفيق أوفر ، والسام اكبر .

وتذكر بشاره أن في مصر نهرأ جواداً هو النيل فوصفه ووصف نبعه
المقم ، حتى يكبر المصيبة ويقول :

يا للصبية غال النهر غائله وغار في لهوات من هواجره
الله اكبر !! فهذا الصباح يعبس ، ولم يعد المساء لعوباً في الجزائر ،
وذبل الزهر ، وسكنت الطير حتى الاشجار لركود الريح ، عجائب لم نسمع
بمثلها يوم صلب المسيح ... نحن نعلم ان الطمي قد يكون قليلاً في مصر
بعض السنين ، اما أن ينشف ماء النهر بالمرّة فهذا لم يحدث حتى على يد
موسى البطل ... فوالله لئن كان الشعر سحراً كما يقولون فشاعرنا ساحر
بلا شك ، كان الله في عونه ليبيض وجهها في كل مناحة كما يبيض
القوالب وجه ضيعته .

ويعظم الشاعر الخطب بالشاعر فيراه أعظم من الخطب بالنهر « مجري
الروح في بلد » فخطب الشاعر بذوي له كون يحلمته ... حقق الله احلام
الشعراء فهي لا بأس بها ، ولكن يا حبذا ... ولو قوّم الناس الشعراء
الندّابين كما يقولون انفسهم لكانوا صفوة الخلق وأسعدهم .

أتريد أن اخبرك عن كل المفاجآت في هذه القصيدة ، انها لكثيرة
وشاعرنا خفيف نشيط ، فها هو ينتقل الى لبنان بسرعة النور ويقول للناس :

ما للملاعب في لبنان مقفرة وللناهل عطلاً من حرائره

نعم أن أهل لبنان متى « حدّوا » لا يدقون الكبة فتعطّل الاجران ،
أما ان يبطّلوا الشرب فبدعة ما سمعنا بها إلا من بشاره ... وينتقل إلى
طرابلس فيسأل : ما للمآذن في الفيحاء كاسفة النخ ...

وللأصائل والاسحار أنخنها عات من الريح ارهاقاً بحافره

وهنا جعل للريح فرد حافر اكراماً لسواد عيني القافية ، ثم من يدري
فقد يكون الريح في الحيوان مثل وحيد القرن ... وهل لنا ان نطالب

ابن بطوطة الشعراء بهذه الصفات ، فقد يكون في حالة « اللاوعي » التي تقول بها مدرسة سعيد عقل ...

وبعد أن قال ما قال في لبنان وطرابلس رجع الى مصر فجعل الحسن والإحسان غريبين يضربان في الارض كشريد « لأمته » حتى اعتصما بضفتي النيل . لقد صدق ، فصر بلد طيب يخرج نباته باذن ربه ، واهلها اجاويد . ولذَّ له ان يذكر احمد شوقي بشيء كما تفعل الندابات في المآتم ليعلو الشهيق والتنهّد فذكره ، ولكن بخبر أسود ... فقال :

شوقي ، اذكر اذ عاليه موعدا	تنا وما نام دهر عن مقادره
واذ طلعت علينا اصفرأ وجلا	كالنجم خلف رقيق من ستائره
ونحن حولك عكاف على صنم	في الجاهلية ماضي البطش قاهره

أرأيت هذه القوافي المكمومة ؟ ألا ترى هذا الضمير يركض كأعرج يريد اللحاق برفاقه ؟ ثم ألا تقول مثلي من أين جاءت أصنام الجاهلية في القرن العشرين ؟ والأغرب ان يتمّ بشاره البيت الاخير بقوله : ماضي البطش قاهره . فكأنه يجد ولا يهزل ، أو كأنه ينظم قبل الشاعر الجاهلي القائل :

أربّ يبول الثعلبان برأسه لقد ذلّ من بالث عليه الثعالب !

وبيت الأصنام هذا ، أليس لسيدنا الفرزدق الذي كان يقطع طريق الادب ويشلح الشعراء ؟ أليس هو القائل في « جفان » المرحوم جده « دارم » الذي الحق به احد الخلفاء وحرمه الجائزة :

ترى حولن المعتفين كأنهم على صنم في الجاهلية عكف

أما بشاره فأخذ البيت ولم يحسن الاخذ بل بشّعه بـ « ماضي البطش قاهره » التي زادها عليه فجاءت كذنب الطيارة الثقيل ... وتوسع لفة فقال « عكاف » والوجه ما قاله الفرزدق . وما وقع بشاره في هذه الوحلة

الا لأنه يريد أن يقول لشوقي :

سألتنيه رثاء .. خذه من كبدي لا يؤخذ الشيء الا من مصادره

وإذا كان البيت السابق مأخوذاً من الفرزدق فهذا أيضاً مأخوذ من شوقي نفسه ، اذ يقول في رثاء مصطفى كامل باشا :

وجعلت تسألني الرثاء فهاكه من ادمعي وسرائري وجناني
لولا مغالبة الشجون لحاطري لنظمت فيك يتيمة الازمان
وانا الذي ارثي الشمس اذا هوت فتعود سيرتها الى الدوران

أما بشاره فاختصر وقال : خذه من كبدي ، وتواضع ولم يزد على قوله : لا يؤخذ الشيء الا من مصادره ...

وبعد كل هذه الروحات والجيئات يتذكر بشاره أخيراً انه لم يذكر فرعون ، رحمه الله ، فقال في قصائد شوقي : لو عاد فرعون كانت من ذخائره ...

لكن ربك لم يؤثر بها احدا سوى فؤاد عماد الملك ناصره
ارث لفاروق صان الله مهجته وطائر كم حكى عن سعد طائره

أرأيت ما اغنى هذين البيتين بالتوريات والأعلام ، والألقاب العتيقة ، والأدعية الحامية الوطيس ؟ فهكذا يقول الشعر من يطلب التصفيق ويرضى بالساعة التي هو فيها . فتعلم ، إن كنت تطمع بلقب شاعر العرب ووسام الاستحقاق ...

ونزل بشاره عن المنبر واهتمت الاسلاك البرقية تبشر لبنان بالمعركة الفاصلة ، وحامت الانصار على « الدّباس » فكانت الجائزة استحقاق بشاره شكر لبنان . ويروي المؤرخون أنه جاء لبنان مليون مصطاف تلك السنة .. أمّا أمين نخله فقال قصيدته إرضاء لنفسه ، بل : « ليقال فيه غداً وفى ابن الحثير » . وسنقابل بين الاثنتين بعد النظر بقصيدة امين ، فلا

تظن اننا وقفنا هنا . فسر معي على خيرة الشيطان – شيطان الشعراء –
فلقد تعبنا من الصعود والهبوط في قصيدة بشاره التي كان فيها مكرًا
مفرًا ، مقبلاً مدبراً معاً ...

شوقية أمين

نطلُّ على أمين نخله الشاعر فنشرف على مدينة جديدة لها في النجيت
اسلوب خاص ، سوف ندرسه مطوّلاً . أما الآن فنعلّق على مدخلها هذا
الإنذار : المفرق خطر خطر الموت ، ومن لا يتعظّ يكن عبدة ...

إن شوقية أمين على الرأى ايضاً كقصيدة بشاره ، ولكنها لا تتعثر
بالضمير الذي يتعلّق بها تعلق الصبي بأذيال أمه فيمنها أن تيس وتمشي
مشية صاحبة الأعشى ، ولهذا جاءت قصيدة أمين هداة كالبهر المعروف
تذكرنا « فتقت لكم ربيع الجلال بعنبر » ولكنها لا تسمنا جمجمة الرحي
التي تطحن قروناً ... افتتحها أمين على الأرض لا في السماء فقال :

كنا نميل على الربيع الاخضر وعلى العشية والتفاف السمر
ورأى أمين ما رأى في « التفاف السمر » فشاء فكانت « مواسم عبقر »
فتمّ له ما أراد دون أن يستصرخ الله وجنوده ، وما عنده من حور
وولدان ... المقعد بسيط رحراح :

للحاضرين باطه وظلاله وحديث نادية لمن لم يحضر
تصوّر الشاعر قعدة لبنانية لا اكثر ولا اقلّ ، وحسبها أن تحتوي
على خير ما ابدعته يد المهندس الاعظم ، لتكون فردوساً ارضياً ترتع
فيه قريحة الشاعر . وجلس كهذا لا يستغني عن ساق فكان « سرّياً »

يسقي الندامي بابرقي النبوغ مسلسلا ، وصفه أمين بلغة لبنان التي يعشقها ويحرص على تعابيرها ويلون بها شعره ، وأمين عربي هاشمي - كما نبأنا حديثاً الصديق الاستاذ الرياشي في مقدمة الطبعة الثانية لكتابه «نفسية الرسول -» فاسمع إذن ما يقول أمين في ذلك الساقى :

ساقى تقبل في الندامى كفته ويقال حين يخف يا ساقى أوامر
قد تقول يا أخى ، هل سكر أمين من قدح ليقبل كفّ الساقى :
ويئلى عليك وويلي منك إن كنت لا تقرأ ما بين السطور ، ولا تفهم
الرموز فالخمرة فارضية ، والساقى ربّاني عارف بالله ... وكيفما توجهت ترّ
عند أمين إسناداً جديداً أو إضافة طريفة أو فكراً عتافاً مقرطفاً فيقول
لك مثلاً :

عرك الدنان على اسم كل بليلة في الكرم غبّ الموسم المتفجّر
فكأنّ الشاعر ابن المعصرة ، أو « ابن مدينة » الأخطل يظلّ على
مسحاته يتركّل . ثم لا ينسى أمين أن يعلك آداب الندمان ، ولكنها
ليست كسروط أبي نواس الخمسة فيقول :

شرب الهوى شوقيّة اقداحه وإذا سقيت فجدبكأسك أو ذر
وبعد هذه الذكرى المؤلمة التي وصفها أمين مبتدئاً بـ « كنا » يشتدّ
عليه الأسى فيقول :

ذهب الربيع ولم يدم من طيبه في الأرض إلا نشقة المتذكر
انشتت معي طيب « نشقة المتذكر » لتعلم خبرة أمين بترويج الكلام ،
والتشدّد في إحكام الكتاب حتى لا يدع باباً أو منفذاً للطلاق ؟ .
وامين يحسن « التجسيد » ايضاً - لا بأس إذا تفرغنا - فيريك الدروب
تمشي في موكب موحش ، ويفص في المطفات صوت الانهر ، كصوتي
ساعة الاختناق من القيظ في محشر القوافي ... شفى الله الانهر وشفاني من

هذا النداء ...

وهنا يلتقي أمين وبشاره في تعظيم الحَظَب بموت الشاعر فيقول أمين :

موت الربيع وموت شاعر أمة صنوان في فقد الهناء الأكبر

يشبه أمين الشاعر بالربيع ولكلامه صلة بما قبله ، فهو منذ ابتداء ينظر إلى الربيع ، والعشية ، والشفق الطري ، والغمام ، والساقى ، والإبريق والدنان ، وكل ما يلزم الطرب من آلة . أمّا بشاره فجاء « نهر » لزقة فجرف الأخضر واليابس ... ورب قائل : ما يدرينا أن أمين نخله لم يأخذ عن بشاره هذه الصورة إن كانت قصيدته لم تنشر ، كما اذاع المكشوف الاغمر ؟ قلت : بلى نشرت ، وأمامي الآن نسخة منها اذاعتها جريدة الشعب في حينها . وإلا فهل أنا نبي لأنبهك إلى « مواسم عبقر » و « التفاف السر » ؟ وسأشير الى غيرهما فأعزني انتباهك .

لم يكبر أمين المصيبة بالشاعر مثل زميله بشاره الذي أذوى له كوناً يحملته .. ولكن جاءنا منه « الهناء الأكبر » أخو الراحة الكبرى عن شوقي عن أبي تمام . ويقول أمين في البيت الثاني عن الأمة وشاعرها :

يا طالما فاءت إلى أحلامه وتقلب في قلبه المحضور

إني أرى « فاءت » يابسة ، وهي من ألفاظ العقائد الشعرية ، كما أكره هذا الجناس في « تقلبت في قلبه » ، وعسى أن ينظر في هذا عند الطبعة الثالثة فهو كثير العناية بتهديب بنيه ، لا يخلطهم ويتركهم . أمّا وزن افوعول الذي استحلاه ابن الأثير وعشقه أمين وتسم كثيرين فقد عمّ حتى خم . ويمشي أمين مشية لينة في وصف شاعره ، وكرمه الحائمي ، ودموعه وأحلامه التي تشفي من جميع الادواء ، ولا أدري إذا كانت تشفي من الكلب أيضاً كدماء ممدوحى المتنبي ...

ولا ينقطع هذا الفلم الجميل حتى يتبدى الثاني بقوله :

خفت عكاظ اربعين عشة وأظنها خفت مئاة الأعصر

لا تظن يا أخي ، فحسب الشعر أن يكون له في كل قطر أخ للعقاد ...
لا خوف على الشعر يا أمين ما دامت النساء تحبل وتلد ، فما شوقي إلا
شاعر خلت من قبله الشعراء . ان شوقي مات ، أما النبوغ فحي لا يموت .
أما القباب ورفرف النادي وصدر المنبر التي خصت بشوقي حياً فألفاظ
مرحة لولا « المتبع » التي جاءت كركبة البعير ، ترحم على ابن الأثير .
وهنا تأتي نوبة الوصف الصريح لشوقي فيشبه رفته وصيابه بدمع
الياقوتة المتقطر ، فيذكرنا بقصر ابن المعتز . وسرعان ما ينتقل في البيت
الثاني إلى مطبخ ابن الرومي فيقول :

يتفقأ الرمان من لفظاته فهي الندبة في الغليل الاحمر

كانت « الفاظه » في الطبعة الأولى فبدلها فتحركت . أما « الندبة في
الغليل الاحمر » فطريقة رائعة تشفع بيتفقأ التي تفقأ العين . وعندي ان
الفكرة مبتذلة وما هنا محلها ، وإن وصف أمين حب الرمان خير
الوصف وأصدق .

وننتقل من تفقية الرمان إلى « الحبرة » فنعجب بنسخ « منواله غزل
الشعاع النير » ثم ننسى الحبرة ونسير مستعجلين في موكب الأشعة
إذ نرى :

ديباجة كالصحو تلمع زرقاة وبها مشابه من سحب مطر
الاذن في تلك القوافي ترتي والعين تسبح فوق تلك الابحر

ارأيت كيف يوصف الديباج البراقشي - شانجان؟! .. ويصف لنا
أمين حدة ذهن شوقي فيأتي بصورة تنبض الحياة في كل عرق منها إذ
يقول :

شوقي وأية حدة في ذهنه ابداً تلم شيمة التحذر

كالمين تأخذها المشاهد بفتة فتد اخذتها بدورة محجر
إن الشاعر يحتاج أولاً إلى عينين بصيرتين ، سلمت عيناك يا أمين !
وينتقل إلى وصف سرعة الخاطر فيقول بيتين جيدين لولا العجز الأخير
في قوله :

خفت بعارضة الضياء قريحة عن نقلة الخطفات لم تتأخر
إن بيتك هذا متأخر عن إخوانه ، ناهيك بما في الفاظه من جفاء ،
متفرقة ومجتمعة ، فابحث عن السبب فهو في الخنجرة .

ويقول بيتاً ثالثاً يصور به تراحم الخواطر عند الشاعر الملهم :
فكان لفظته تقول لاختها في زحمة الخطرات يا أخت اعذري

إنه لتجسيد تام وتصوير نابض لا عيب فيه إلا زحمة الحاءات . ولو
قال اصبري لكانت لبنانية أكثر ، وأخاله آثر اعذري لأنها ترادف
« معليش » المصرية . تذكرني فكرة أمين الجميلة بما كنت أقرأه مكتوباً
فوق رأس مار افرام السرياني « كلي موران موهبتخ » ترجمتها : ردّ يا
رب عني نعمتك . وكذلك الشعراء الملهمون في ساعة الرضا والتوفيق ،
ولا يصف الشاعر إلا الشاعر .

ويتأدى أمين في وصف صاحبه فيصف رقة حسه ويرينا ان أكف
الوم تصدع حسه . وهنا نبليح بيتاً حذفه أمين من طبعة المكشوف ،
اذكره لأثبت لك ايضاً ان قصيدة امين طبعت في حينها ، وانه لم ينظم
بعده غيره ، وأخيراً ، وهو الأهم ، لأدلك على أن شاعرنا ينظم للفن ،
وهو جزار لا يشفق على نعاجه ، فما حمله على حذف :

شوقي الشماع فكيفما قلبته وادرت عينك مبهر في مبهر
الآ قافيته الملعونة التي تسود وجه الفن ؟.. ثم ينتقل الى وصف
شوقي جدياً فيعرفنا به ويقول في جسمه الصغير :

ملأ الفضاء كحبة من عنبر ...

ثم يذكر قلة حديثه ويرسم لنا صورة شوقي المفكر الفهم بيت هو
اخو البيتين اللذين اطريتهما كثيراً ، وهما في العين ايضاً كهذا :

او ليس حسب العين من لحظاته في الفهم رأوة كجهد معبر
فهلّا تتأمل المعبر مرة ، وتجبرني عما ترى ؟ لا تبعذك رأوة عن هذا
البيت فلا يسدّ مسدّها غيرها . ويعن أمين في الوصف فيقول في عين
شوقي ومشيته :

رقيت الى عينيه زهوة نفسه فهما بها في حيرة المتحير
يمشي فيخطف خطوتين كسالك في العجاج أو متمثر في المرمز
جلت وداعته وجلّ وقاره عن ان بهم بخطوة المتبختر
لكنا الاعصاب وهي كلية من فرط مس الوحي في متعذر
ولو أراح امين بيته من « رقيت » لسرح وكان صدها أبعد . قد رسم
خليل مطران ناحية الزهو في شوقي فقال :

فلكلّ لفظ روتق متجدد ولكل قافية جديد رواء
يحلّ الجمال بها كأبداع ما انجلت صور حسان في حسان مراني
ولربما راع الحقيقة رسمها فيه فما اعتصمت من الخيلاء
أرأيت كيف يصور الشعراء المفكرون ؟ لا تبال باضطراب عجز
البيت الثاني ، فكثيراً ما يعجز الشاعر عن إخضاع الكلام إذا تمرّد . وإذا
رأيت المطران يغرقش في هذه الايام فلا تنس انه حصّاد شهير ترك المنجل ،
وهذه سنة شرقية ...

ويختّم أمين قصيدته بتجديد العهود والمواثيق فيقول :

تلك الأبوة في البيان أصونها ليقال فيك غداً وفي ابن الخير
لي منك فخر الدرب إذ يممتها ومشيت ألهمت في غبار مغبر

أما أنا فأخاف جداً من الغبار خصوصاً إذا كان مغبراً ... وأنتى أن
يظل أمين سائراً في دربه وكل من سار على الدرب وصل ... ويذكر أمين
صلته بشوقي وكيف انقضت ، صبر الله قلبه ، وعمره كنسر حيقار ...

وبعد ، قصيدة أمين نخله هي لشوقي بعينه ، ولا تصلح إلا له . أما قصيدة
بشاره فلشوقي منها الاسم ، وهي تصلح أيضاً لحافظ واسماعيل صبري والبارودي
ولخليل دموس بعد عمر طويل ...

محيط أمين في قصيدته محيط شعري بسيط جداً ، تسمع وصفه ولا
يطرّ عقلك ، ومحيط بشاره أشبه بحيط ألف ليلة وليلة وكأن في يد
صاحبه عصا موسى أو خاتم ليك .

قصيدة بشاره مفككة تشي على غير هدى ، وقصيدة أمين كالسلسلة
المحوكة ، لا قفز ولا نط ، ولا انتقال ، ولا مفاجآت ، ولا غرائب ولا
عجائب ، لا رعود ولا بروق ولا عواصف كساعة تجلتي المسيح على
طور طاوور .

قصيدة أمين ذات لون محلي تدل على شاعر بعينه ، وقصيدة بشاره لا
تدل على شيء من هذا ، ولو خلطناها بعشرين قصيدة من شعراء العرب
الأوليين والآخرين منهم لما عرفنا أن قائلها من أبناء القرن العشرين .

نظم بشاره مفكراً بالنظارة وهمه التصفيق لا الفن ، ونظم أمين وعينه
في الفنانين ، وما عناده غير ذلك .

قافية بشاره متعنة كالسيدات المترهلات اللابسات القباطين المذنبة ،
وهذا الضمير الذي علقه بها يجبر القارئ على الطحير ، وقافية أمين خفيفة
رشيقة كالسيدات المتروحات ...

كأنى بأمين قد قرأ كلمة ابن الأثير القائل : من شاء أن يخلق عالماً
من الكلام فليأت به على صور الأناشي والاثام ، ففعل . أما بشاره ،

فجعل مسرحه الجنة ، فهزّ العرش وفزّع سكان السماء . نعم إن فيكتور هينغو حرّك آلهة الفن ووصف فرحها باستقبال صديقه تيوفيل غوتيه ، ولكنته قال ما لا يقال إلا في غوتيه صاحب بدعة « الفن للفن » وهو في كل حال لم يحمل الفرحة غير معقولة ، كما فعل بشاره .

قصيدة أمين كباطية التبيذ جيّدها في وسطها وهي « كلّ » ، أما قصيدة بشاره فخطرات افكار مبتذلة وتمايير الفناها ، بخلاف قصيدة أمين ذات الصور الجديدة ، والتمايير التي تدل على جهد وعناء ، وتعب كثير في تأليف الكلام وترويح .

حاشية - لا يظنّ الكتاب ان كلمة الترويح ، في البيان إفرنجية ، فقد فطن إلى ذلك ابن الاثير ، وفي ظنّي أن أمين تخلّ قرأ ابن الاثير مرّات ، وما أحوّنا الى من يقرأه .

قابل إذا شئت فالقصيدتان أمامك ، انظر ماذا قال امين وكيف يقول بشاره : هذا هو الشرق هذا ضوء ناظره ، يعني : يا نور عيني . وقس على هذا ان شئت تعلم ان للفن اللفظي عند امين شأنًا عظيمًا ، حتى يميز بين « الفاظه » و « لفظاته » ويستغني عن « مبهري مبهري » ، و « شوقي الشعاع » ، وهذا ما نطلبه من بشاره الحوري الذي لا تنكر شاعريته ، ولكننا نسأله ان يتقرّب ، ففي الأسفار أكثر من خمس فوائد ...

قلت سابقاً ان قصيدة امين « كلّ » تصعب تجزئته ، اما قصيدة بشاره فاليك لائحة بها :

- ٠٠٦ ابيات في وصف شوقي بالجنة
- ٠٠٥ ابيات سؤال الملائكة عنه وتعريفهم به
- ٠٠٢ للقاريء عن تمنيات جنة الخلد
- ٠٠٤ ابيات صريخ وعياط

- ٠١٢ بيتاً عن النهر الذي اكلمه الغول
 ٠٠٦ أبيات عن حزن لبنان وطرابلس
 ٠٠٥ أبيات عن غرام مصر والخواجه لبنان
 ٠٠٦ أبيات عن اصطدام سيارة شوقي
 ٠٠٤ أبيات عن فرعون والملك فؤاد وفاروق
 ٥٠ أليكون خمسون بيتاً فقط لا غير ، عدا السهو والغلط .

أما قصيدة أمين فعدتها ٤٤ بيتاً ، موضوعها شوقي وما يتصل به
 وبغفته ، فلا أهرام ولا فرعون ولا عشق ولا غرام بين الأقطار .

لا يجرّد بشاره إذا فضلنا أمين نخله عليه ، فقد تقابل بينهما في وقعة
 أخرى — بالفرح ان شاء الله — فتكون له الغلبة ان شدّ حيله وقابلنا
 بغير هذا الوجه الشعري ، فما هذا وجه من يعيش .

وأخيراً أتمنى أن أكون مخطئاً ويظل بشاره على كرسي مجده تعطيه
 الطوبى جميع الاجيال كستنا مريم رزقنا الله شفاعتها ورضى أخينا
 بشاره العزيز الغالي .

أَمِينُ نَحْلِهِ فِي دَفْتَرِ الْغَزَلِ

أَمِينُ نَحْلِهِ شاعر كبير وكاتب أكبر ، ومع ذلك يعتمد كثيراً على الدعاية في ترويج بضاعته ، فهو وسعيد عقل في هذا اخوان ، كلاهما يفوق الاميركان في الإعلان . فإذا صحَّ وجود برج عاجي للشعراء والادباء ، فلا شك ان ذاك البرج في بيت أَمِين ومكتب أَمِين ، بل في كل مكان تطأه رجل أَمِين ، إذ لا بدّ لهذا القمر من هالة حيث يطلع .

وهذا هو أَمِين يرسل في السوق ديواناً سماه « دفتر الغزل » كما سمى الجاحظ من قبل دفتر الملعّمين ، والغزل شيخ السفرة في أدبنا العربي ، أو « المهوردفر » بلغة العصر . فأبي شاعر ما تغزّل ؟ كلهم قالوا الغزل . ولماذا لا ؟ فهذه التوراة ، وهي كتاب مقدس ، فيها مآدبة غزل أشبعت الذريرة ولا تزال . فسلیمان الحكيم يصف حبيبته الشولمية من عينيها الى سرّتها ، ولا ينسى دوائر فخذها وما بينها من صبرة حنطة يستجها السوسن ... اللهم نجنا من أكل الدجاج والوقوع في السياج ...

الغزل نفة الحب ، وداود أبو سليمان يرثي يوثان في أول فصل من سفر الملوك الثاني فيقول ، وكأنه ينسب ويتغزل : قد ضاق ذرعي عليك يا أخي

يونان . لقد كنت شهاً الى جداً وكان حبك أولى من حب النساء ، وقد احببتك حب أم لابنها الوحيد ...

أجل لقد بشتت ثعالب البشرية وما فنيت العناقيد . ولا بدع ، فالحب ملاك الحياة . وجد لحفظ النوع فهو لا يفنى إلا بفناء هذا الكون ، وهو إذا شاخ مع الفرد فإن فواته لا تموت ابداً .

وبعد فلنؤد حساباً عن كلمة سبقت ، أي عن الدعاية عند أمين الشاعر الطيب المبدع . صدر امين « دفتر الغزل » بدعوتين ، واحدة عربية والاخرى يونانية ، فكانه أراد الشهادة فيه شرقية غربية .

قال بولس الرسول : على فم شاهدين أو ثلاثة تقوم كل كلمة ، كما قلت سابقاً . وهذا بابا دي ياناقوس يوناني كار بولس . فلا شك أن شهادته مقبولة ، وكذلك أحمد شوقي ، فهو ، كما يزعم ، عربي تركي يوناني شركسي يحدّه لأبيه وأمير شعراء ، فهو مقبول الشهادة ايضاً . تاهيك أن أمين تخله هو كالمسيح أو أعظم ، وسيأتيك الخبر .

قال المسيح : انا اشهد لنفسي وابي الذي في السماء يشهد لي . إذن ، اجتمع لدينا أربع شهادات ، ولم يبق علينا إلا أن نبدأ المحاكمة .
نودي على الشاهد الأول شوقي ، وبسبب غيابه غيبة لا رجعة بعدها ، نظر فيما كتب :

هذا وليّ لهدي وقيم الشعر بعدي

ترى من قال لشوقي أننا نعترف بولايته حتى ينصبّ وليّ عهد ؟ فكل شيء يورث إلا العلم . ومتى كان الشعر وقف ذرية حتى نجعل له قبيماً ؟ فليت الصديق أميناً الذي لا أشك في اماتته الأدبية خباً هذه الريقة الشوقية وحفظها للعزير سعيد ، حرسه الله ، مع ما يحفظ من وثائق ... إنها لا تخله في أعيننا علّا أرفع مما له عندنا ، وهي من

جهة أخرى تدل على قلة كياسة شوقي التي عبر عنها في هذا البيت التالي :

فكل من قال شعراً في الناس عبد لمبدي

هذا كلام رجل لا اجد له نفعاً ، والأشبه ان العمر هو الذي انطق
احمد شوقي ، في غير ساعة رضا ، بهذا الهذيان والهذر .

أصدق شوقي أنه أمير والشعراء عبيد ، حتى يكونوا جميعاً عبيد
عنده ؟ انا لا أشك بأمانة أمين ، كما قلت ، ولذلك كنت اللوم للشاعر
الجنون الذي اطراه الشعراء وعظموه وامرؤه حتى تمنقص وتقايش ..
وفي ثالث بيت يقول شوقي ايضاً :

كانت شعر امين من قفح بات ورنه

قلت : لاشك ان شعر امين ذكي الرائحة له طعم غير طعم الشعر ...
ولكن اختلاف الطعم ليس حكماً بالأولية والأسبقية وولاية العهد . ان
مصر ، بلد الشاعر شوقي ، نفت الملك وولاية عهده ، بينما نرى شاعرنا
الامين يريد بسط جناح ملكه على العالم العربي بكلمة شوقي ...
ويقول شوقي ايضاً :

او من عناق التصلي وقرع خد بخد

او من حديث ابن هاني يمسد فيه ويبيدي

يظهر ان هذا البيت الأخير هو الذي أوحى الى امين بقصيدة « ام
موسى » ليمسد فيها ويبيدي كأبي نواس ، ويكون عند ظن شوقي فيه .
وسننظر في هذه القصيدة حين نصل اليها ، لتريك ان الظرف طبع
لا تطبع .

ويختم شوقي قوله بقوله :

والعصر عصر (امين) خير ومطلع سعد

وهذه ايضاً نخينة يا امين ! اعرفك رجل دعاية ، ولكن ما كنت

احسب انك تشتط بهذا المقدار .

واذا قلبنا الورقة من هذا الدفتر - دفتر الغزل - وقمت عيننا على قصيدة يونانية للاستاذ بابا دي ياناقوس .

جاد امين على بابا دي ياناقوس بلقب شاعر اليونان ، ولا اعرف اليونانية لأرى ما خلع شاعر اليونان هذا على امين من القاب . لا بد وان اميناً هزّ يحذع النخلة حتى تساقط رطباً جنيّاً والا لما ذاق هذا « القرط » من ثمارها ...

حقاً انها مصيبة ، فانا لا أعرف اليونانية ، ولا وصول لي الى الدكتور طه حسين ليترجم لي هذه الابيات . أما تلقيب بابا ياناقوس بشاعر اليونان فأظنه مثل تلقيب ذلك التاجر ابا الفتح بصاحب الدولة ، في مضيرة بديع الزمان . ولكني اعتقد في كل حال ان هذا الشاعر اليوناني يحترم نفسه ولا ينزل في « المنطس » الذي تتم فيه شوقي وانعم ...

يظهر ان أمين يفهم اليونانية ولكنه تواضعاً لم يترجم لنا ابيات ياناقوس ... وإلا لما قال في المقدمة في وصف غزل الشاعر اليوناني : « ولا رقة في الغزل وراءه » .

أما شوقي فكان حظه ضئيلاً جداً من مقدمة أمين ، مع انه جعله ملكاً على الشعراء بعده . ويختم أمين مقدمته الحلوة الطريفة بهذه العبارة :

« وهكذا فانه اجتمع لهذا الكتاب ، بفضل منك ، وفضل من صاحبك - اي بابا وشوقي - ما لم يجتمع لكتاب : يد يونانية فوق يد عربية » .

قال المسيح : « من منكم إذا اهتم يقدر ان يزيد على قامته ذراعاً ؟ » وانا أقول لصديقي أمين : لو قام هوميروس وفرجيل ، واعاظم شعراء الدنيا ، وكتبوا ما كتبه لك شوقي لما زادوا على قامته شعرك قيراطاً واحداً . انت شاعر مجيد ، ولكن هذه البراءات هي كالتي عندي وعند ابيك ، لا تنفع شيئاً

متى وقفت في محكة التاريخ حافياً عرياناً مجرداً من كل مجد باطل .

اما الآن فلنمر مرة عجل في ديوان الامتاز ، عفواً ، في دفتر غزله ، وان
اشبه افعال المقاربة في التسمية ..

ان شاعرنا الامين لشاعر محكك ، وربما ظل يفتش عن كلمة من الحول الى
الحول . هو كاهن فن ، مولع بالكلمات فيعقد بينها برابط مقدس فيكون
زواجاً مباركاً لا يعقبه طلاق . وله ميل يشبه الهوس بكلمات دون غيرها ،
وكثيراً ما يقعدها غصباً عن رقتها في المكان الذي يريده لها . لقد انبأنا في
آخر دفتره هذا ان ليس من عادته أن يرسل الشعر كما يحب ، ولهذا نرى معظم
قصائده قصيرة النفس محكة النسيج . اظن ان ارستقراطية الامتاز لا ترخص
له بترقيق حواشي العبارة ، واللجوء الى الصور التي يتطلبها الغزل ، ليفهم
عنه الحبيب . فهو يهبط في غزله من عل ، فلا تظهر الحرقه فيه كما تظهر ،
مثلاً ، في شعر بشاره الخوري . انه لا يخاطب من العلى كرب موسى ، بل
يؤثر الطور ... يطوف في الاثير ، حتى يموج هواه في آه المغني . واذا المسيح
مشى على الماء ، فأمين يمشي مع الصوت ، ولكن ببطء السلحفاة ، وهذه
معجزة اعظم .

قال البهاء زهير لأحبابه :

فلو صدق الحب الذي تدعونه . واخلصتم فيه مشيم على الماء

الا تراه لو كان في « عصر امين » الذي بشر به شوقي ، كان قال ، كما
قال امين :

ففي النغم العميق اليك امشي واسلك جانب الوتر المرن

ان قصيدة « الحبيب الاول » هذه تمتحق الجاوس حيث احلها امين على
الرحب والسعة ، في صدر الدفتر ، وان كنت ارى قصيدة « العقد الطويل »
اقرب منها الى الشعر المطبوع . والغزل ، حتى يبلغ قرارة النفس ، يجب ان

يكون ألين من شعر امين . فأمين، مثلاً، يرى حبه وحب حبيبه نصيباً، بينما يراه بشاره الخوري ناراً آكلة .

فحرقنا نقوسنا في جحيم من القبل

يظهر ان بشاره من اصحاب « ايجد هوز حطي » ... اما امين فيحوم ويحوم ، ومن صبر نال ومن لج كفر .

ولعل قصيدة « المقد الطويل » و « القصيدة السوداء » ، وان كانت صاحبها جنة ماشية لا معلقة ، هما في نظري خير من قصيدة الحبيب الأول التي تصلح اكثر منها للانشاد والفناء .

اما في قصيدة « الاشرفية » ، فلأجل كلمة « اختها » التي ارادها امين قافية رأيته يحط من قدر الجمال حين فضل نكبة العنب عليه فقال :

ذقت الثمار ونكبة ان لم تكن هي نكبة العنب الشهي فأختها

وبعد ، فمن يدري ؟ فلعل امين تخله عنتاب ، او انه يغمز ابن الفارض من بعيد ..

واذا بلغنا « بشر السامرية » وضعنا عصي الحاضر المتخيم كما قال زهير . ان الآبار واحات ، ولعل سامرية امين احدى واحات ديوانه ، بل واحدة الشعر الحديث . ومع ذلك لا بد من قول شيء لتعود حليلة الى عاداتها القديمة . أستهل امين هذه القصيدة بقوله :

شرب المسح فيما لا تشرب والبشر سقسقة وماء طيب

أتمجب يا اخي كيف لم تشرب ؟ يظهر ان بنت الحلال لم تكن عطشانة .. الماء ليس خمراً ولا عرقاً ليتعاطياه على خرزة تلك البئر . اما قدم لها المسح ماء لا يعطش من يشرب منه ؟ يقول المثل عندنا : الماء لا يمر على عطشان ، وصاحبتنا السامرية جرتها على كتفها ... فلو كانت عطشانة لشربت .. اما البشر فيظهر انك لم ترها . انها عميقة جداً ، لا « سقسقة » فيها . عندما

اراد الكاهن القيم على ذلك المكان ان يرينا عمق بشر يعقوب ، أضاء شعوعاً
وأسقطها الى جام الماء .

ويعد ، فلماذا استحلّيت ، يا امين ، كلمة سقسقة ؟ المهدي بك لغوي من الطراز
العالي . كيف لم تشك بفصاحتها حين احللتها المحل الارفع ، اي مطلع
قصيدتك ؟ رأيتك تقول في تحمل العذر لكلمة « شلال » : ولا حرج في ان
يقال شلّ السير او النهر ماء فهو شلال ، وان لم يرد في متن اللغة . فان العرب
تقول : شلت العين دمعها — ارسلته — والعربية كما لا يخفى يقع فيها النقل
لأدنى ملاسة .

طيب . فهاذا تقول في سقسقة ؟ فاذا كنت تعني سقسقة نهر الباروك
وغيره ، كما تقول العامة ، فبشر ايينا يعقوب ، كما قلت لك ، ليس ينبع خرار
ولا جدول ثرثار . واذا كنت تعني غير ذلك فيا ليت شعري ما هو ؟ ...
فهذا الحرف سق ، وسقسق ، وسقسق لا يعني ، أجلك الله ، إلا ذرق الطير ،
ولذلك قالت العرب : هذا كلام يُذرق عليه .

وهنا اسمح لي ان انتقل الى لفظة ثانية من هذه البضاعة ، وهي قولك :

انا في رحاب السامرية واقف ظمآن باسم الناصري أتنبّ

فتبّ الرجل معناها شاخ . ولولا قلت : اطبطب كان لنا مخرج منها
ومعتصر ، كما قال الاخطل الكبير . فمعنى طبطب يعقوب صوت . ولعلك
بهذا تكون قد دنوت من العوام اكثر ، وهم فصحاء غالباً .

عفوك اذا ذكرت هاتين المفوتين فقط فانت قلت في هذه القصيدة :

خلع اخضرارك آيتين على فمي فتصفحي الانجيل هل هو مخضب
استغفر الانجيل ان قصيدتي عربية كالشمس وهو معرب

ان شمسك يا امين فيها كلف كثير ، أبعد الله عنا نهاية العالم ... وهذا
الابتهار يدل على ما هو اكبر من الغرور . أبحر سلاحك يا صاحبي على الشاعر

المفرد؟ على المسيح وانجيله؟ .. لقد ازعجت الانجيل والتوراة باستمدادكم مواضيعكم منها . وهذه موضة قديمة . ترى هل اجديت الحياة ؟

ويقول امين في وصف السامرية : التبت يطلع حيث تنقل خطوها .
لعل هذه الفكرة شكسبيرية ، ولكن الزجال البطليقي قال في هذا ما هو اجمل من قول شكسبير وامين ، قال على وزن « ابو الزلف » :

من فوق عالي التلوج من فوق عالي التلوج

واخضر عشب الجبل هالداستو خدوج

وبعد كل ما قلنا ، نظل سامرية امين قصيدة غراء على ما فيها من كلف ، لا يضيرها التعريب الذي ضار الانجيل ... انها عقلية عتيقة ، وربما كان امين متأثراً هنا بهاشميته ... لا ادري كيف هذا الزعم . واذا كان في البيان غير العربي شين ، فلماذا جعل امين قصيدة ياناقوس اليونانية لديوانه خرزة عين ؟ .. فلنمش . وكما نظم ابو امين ، رحمه الله ، قصيدة ام القميص الزهر ، كذلك نظم امين قصيدة لأم القميص الازرق ، ولكنه قصر في شعره جداً جداً عن زجل ابيه .

اظن ان ما سبق من غزل امين يكفيننا ، فقصيدة « ام موسى » تنتظرنا ، ولكن قبل ان بلغناها لفتت نظرنا قصيدة « تذكار » فذكرني فيها قول امين :

يا من رأني وأبي مرة هذا أخي في جانبي بل أخي
يقول شوقي في أبيه أيضاً :

وتشيت يدي في يده من رأنا قال غنا أخوين
إن من حق ولي العهد أن يتصرف بالتركة ، ولكن قصيدة أمين - خلا هذا البيت - خير من قصيدة شوقي التي اسف فيها حين أراد أن يتصوّف ، فوقع الحافر على الحافر ...

وفي أثناء مرورنا ، قبل بلوغنا قصيدة أم موسى ، نقرأ اخوانيات

وخصوصيات يدع فيها أمين ، وخصوصاً حين يصف الفناء ومجاليه وذويه .
أما في قصيدة أم موسى فما أراه عمل شيئاً بالقياس إلى أبي نواس ، فاسمع
كيف يقول :

يا رب خماره في ظاهر البلد أيقظتها ، وجواد الصبح لم يقد
قالت : من الطارق الملهوف قلت لها بل فتية المرح الختال والصيد
وكل هذه القصيدة منسوجة على ذاك النول الذي تكسر بعد النواصي ،
ولكن شوقي قال لأمين في ذلك الفرمان :

أو من حديث ابن هاني يصيد فيه ويصيدي
فصدق أمين ، كما صدق شوقي من قبل ، انه بزّ أبا نواس . إن هذه القصيدة
مطبوعة على غرار ماضي وقته ، وفيها يريد أمين ان يكون له ظرف ابن هاني ،
ولكن من أين له ولغيره ذلك ؟

وبعد هذا كله يطلع علينا شيء مما قيل في أمين وماذا أجاب أمين : لكل
خطاب يا بشين جواب . حك لي أحك لك ...

وأخيراً نقول ، ونحن في صدد الغزل ، ليس الغزل في معانيه الطريفة ،
ولا في لغته اليابسة . الغزل ملاكه عاطفة متقدة يسعها الحرمان ، ويندكيها
التحرق ويمبر عنها بكلام بسام غير جهم . وهنا لا بأس علينا من سرد
نكتة توافق المقام :

كان في كسروان شاعر مفلح يحفظ الكثير من شوارد اللغة وأوابدها .
وإذا استعزنا له نعت امرئ القيس لحصانه : قيد الأوابد ، لا نكون بعيدين
عن حقيقة حاله . كان هذا الشاعر يحمل كل يوم قصيدة غزلية ينشدتها للشيخ
رشيد الخازن . وكان الشيخ يسممها له ، وكان كلما انتهى من تلاوة قال للشيخ :
كيف رأيت ؟

فيجيبه الشيخ بتلك البساطة التي عرفت عنه : عال . سلم بوزك .

وأطال الشاعر زيارته حتى صار يصبح الشيخ بقصيدة ويمسيه بأخرى ،
ثم يسأله كيف ؟ ..

وأخيراً قال له الشيخ بلمهجة المشهورة : بدك مني الصحيح يما ابن عمو ؟
هالمرة الجواب منتوش عالكيف . سماع يا معلم بولس . كل شرك حكي
ما منشو نتيجة . بتعرف كيف تقزلت أنا مرة ؟
فقال الشاعر : سعادة الشيخ أعلم . تقضل .

فقال الشيخ : قلت لواحدة مثل التي أخذت عقلك :

عيونك سود وخذك وردي في شي والا نمشي ؟
وهكذا انتهى كل شيء ، وصار الحب يحكي عنا ...

إن المتنبي الذي تقزل حتى شبع ، وأبدع في معانيه كثيراً ، لم يعد أحد
يذكر شيئاً مما قاله . وكأنه أدرك أن الغزل الذي تصدر به القصائد بعيد
عن الصدق ، فقال :

إذا كان مدح فالنسيب المقدم أكل فصيح قال شعراً متيماً ؟

لا يا أبا الطيب ، إن عصرنا هذا قد استقل فيه الغزل ، ولشعرائنا فيه
جولات حسان ، وأمين نخله أبدع فيه وأجاد ، ولكن فصاحة بشاره الخوري
ضاحكة وفصاحة أمين عابسة .

إن كل عمل في هو غطاطرة . وآخرأ نقول : لولا سخف شوقي وطمع
أمين في الولاية ، لظل لهذا الديوان آيته ووقاره ، ولكن الطمع ، كما قالوا ،
ضرّ وما نفع .

يوسف غصوب

في قصصه وعوَسَ جتِه وقارورته

غفا الأدب العربي بعد بديع الزمان إغفاءة خرساء لم يتخللها حلم ، ولولا فارياق الشدياق لم يكن لنا أثر عربي في تلك القطعة من الزمان . ثم كان عصر المقالة والرواية فبرز كتاب طوام الدهر مع آثارهم ، فأفاق ادبنا المريض من غيبوته . ولاح جبران فكان فجرأ يهياً لنهار جميل في قصصه ومقالاته . وكان للأدب العربي عهد جديد .

كان للنهضة الحديثة رواد قبل جبران ، أولهم ذلك الاعمى المفتاح القلب فرنسيس فتح الله مرآش . ثم تنفّس في القاهرة أحمد شوقي فقال : خدعوها بقولهم حسناء . فدارت على السنتنا في ذلك الزمان حتى ضجت جدران مدرسة الحكمة من عقيرة الشيخ رشيد تقي الدين الذي كان يرددها بصوته العريض .

وارتفع في لبنان صوّان : شبلي الملائ في شعره القصصي ، ونقولا فياض في خطبه التي كانت يقدم لها بشيء من شعره الحديث كقوله في القلب البشري : « حير الناس فقالوا عصي » . اصف الى هؤلاء خليل مطران الذي تأثر بالفرنجة ، وعمل الشعر على طرازهم . ولكن كل هؤلاء :

شوقي ومطران وفياض وشبلي ، أمسكوا بطرفي الحبل فلم يخرجوا من صيرة القدماء إلا ليقفوا قدام الباب هنيئة ، ثم عادوا الى ما وراء السياج ، إلا الدكتور فياض فكانت له مؤخراً انتفاضة من باب رجوع الشيخ إلى صباه ...

أما في النثر فكان الريحاني في طليعة الرواد بكتبه وفصوله ، يجمع بين الفلسفة والشعر ، يقدم « بذوراً للزارعين » ويسأل ربة الوادي ان تدأويه وتشفيه ... أحدث كتابه « المحالفة الثلاثية » صدى بعيداً أكثر من لاعنيه ومريديه . ثم جاء جبران يتمرد على القديم ، والف بمجمعه — الرابطة القلمية — فالتف حوله الشاعر والنثر ، فأفلحت مدرسته في النثر أكثر منها في الشعر . تفتنوا في الاغراض وترفتوا عن المديح الذي كان يتلئى به الشعراء عندنا ، واقتفوا اثر الاندلسيين محجرين اديهم من قيود الثقافية فنتروا شعرهم واسدوه ، بخلاف غيرهم ، وان حاكوا على النول القديم . فكان لهم اتباع ومقلدون في الشرق ، فعاقوا نقنتهم وحاولوا ان يقولوا شعراً .

وكتب جبران في النثر صفحات لا قرابة بينها وبين القديم ، واذا صنفنا الشعر العربي قديمه وحديثه كان نثر جبران اول بابة ، فهو ابو المدرسة الشعرية الحديثة التي نسميها اليوم رمزية .

فالانجاء الجديد المستقل استقلالاً ناجزاً في أدينا أبواباً للريحاني وجبران . أما الريحاني فاتجه في صوب جديد . صار ابن بطوطة جديد يدرس الاقطار والاقاليم العربية ويصورها في اللغتين الانكليزية والعربية .

أما جبران فركب رأسه وطمح الى ابعد ما يطمح اليه الناس ، طمح الى الذي امسى لا شيء عند الريحاني فظل يكتب للناس اجمعين لا لفئة خاصة منهم ، فكان اثره ابعد لأنه خاطب النفس .

أما فيلسوفنا الريحاني فلـ "التدروش في زمن المادة فالفى الكوز
والكشكول وألوى على العقل يسوطه بقسوة ليخلق من الشرقي رجلاً
غير هلامي". خاطبه بلغة الحساب متنازلاً لجبران عن نبرات اشعيا
واهتزازات ارميا واحلام دانيال .

ونبت نخائيل نعيمه على جذع جبران فكان سكرتير العميد . قال
شعراً وكتب في النثر صفحات باقية - « الجندي المجهول » - حتى اذا
انطوت صفحة صفته نشر نخائيل تقاسيره وتعاليقه في زاد المعاد على
فلسفة صاحبه وانزوى اليوم في بسكتنا كتولستوي في آخر العمر ،
ولكن صاحبنا نعيمه بكّر ... وسيأتيك الحديث الخاص بهؤلاء فامهلني
رويداً .

والذي يميننا الآن هو نهج هذه الفصيلة وتجديدها . إن ملامح القديم
ضئيلة فيها وليس لها من بضاعتهم الا الألفاظ ، وهذا يتفاوت عندم
ثلاثتهم ، ولكن لهذا الثالث مؤمنين بلاهوته على ما بين الثلاثة من فرق
في اللاهوت والناسوت ... نعى عليهم عبّاد القديم ضعفاً في التركيب
وخروجاً على لسان العرب ، وهذا ما يميننا نحن حين ننظر إلى التطور
في أدبنا .

كلنت الحرب للكبرى ، فاتجهت للأدب العاليية بعدها اتجاهات عديدة
بلغنا آخر مدّها فجرفنا التيار الذي تلاشت قواه عند غيرنا ، واتسعت
دائرة ثقافتنا فنهض الشباب متأثرين بالقواعل الخارجية ، فكانت ألوان
ادب جديدة . كانت القصة حلاً سوا الى تحقيقه ، فبانت بواكير طيبة ،
فيها اللون المحلي المرغوب فيه وإن لم تتضح كل النضج . وتلوّن الشعر غير
الألوان الاندلسيّة ، فصار لكل شاعر لون خاص اتسم به غير اللون
القديم العام الذي نراه في شعر بشاره الخوري وأضرابه . حاول الشباب

ان يخلقوا افقاً شعرياً جديداً فدانت لشاعرهم الفاظ موسيقية خلابة
مرحة ، فأخرجوا الشعر العربي من الحصار الذي ضرب حوله قرونًا ،
ولكنهم وقفوا عند تحوم معلومة في هذا الفتح ، فمضى ان تتفتح لهم
آفاق أخرى جديدة تتمر العقل العربي بالظلال والانوار .

وكانت المشادة عنيفة بين اللبنانيين دعاة التجديد ، والمصريين المفظورين
على عبادة القديم ، فهب كبار كتاب هؤلاء يصقلون ما صدئ من لسان
العرب واخرجوه فيما كتبوا كأنه الجديد بعينه ، ولما خمدت ثورتنا جنح
أصحابنا الى الفرعونية ...

أما المدرسة الشعرية اللبنانية فتوغل أثرها في مصر والشام والأقطار
كلها فبانت سياؤها في النشر الجديد ولم يسلم من الايمان بها غير شعراء
تجاوزوا عهد الشباب . فكانت هذه الموجة الشعرية التي تقيض بها صحف
مصر ومجلاتها ، مشت اليهم من شاطئنا الازرق وطارت من جبالنا الى تلك
السهول والنفوس فأحيت ما هناك من ارض موات ، ومن احيا ارضاً
مواتاً فهي له كما قالت جارية الرشيد لضرتها ... وهذا يبشر بمستقبل
باهر للشعر ان اعتمد ذووه بالابداع .

تجاوز الشعراء والنقاد الحد في تحديد الشعر فاتخمت الناس بنظرياتهم .
والظاهر ان الشعر ككل ما لا يرى لا يحدد تحديداً يحصره تحت الكم
والكيف ، بيد ان الابداع اول شروطه .

والشعر شعراء : شعر يولده ويركبه العقل ، وشعر مركب في النفس .
والذي يبدو من آراء النقاد العرب ان العقل مهم اولاً فحاموا في شمرم
حول المعاني حتى تداولوها جميعاً فأخلقت تلك الشباب ولم تجدد . يجب
العرب في شمرم الجهود العقلية فكلما اكثر شاعرهم منها كان متفوقاً ...
ومن هنا يحىي تقديم المعري مع انه لا يبالي بشيء من الفن . اما الشاعر

فهو من اتبع غريزة الجمال اكثر من العقل ليتغلغل في نفس الكون الحقية
كما يقول رنان .

ومن جهة ثانية نزام يضعون الجمال بعد الحقيقة في الفن فقالوا : أعذب
الشعر اكذبه . فكان الشعر عندهم كفتان : المعنى والتركيب . ان لغة
المرب لغة شعرية تمكن الشاعر المطبوع من اخراج الاصوات التي يريدتها
اذا ادرك اسرار ايجديتها . ولئن اعار الاجانب حروفهم الصوتية أهمية في
نظمهم الشعر فلكل حرف عربي مثل هذه الاهمية لو تنبه اليها شعراؤنا
ولم يصبثوا قوام على الأبحر ليملاوها بالألفاظ كيفما اتفقت .

إن جوهر الشعر العربي القديم لا يتعدى المحسوسات ، على حين أن
ما يرى هو رمز ، عند الشعراء ، الى ما لا يرى . فالحدود التي تفصل
الدنيا المادية عن الدنيا المعنوية ليست عندهم ، فأعينهم تدرك العلاقات
البعيدة التي تربط الاشياء ببعضها وتولجنا في اعماق جمالها الجذاب .
فالكلام يتجسد متى نفخت فيه الروح الملهمه الخالقة حياة . والتجسد
الشعري هو الشعر كله . وهذا ما يحاول ان يخلقه شعراء اليوم في أدبنا
العربي ، فالشاعر هو من يرى في الأشياء أشياء غيرها .

نحا شعراء اليوم نحو شعراء العالم حتى في تسمية دواوينهم مثل :
انفقص المهجور ، والموسجة الملتهبة ، وأرجوحة القمر ، وأقاعي الفردوس ،
والروافد . الخ .

نبداً بيوسف غصوب لأن فويته جاءت ، فدوانه أهدي الينا منذ اربع
سنوات . لقد طال انتظاره عند الحوض كما طالت محاولتي درسه على
سراجين : « اللاوعي » عن يميني ، و « البناء » عن شمالي ، ولكنني لم ابصر
شيئاً فأطقتها ورجعت الى قنديل المعهود ...

ليوسف غصوب ، كما لكل شاعر ، مقاييس لم يسعدني فهمي على

إدراكهما ، ولكنني فهمت ان الرجل يعلم ما يجب ان يتم في المنظوم ليكون شعراً طيباً ، وان لم تسعده قريحته على الذي يريد ، وهذا ما لا يستطيع يوسف غصوب ان يعمل ولو علمه . ان في شخصية يوسف غصوب نفس شاعر غضة لم تتألب حولها الظواهر الجوية لتتكون لآلء بديعة في غصون الشعر ، وقد رأيت صاحب القفص المهجور ، في كتابه « أخلاق ومشاهد » ، أشعر منه في ديوانه ، على ما فيها من شعر نفيس :

هذي أناشيد موقعة انغامها الحرى على كبدي
لا حكمة فيها ولا عظة بل صورتي صورتها ببدي
حالات نفس في مسرتها او في كآبتها ولم ازد

بهذه الابيات قدّم غصوب ديوانه الجيد ، وهي حد جامع مانع للشعر الرومنطيكى ، قال زعيمهم هيفو :

اذا حدثتك عن نفسي حدثتك عن نفسك . غير أن يوسف غصوب أمهر في تصوير الناس منه في تصوير نفسه — وما أصعب على الإنسان معرفة نفسه !

أؤيد زعمي بحكاية : دعوا عام ١٩٢٦ الأستاذ يوسف السودا للخطابة في جامعتنا الوطنية فاجاد وافاد ، وقوطع بالتصفيق الحاد ... وازدهى الأستاذ قبل ان حلت به نكبة لم تكن في الانتظار . خطب أحد صفار التلاميذ — في ذلك الوقت — قطعة من كتاب « أخلاق ومشاهد » عنوانها « المسيو لبنان » ، فجاءت الصورة كأنها الأستاذ بعينه ، فاجرت وجه السودا حتى كاد يزرق ، ثم هدأت الزوبعة وشاعت في وجهه ابتسامة عليّة ...

أمّا القفص المهجور فوحدة كاملة ، والناس تعجبهم الوحدة في هذه الأيام . وكان هذا الديوان مهياً « لرفأ السلام » ، القصيدة التي نعدّها ترنيمة الفوز والحياة للشاعر الحائر . وما استراح شاعر القفص المهجور

حتى حمي من جديد في العوسجة الملتهبة واتجه اتجاهاً جديداً حتى في التعبير ، فواكبته ربة الشمر فجنى من العوسج تيناً .

رأيته يتعرّض لعلم النفس ويحيد التطبيق ، مصوراً الاختلاجات الحفية بلغة قليلة الرواسم ، ولكنها غير غنية بالإبداع الفني لولا التشبيه الذي هو غايته القصوى ، وقد برع فيه واجاد ، وان استعار للاحلام غارباً في مطلع ديوانه .

أما الجو الشعري الذي توحيه مجموعة شاعرنا فجو أغبر ، ففي قلبه صوفية تذيبه ، وشعاره كشعار أولئك المساكين : لذاتنا في الشوق لا في الوصال . ولعلّ الكبت يؤدي بهم الى التسامي .

قالت مدام دي ستال : كل ما فعله الانسان مدين به لعاطفته الأليمة نحو ما قدر له وكتب . وإذا كانت « الأنا » هي كل شيء في الشعر ، كما يزعم الكثيرون من نقاد الغرب ، كان غصوب شاعراً كبيراً جداً لأن كل ديوانه « أنا » وهي تطفو على شعره ولكنها لا تخرج من ذات عميقة بل قريبة الغور ذات وتر واحد .

ان يوسف غصوب وافق على مفرق الطرق يتأبى الشعر المبثذل الرخيص ولا يتأتى له الطريف إلا بكد وعناء ، فهو ليس من شعرائنا الرمزيين الذين يحسدون كائنات هوائية ، ولكنه يحس بروعتها ويدعها وشأنها . فالشعراء الرمزيون يسبحون في جو عجيب الاضطراب ولا يذهبون قوّاً الى الاشياء ، فهم لا يعاينونها ولا يلمسونها بحركاتها ذاتها . عيون حائرة وأيد تتلمس ... فتغرق « الصيغ » التي يعبرون بها في ضباب كثيف ، أما يوسف فواضح جلي يسمّي الاشياء باسمائها . انه واقعي لأن في نفسه مثلاً أعلى كما يقول برغسون . ليس للارض قيمة في نظره فهو متجّه صوب السماء ... ولهذا غلبت رائحة المبخرة « ونافذة » الشهر المريمي على شعره .

الفصلُ المسجور

يوسف غصوب أديب مولته المطالعة ، وشاعر أئرى من الصفراء البعيدة في آداب الامم ، يكاد يكون أول شاعر ألف ديواناً في غرض واحد . إن ضربه على وتر واحد لا يخلو من جمال ، ففيه ايقاع بطل المقامة المكشوفية . أرانا الشعراء ، في أولى قصائد ديوانه ، أرواحاً تعبر بحار النور ، ومن أعاجيب هذه البحار « ذرى بعدها ذرى » يرقاها الشاعر ترقى الصوفيين في مقاماتهم واحوالهم ، فيملاً صدره غير الخلد و « يسمع تسبيح الملائك في الملى » و « تلتهم الارواح في خطراتها » تقبيل الاحباب بعد الغياب ...

إن أحبابنا الشعراء مفتونون بالشیطان والملاك ، حفيدى زرواستر ، وهم يرون ، وخدم ، هذه الأرواح السوداء والبيضاء ساعة يجبون ، حق صارت التوابع والزوابع من مكلمات حياة الشعراء ، والا فلا يكون الشاعر شاعراً . ثم يسمي الشعراء في نظر الاستاذ غصوب « فاطمين » بل كوناً كاملاً فيه الطور وفيه سيناء رفيه حراء :

وات بنا روح الاله فقلبنا كهبط وحي فاض بالنور والهدى
وأخيراً يظهر الشعراء من كل رنية ، ولا يبقى إلا أن تشق قلوبهم وتفسل وتزال منها النطفة السوداء ... ولا يعدو الشاعر شيء من الحسن في

الورى فيحدثنا يوسف في « قصته » الجديدة عن هذه المواهب :

غنى دونه جاه الملوك وعرشهم وكل قيس من ثراء ومن ثرى
وفي الثرى والثراء خيرات لا تحصى دونها كنوز فرعون وإن لم تصلح
منجماً للشعر .. ويحيى دور رب يوسف الذي ولأه خزائن مصر فنطق :
وقال كثير ما وهبتم وإنما تذوقون من جراء نعمائه الشقا
وهذا مصدق لقول القائلين : ان الدنيا تعطي وتأخذ ، كأم سيويه ،
فهي لا تهب بلا مقابل . وينطق يوسفنا عطاياه على الشعراء حتى يضع اخيراً
الجام في عدل بنيامين :

فتجلى لهم قبل الممات غوامض يحار بها من لا يرى فوق ما يرى
كما أصاب اخام امية ابن ابي الصلت الذي آمن شعره وكفر قلبه .
اقرأ حكايته في روايات الاغاني لتعلم كيف شق الطائر قلب أمية ، ثم
رده في موضعه وكيف انذره الغراب بالموت ومات لساعته . ومتى عرفت
هذا ادركت ان يوسف مقتصد في وصف نعم الله التي يسبغها على
اخوته الشعراء .

ويرافق غصوب الشعراء الى ما بعد اللحد فيصيرهم بهائين « ينعدمون
في ذات الوجدانية » ولكنه يحوّلهم الى نار ، والحمد لله على انها تضيء ولا تحرق
فيقول عن أنفسهم :

تقرب حق تستحيل شرارة تضيء مع الأنوار في منبع السنا
وهل نسي ان في الشعراء من لا يحاول ان يستحيل ناراً ، بل يود
ان يظل آدمياً بلحمه ودمه ، ولو عاش في آخر جنة المعرّي
مع الحطينة ...

أولئك هم الشعراء في قصيدة غصوب التي يذكرني اصطدامي بها بالمقصورة
الدريدية ، وثانية ابن الفارض ، فوق قوافيها كقطعة القلم ، وأسوأ القوافي

وقعاً في نفسي المقصورة منها ، وشرّ البحور الرجز .

أما الجوّ الشعري الذي حنا فيه مع الشاعر المخلّق فحبك تحديداً له ما ذكرناه لك من عوالم ، فيها ما يرى وما لا يرى ... ان بودلير ، معشوق شعراء شبابنا اليوم ، يرشقنا بأول زهرة من زهور شرّه - بعد المقدمة - عنوانها « بركة » فيرينا كيف خلق الشاعر بم رسوم خاص صدر من ديوان ذي القدرة الجبار . جددت امه من حنقها وتطلعت الى فوق بيد متشنجة كأنها اعتادت ضرب البوكس . أسفت كيف تغدّي هذا الهزأة - اي الشاعر - ولعنت . كأيوب ليل اللذات الزائلة الذي القى في مستودعها هذه « الكفارة » . وقالت وقالت غير فاعمة ما يعده لها القدر الدائم .

ويعيش ابنها هذا في رعاية ملاك - وسيان في الايمان بالملائكة الشعراء الملعونون كبودلير ، والشعراء الطوباويون كيوسف غصوب - فياكل شاعر بودلير طعام آلهة الاولب ، كهومير ، ويشرب الكوثر الفضي ، ويلعب مع الرياح ، ويحدث الفنام ، وينتشي مترغماً بألحان درب الصليب .. ويبكي الملاك - حفيد زرواستر - الذي يتبعه اذ يراه مرحاً كمصفور الغاب .

ان شاعر بودلير متزوج ، وشاعر غصوب عزب ، فتقول زوجته اشياء من وحي دليّة ... واخيراً يرفع الشاعر يديه نحو السماء ، كالقديس انطونيوس إذ ظهرت له الشياطين في أشكال شتى ، وهتف :

تباركت يا ربي ، يا من تعطينا الألم دواء إلهياً لرجاستنا ، وكأحسن وأطهر إكسير يهيء الأقوياء لاقتبال اللذات المقدسة . أنا أعلم انك تمد مكاناً للشاعر في مصف الطوباويين وبين الجوقات المقدسة ، وانك تدعوم الى عيد العرش الأزلي الخ . وأعلم ان الألم هو السمو الوحيد الذي لا

تمج عوده الأرض والجحيم وان ضفر إكليلي الالهي يقتضي استهلاك جميع الأزمنة والكائنات ...

ثم يبحث شاعر بودلير عن جميع الآلىء الضائعة فيراها كلها لا تكفي التاج الواجب صنعه « لجلالته » من النور الصافي المقتبس من موقد الأشعة الأولى القدس .

تساءل عما دعاني الى هذا . انني اتوب توبة داودية فلا اعود الى هذا فيما بعد حين اعرض للشعراء الآخرين ، ولكن لكل شاعر حديثاً عن الشعر والشعراء فكأنه يضع لنا هذه الاقيسة في مطلع ديوانه ليسد علينا الباب ... آفة الشعراء في كل ملئة وزمان انهم يرون انفسهم من طينة عليا ، مزاجها من ماء نهر الكوثر وجابلها غير اقدع كما كانت حاله بعد « المجبل » الكبير الذي جبلنا منه .

لم يتفق بودلير وغصوب في وضع سفر تكوين الشاعر ولكنها تواضعا على تأليه وجعله من عالم غير عالمنا . اما انا فالشاعر في نظري « خالق » ولكنه بشري مثلنا ، وهذه آيته الكبرى التي أو من بها . لا وحي هناك ولا ضرائب سخنة ، ولكنه محرّك يستطيع التحليق في اجواء بعيدة ، والشعر كلام فلا وحي ولا إلهام . ولكن الكلمة في الشعر الغالي تحمل فوق طاقتها ، كما رأينا في قصيدة بودلير .

اما شعار الشعر الرخيص فهو : ما كلّف الله نفساً إلا وسعها . في الشعر الغالي لا تدخر الكلمة شيئاً من جهدها لتدخل ملكوت الفن ، وهي الآلة الكاشفة لاسرار المياه والمعادن المحتجبة في بطن الارض ... وساعة يوقفنا الشاعر عند فتح تقدره نحن ونقدر نتائجه يكون شاعراً فقط لا عبقرياً . فالشعر خلق لا صلاة . ومن يعتقد غير هذا فليصل ... ولكنه في لاهوتي من الهالكين ودعوته لا تستجاب ... فلنخلق .

« القفص المهجور » هو النشيد الثاني من ديوان القفص المهجور . اننا نحب حتى الحزن هذا الغناء اليوسفي الذي نجى صاحبه من الجب ليسير مع القافلة في صحراء التيه . ان قصيدة القفص المهجور موحشة ، وقد يكون عنوانها سبب هذه الوحشة ، ويزيد الطين بلة ورود الموت والقبر في مطلعها . اما « وحشة القلب » على ما اولت لفظة « حنظلت » مطلعها من مرارة وخشونة ، ففيها شعر طلق :

لا تقل باسم قرب ابتسام	كسراج يضيء في كوخ يؤس
طفح القلب بالهوى وهواه	ضائع كالشموع في نور شمس
او كعين تفجر الماء منها	فوق جذباء لم تحل بغرس

إن هذه الارض الجلحاء تقفأ حصرماً في عين الهواء القالع فليمر فيها بترتيب او بغير ترتيب .

برأ الله انفس الناس أزواجاً تدعى فكل نفس لنفس

المعنى متداول ، ولكن ما الحيلة والشاعر يريد ان يقول هذا ويفتش عن شقيقة نفسه ، فليته يصون شعره في قابل عن هذه الاذيال كقوله : « تدعى » ، ثم : « فكل نفس لنفس » . قد بلغنا الغاية عند « ازواجاً » فما ضره لو كفانا القتال ونحن مؤمنون بشاعريته ؟ ! ... واذا تتطلسنا قليلاً قلنا ليته قال : برأ الله انفس الخلق ، فالناس أضيقت من ان تسع الجنسين ، والشاعر يترجم هنا قول التوراة ذكراً وانثى خلقهما ..

ويدخل الشاعر قصر الحب ، ويتكىء في قاعة « الانتظار » حتى يطول عليه ويؤله فيقول شعراً طريفاً :

قربت ساعة اللقاء وغاضت	في دجى الليل كبرياء النهار
ارقب الحب خاشعاً كسيّ	يرقب الوحي في ظلال الوقار

ليته استعار لهذا النبي مسوحاً بدلاً من ظلال فتجد كبرياء النهار شقيقة

نفسها كما وجد الشاعر بعد هذا الانتظار شقيقة نفسه . وتبيري التشابه عند الشاعر بروعة شعرية عذبة تتجلى فيها امامي لأول مرة شاعرية يوسف غصوب الحنونة في قصصه المهجور . لا اواخذه الا على « ساري » فمن حقها النصب ، وليس من حقه ان يقف عليها . ولو خلت هذه القصيدة من بعض هينات هينات ، لثمت كنعمى بني امية عند أخطاهم . وهي عندي مع ذلك من خير الشعر العربي . ويوسف الذي لا يصّر قلماً يابيه اللطع ، ولكن قصيدة « الانتظار » جيدة الاستهلال رائعة الحتام ، وليس أجل من : آية اليأس في جبين النهار ...

وفي « نجوى » صورة طريفة أيضاً حيث يقول التي ناجاها متهدداً بالاستشهاد :

هلاً عطفت عليه فإن في مقتلته
تضرعاً وملامه

إن هذا التضرع والملامة المازقة لا يفارقان عيني شاعرنا . ويقتل يوسف قبله ، أخاها الأولى من نوعها ، فيحسنّ انها تركت في موضعها طيباً يعطر أيام الشاعر وأحلامه ، ويعدها زاداً - غير « زاد المعاد » - يشدد من ضعفه . وبينما هو في هذه الفورة ، في عز حبه إذا به يحدثنا عن الامل ويصف لنا بهذه الحكمة المريضة : وأثبت ما بنى الإنسان قبر ... قر ... يا يوسف . استمعجت .

ما هؤلاء الشعراء لا يفكّون ريقهم بما يسند قلوبهم حتى يستجروا بالقبور ، غفر الله فؤوك يا مدام دي نواي ...

وعلى ذكر القبر أقول ان أروع ما أوحاه القبر للمتقدمين والمتأخرين قول الشاعر أبو شبكة في رثاء صديقه فليكس فارس :

تراب القبر أهناً من فراش
على جنبيه ثعبان وحوث

أرأيت ؟ هنا ضالتنا المنشودة ، هنا حمل الكلام جبالاً وما ناء تحتها
ولا اشفق منها ... وفي قصيدة الخريف الجيدة لا بد من لفت الشاعر
الى بيت متداع ، وقع فيه يوسف بفخ الوزن فاستغاث « بتلكما »
حيث قال :

يا صاحبي إذا قضيت فكفنا جسدي النحيل بتلكا الورقات
فأه من صاحبي العفنة ، وألف آه من تلكا ، فهي لا تقع في حوز
شاعر يرتضيها مادة لشعره ، ولا خوف من انقراض نسل الكلام لنفعل
كبنات لوط ...

أما « ذكرى » يوسف فما نفعتني شيئاً ، وما رأيت فيها إلا تشابهه
مألوفة تدل على ان للشاعر عيناً ثاقبة تحسن النقل ، وقلتها ترينا شيئاً « فوق
ما يرى » ، وكذلك « رؤياه » فما وُفِّقت إلى تأويلها وقد يكون عليها
عند ابن سيرين وفرويد ...

أما « جنة الأحلام » فهي حديقة شعر وحسبك منها هذا الضياء الذي
جده يوسف في هياكل الاجسام ، وكأنه وجد حجر الفلسفة المنشود . قال
ينصف فؤاده الأعمى :

يا فؤادي ألا ترى غايبات بارزات من مكن الآجام ؟
مع ان ولوج الآجام والكون فيها يصعب على سيدات :

عاريات كأنهن ضياء جامد في هياكل الأجسام
يتشّين كالظلال خفافاً ما يضرن الاعشاب بالاقدام

قلنا انها حديقة شعر ، والحدائق لا تخلو من الطفيليات ، فلا بدّ من
تنقيتها ، فما الذي اضطرّ الشاعر الى القول : « كلما مرّت النواصم فيه » ؟ .
في مكنته ان يقول « النسيات » فما دعاه الى هذا التمسّ ؟ اللهم ان لم
يكن يحاول التجديد عن طريق الجموع وبعض الصيغ كأصحابنا المصريين ،

حرسهم الله .

ويرى يوسف العذارى يستحمن فيدعو قلبه الى الاقامة عندهن ، كما تنسى بطرس على سيده في طور طابور . أدهش يوسف المشهد فلم يكن فاتكاً كإمرء القيس ، ودعا قلبه فما لبّاه ، بل سار به الى مرقا السلام .

« مرقا السلام » خاتمة القفص المهجور . يسأل فيه يوسف الحبيبة التي وجدها ، بعد ان يعترف لله الآب الضابط الكل ، ولها بجميع خطاياها لتحلّه منها ، وتطهره ... فيصور لنا ما قطع من الاودية حتى تحسبه تأبط شراً . القصيدة صورة حاله إذ كان كالأبن الشاطر . ولو فصل فيها ما أطعم الاصدقاء وما سقام ، لقلت انها اخت قصيدة الواساني التي وصف فيها ما جرى عليه في الدعوة التي عملها في قرية « حرايا » من اعمال دمشق . قال ذلك في اصحابه الذين خربوا بيته ولعنوا اياه :

من اجل أكلة مجّان	رحلوا من بيوتهم ليلة المرفع
لهتكي وذلتني وامتحاني	قصدت هذه الطوائف حرايا
ما طعمنا الطعام منذ ثمانين	قلت ما شأنكم ، فقالوا اغشنا
ولا ضيعة ولا بستان	افقروني وغادروني بلا دار

ومما أكلوا :

قريباً بالخل والزعفران	اكلوا لي من الجداء ثلاثين
وهاجت لفقدها اشجاني	اكلوا لي كشكية قرّحت قلبي
طرياً من اعظم الحيتان	اكلوا لي سبعين حوتاً من النهر
عن جمعه قرى حوران	ومن البيض والخلل ما تعجز
والرازقي والرمان	فتتوا لي من السفرجل والتفاح
جيتي عند احمد الفاكهاني	والرياحين ما رهنت عليه
ثمانين من معيز وضان	ذبحوا لي يا معشر الناس

اكلوا اكلوا ...

ثم قالوا لم شيئاً فنأديت غلامي قم ويك فاخبأ حصاني
القصيدة فكهة جداً ، وهي مؤلفة من ١٩٦ بيتاً تجدها في البيئمة الاولى
ص ١٦٦ طبعة دمشق .

ثم لاذ يوسف بظلّ هذه الصديقة ففطرت له جميع ذنوبه وخطاياها ، ونضحت به
بالزوفى فابيضّ أكثر من الثلج - حسب قوله :

وبات قلبي اتقى من مائه في الصفاء
يريد ماء هذا المرفأ العظم الذي القى فيه مراساته وربط مركبه :
تضيء عيناك فيه كالانجم الزهراء
فطهرته بحب صاف وصدق وفاء
ويهتف ختاماً :

يا ملجأى يا ملاذى يا بلسمى ورجائى
قلت : ولعلّ اسمها مريم ، فتتضرّع لأجله ، وتتشفّع فيه ، وتتحنّن
على موثاه . آمين !

العوسجة الملتبته

القي الشاعر غصوب النجوه - يطره - في ذلك الثغر المطمئن الهادي ،
الصفية مياهه كمين الديك . وتطهر صاحبنا فصار قلبه ككائه البلتوري في
الصفاء . وما قلنا استراح المركب في الميناء ... حق رفع المرساة واقلع
« الفلك » العجيب .

التبته العوسجة ونار العوسج حامية . وقديماً اشتعلت العليقى وكلّم
موسى ربه منها واختارزه كلياً . أما يوسفنا فكلوم لا كلم . انفجرت
عاطفته من جديد ، واستيقظ قلبه بعد غفوة غير كاملة ، وكذلك قلوب
الشعراء والنساء لا تحمد فيها ثورة حق تشبّ أخرى في إحدى زواياها
فيستقد البيت . لطا صاحب القفص المهجور في المرفأ عند هبوب العاصفة ،
ثم حلّ المراسي ، وسار فلكه ، وباسم الحب مجراه ، وإذا به يقول لنا :

أعددت فلكاً للهوى عجباً بالطيب والانوار منتقياً
علقت في أمراه سحياً حمراء تحب موجهاً لها

وصفات هذا الفلك أشكال وألوان ، فهو كسفينة جبران المرقشة . ولكن
قصيدة غصوب غير جوفاء كذلك ، وإن خاب ظننا في توقع نهاية أروع لهذا
الفلك النوحى الجديد الذي « تجاوز الآفاق والقطبا » ولم يستور لا على
الجودي ، ولا على أراراط ...

إن الشاعر غصوب في عوسجته الملتبهة أغزر خيالاً وأرصن تعبيراً منه
في القفص المهجور . فهو فيها يخوض وسط المصمة ... رأيتـه يتطور تطوراً
محسوساً جداً كـتطور الفراشة . ففي « شـهـات روى » شعر طـيـب ،
وإن لم يخلُ من الرواسم كقوله :

والزهر المنثور من حولنا رصه بالدرّ طل الحياء
ولا من الركاكـه كقوله : « وكل شيء اضاء » :

ونظرة باسمـة في الضحى تفوق نوراً كل شيء اضاء
وفي « الجنـازة المـراء » تطل علينا أشباح بودليرية رابعة كأننا نرى
« جيفته » . ويوسف يحذو حذوه في « اللازمة » فيعيد بيتاً أو بيتين أحياناً
في هذه ، ثم في قصيدة « المساء » التي تليها .

وفي « عودة الربيع » تراجعنا ذكرى « خصـانـة » المتني ، رحم الله
أبا الطيب فقد كان ذلك الرجل من ذوي النوق السليم . كانوا في زمانه
يجبـون كـثبان الرمل ، وكلما سمحت الحبيبة وغزر لمـها وتهـدّل ، عظم
حسنها كأنما تؤخذ الى المسلخ ... اما المتني فتناهى في الرقة حتى قال :
كل خصانة أرق من الحجر ...

أما « النفمة العذراء » فرديته الموسيقى ، لا آهات فيها ولا رنات . كل
ما فيها تعاضل وابتذال ، اللّهم في الفن الشعري . وفي « نور الفؤاد » يتجلى
لنا ما يشبه رؤى سيلي بريدم . رأى يوسف نفسه مسجى في نـش
— سلامة قلبه من هذه النومة — !

تضيء من حوله شموع التقى معقودة اعناقها بالحداد

اي لابسـة « كرافات سوداء » ، والحجرة يفالب النور عليها السواد .
وهناك دمع بيلّ جسده الذي امتدّ فيه الفساد . والخلاصة كان مأتمه حامي
الوطيس عندنا ، والعرس في السبع الطباق الشداد كما يقول الشاعر العربي .

ويقول يوسف حكمة بعد الموت فيعير الناس اطعامهم ويتمنى ان لا يوقظ من هذا الحلم :

لا توقظوني ان اكن حالماً فقد اضاء الموت «نور الفؤاد»

أما نحن فنهش بالرجعة قائلين : «صح النوم» . إن هذه القصائد كلها جيدة الأول ، أما ختامها فخال من « الزخم » ، وهذا ما انعاه عليه . فبدلاً من أن تلم قصيدته شملها كقصائد هينو وأبي نواس إذا بها تنفلطح .

لم نذكر سيلي بريدوم عبثاً فقصوب من شعراء اليوم كسيلي بريدوم من شعراء عصره ، فهو لم يطفر طفرتهم اللفظية ، وبينه وبين الشاعر الغربي قرابة دموية في التصورات والخيال والرؤى . أما توارد الخواطر بينه وبين ألفرد دي ميسه فقد سقطت عني مؤونة بحثه ، اقرأ «الباب المرصود» .

ويسمع يوسف في « نداء » صوتاً يسترعي انتباهه فيحدثنا قائلاً :

كل يوم تصيح نفسي لصوت هابط من عوالم خافيات
فهي تهفو الى المنادي وترقى كبخور اليه او كصلاة

وتخطر بباله الفلسفة فيقيمها بقوله :

أترى هذه النفوس الحيارى في اغتراب عن عدنها مبعديات
قالى عدنها تذوب اشتياقاً وحينئذ الى قدم الحياة

وكما قال المسيح لبطرس : أنت رأيتني وآمنت فطوبى لمن لا يراني ويؤمن . طوبى لك يا يوسف فأيمانك اكثر من حبة خردل ...

وأحب الاستاذ الفلك والسفن والرافى كثيراً فشبّه نفسه بركب ، حتى أراننا في قصيدة «نداء» دنيا بأسرها . فيها افكار مختلفة ، وفيها أوزان شتى ، وفيها أساليب متنوعة فكان هذا المركب سفينة نوح التي وسّعت الأجناس كلها ... وفيها شعرايضاً ، فشاعرية يوسف في تقدم مستمر

كما تشهد بذلك قصائده الطيبة التي أذاعها بعد هذا الديوان النفيس .

ويستمر الشاعر في العلو صعوداً حتى يبلغ « سدره المنتهى » فيفتش تلك الآفاق فيجد العلم تيهاً والمجد لفظاً ، وفيما هو يغلي في هذه الرحلة العنيفة :

وإذ بروض مأؤه من مدام ودوحه مسحورة كلما
تأملت غنت نشيد الغرام

فيدعو نفسه للإستراحة في ظل « سدره المنتهى » فتقر زماناً ، ثم تستفيق مذعورة وقد راجعها داؤها ، والنكسة ويل وبلاء :

حنت الى عهد الليالي العذاب في صحبة الاحلام تسمى الى
اوطانها العليا وراء السحاب

يا ليت شعري ، أين تكون سدره منتهى شاعرنا التي رأها ؟ فالمعلوم أنه ليس فوقها فوق ، وما وصل اليها أحد بعد ، غير بشاره الخوري . وأخيراً يلقي حبل نفسه على غاربها في ذلك الربع الخالي :

فقلت عودي واسرحي والخيال في اربع ما خاب روادها
لذاتها في الشوق لا في الوصال

تلك حياة الأبرار والصدّيقين ، متّعنا الله بها مع يوسفنا العفيف ، ووقانا صرامة اللاهوتيين الذين يقاصون الناس بالهلاك الأبدي من أجل خطيئة الفكر ...

ها قد بلغنا « صلاة راهب » . ان تكن القصيدة صلاة فهي من أروع الشعر واطيبه ، يحول فيها شاعرنا والبحثري في حلبة واحدة - شعراً وفناً وتصويراً - يصبّ فيها هذا الراهب النقي سخطه على حواسه الخمس واصغريه ، فيصير المجموع سبعة ، بينما الراهب الاصلي - جرمانوس فرحات - تشكى من أربعة فقط :

اني بليت بأربع لم يخلقوا إلا لشدة بلوتي وعنائتي
ابليس والدنيا ونفسي والهوى كيف الخلاص وكلهم اعدائي

وكأنني راهب غصوب هذا هو بولا أول الحبساء ، فألامه كثيرة
جداً ، والدنيا كلها متألبة عليه فهو القاتل :

رب رحاك ما تريد فإني كدت في وحدتي اصاب بمسّ

قد عودتك الحكايات ، فحكاية القديس بولا غريبة عجيبة ، دلّ عليه
القديس أنطونيوس : وحش كان نصفه شكل إنسان ونصفه الآخر شبه
فرس . وكان الغراب يأتي القديس بولا كل يوم بنصف رغيف ، ولكنه
جاءه برغيف كامل حين زاره القديس أنطونيوس . وعند موت بولا رأى
القديس أنطونيوس نفسه صاعدة إلى السماء ما بين الملائكة والانبيا ...
وبولا مات وظل واقفاً على قدميه ، كما خبّر القديس أنطونيوس الذي
دفنه يعاونه على حفر قبره أسدان ، وبعد حفر القبر ركم الأسدان أمام
مار أنطونيوس فصلّى على رأسها قائلاً : إلهي ، يا من بدون عناية حكته
لا يسقط عصفور على الأرض ولا ورقة واحدة ، إمنح هذين الاسدين ما
يناسبهما (مروج الاخبار ص ٤٢) .

وفي « صلاة راهب » يلتقي يوسف مع دي فيني في قصيدته « موسى » ،
ولكن راهب غصوب غير جسور كموسى دي فيني فلا يمنّ على الله بشيء ...
وينتقل يوسف إلى « العذارى » فكان حقاً مسك الحتام ، ففي هذه
القصيدة الرائعة يلتفت شاعرنا الواقف على « مصلّبة » الطرقات صوب
الشعر الجديد ، فيحلم الروض بالريبع ، وينتشي الفجر ، وتتمش الروابي ،
وترقد الوهاد ، وهلمّ جرّاً . ويسجل يوسف أخيراً إيمانه البريء في هذا
البيت من القصيدة وهو ختام ديوانه فيقول :

تحسف الارض بالخطيئة لولا شافع الطهر في العذارى الصغار

فهو يريد أن يقول : لولا طهر المذارى الصفار لحسفت الأرض بسبب الخطيئة ، ولكن قوله جاء عكس ما يريد . ولو تم ما قال لاسترحنا من الخطايا كلها ، وغابت عن وجهنا في قلب الأرض ، واسترحنا حق من الخطيئة الأصلية ... التي جعلت النفس نحن إلى عدن الذي خرجت منه ، كما جاء في شعر غصوب .

انتهت جولتنا في هذا الديوان الحصب الذي نعدّ صاحبه همزة وصل تربط القديم المتحجر بالجديد الطافر ، فهو أول شعراء الشباب الذي فكر بالاستقلال الناجز مع المحافظة على ما تجب المحافظة عليه .

يقول تين : إن الأمر الفني تعمل ثلاثة عوامل : الجنس والمحيط والزمان . وقد نسي التربية الأولى التي عملت في شعر غصوب ما نلسه لمساً . يعجب الناس لكثرة الشعراء المجهدين في هذا الجيل لأنهم لم يقتبها إلى هذه العوامل . ولو أمعنوا الفكر قليلاً في الفناء اللباني العامي الذي تمام عليه أطفالنا ، وتستيقظ عليه فتياتنا ، لأدركوا سر شاعريتنا . فكل ما في لبنان شعر .

قد فكر العرب في الوراثة فقالوا : أمّ عمر ابن أبي ربيعة حميرية ومن هناك أتاه الغزل (أغاني جزء ١ ص ٣٠) واللباني وارث غير سفيه ، أغنى تلك الثروة التي ورثها ، وزاد عليها من مريح الاسفار فأصبح أدبه الذي ترى وتسمع ، وصار الشعر على كل شفة ولسان ، حتى صرنا نرى شعراء الزجل يقيمون سوق عكاظ حيث يجتمع منهم اثنان أو ثلاثة .

إن يوسف غصوب هو ابن هذه البيئة الموسيقية يمثلها احسن تمثيل في فكرته وتصويره . وديوانه أول أنشودة تمثل شاعراً بلحمه ودمه . والشعر كما يفهمه يوسف « بناء » وقد بنى صاحبنا مدماً كما في قصر الشعر فعلى النرية ان تعمل ما عندها ، فأدب الامة لا يبنيه واحد وحده . وإن كان ذلك قتلك

غضاضة من قدر الملة والشعب وشاهد على العقم . تعجيني لغة يوسف
النقية ، فهو على تأثره بالعجم عربي اللسان ، وقد جمع في ديباجته
السهولة والقوة ، وإن أتت قوافيه أحياناً كأنها « غلقت » . والقافية في
نظري زاوية لا غلقت ، ولكنها بخلاف نمط البناء توضع عند نهاية المداك ...
وهي تخلق القوة في البيت كله .

إن وثبات يوسف قليلة ، والوثبات هي التي تعمل الشاعر الكبير ، فإذا
خلا منها الشعر يحق لنا أن نقول مع بوفون : شعر مثل النثر الجميل .
والشاعرية العظيمة تظل داغة الأشماع حيث ترى ، فكأنها الجباحب
في ليل الفكر . لا بدّ للشاعرية من الوميض كل حين ، وهذا ما
لمحتّه عند غصوب في الموسجة التي هي خير من القفص . كما أنني
قرأت له شعراً ، بعد الديوان ، كان أعظم وقعاً في نفسي من
شعره الأول .

والجمال الفني عند شاعرنا عام ، ولكنه غير باهر ولا فاتق . أعني
بالعام جمال الغرض والعاطفة والشعور والصيغة . ولكن ليس في
شعره كله قصيدة تدور على اللسنة لتخلد صاحبها ، وإن طلبنا ذلك
فقد نجده في بعض مقطوعات نشرها في المكشوف ، بعد طبع الديوان .
وإذا صحت نظرية جول ليمتر : أن الشعراء كباراً وصغاراً لا
يقرأهم إلا الشعراء الآخرون ، بطلت نظريتنا هذه ، وكان ديوان الأستاذ
غصوب مقروءاً من الأدباء جميعاً ، وسيقرأ دائماً لأنه جميل طريف وصاحبه
يقدر نظرية الفن للفن ، كما يبدو لي من عمله العنيف في شعره .
فأكثر شعره معمول « توصية » أو قل أراد الشاعر أن تكون له
قصيدة فكانت .

أما فضل غصوب الذي لا ينسى فهو هذا العمل الفني الحر الذي كان خير

أمثلة للشباب حفظوها عن ظهر قلب . أطلق الشعر من قيوده ولم يقل
قصيدة في موضوع غير شعري يوم كان الشعر يعمل غبّ الطلب . فأين الشعر
مثلاً في قصيدة بشاره الخوري الأخيرة « عودوا إلى تلك القرى » فهو لو
جبرها مقالة لكانت أروع .

وإذا كان فلان شاعر كذا وفلان شاعر كذا ، فيوسف غصوب شاعر
الشعر أولاً .

حياء الله كشافاً مباركاً ، أو رائداً أعجبت خضرة الدمن .

قارورة الطيب

يا فتاح ! يا علم !

قبل كل كلمة أكتبها ، وبعد آخر حرف من هذا المقال ، أعترف وأقر وأشهد أن في « قارورة الطيب » شعراً معطر الأردن كصاحبة إمريء القيس التي يسمي فتيت المسك فوق فراشها . فافتحت « القارورة » حتى عبقت رائحة طيبة أعرفها في شعر غصوب . يضع الشاعر على وجه « القارورة » حديثاً منظوماً يرويه بلسان « قرقورة » جديدة :

كبرتَ - تقول مازحة ، وترنو إليّ بطرفها الغنج المدلّ
- أماتعب الفؤاد من القوافي ومن خفقانه بالحب ؟ قل لي
فقلت لها : الفؤاد فدا لحسن يكاد يكون فاتحة التجلي

ورحت أتعرق في القارورة حتى خضضتها خضاً عنيفاً ، فتذكرت قول شاعر القفص المهجور :

إن قلبي بعد ان مات الهوى قفص أفلت منه البلبل

سنة مباركة ورزق جديد... عاد البلبل إلى القفص ، وها ان صاحبه يفنّي
لمامة جديدة . حمامة في عينها اخضرار ثوب الشهادة كما فهمت من القارورة
التي حبسها الشاعر فيها كما تحبس المردة في القماقم ... وهكذا بدا لي ان

« الموسجة » أيضاً قد تأججت من جديد ، وإن شاعرنا انتكس فساد قلبه
حامي الوطن .

كما تنتظر ان نرى في « القارورة » برذاً وسلاماً ، وقلباً مستقراً ، فإذا
بها تقدح شرراً فكأنها قنبلة لا قارورة . إن قلوب الشعراء كملبقة موسى
تشتعل ولا تحترق ، فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون . وكأني بصديقي غصوب
يهتف للرب بلسان داود النبي . قلباً « محباً » اخلق فيّ يا الله ، وروحاً
« عاشقاً » جدّد في أحشائي .

أقول هذا لأن الشاعر بدا لي في قارورة الطيب أشبّ وأفتى منه في
الققص والموسجة ... قد يكون وقع على كثر ، فمن يدري ؟ الحير مرزوق
ومن سعى على رجله رعى .

وما جلت في هذا الديوان الأنيق الهندام حتى رأيت وجوهاً أذكر أنني
تعرفت عليها أو اجتمعت بها منذ سنوات . فتمثل لي أحدهم كأنه يقول لي :
مارون ، خذ حذرك . عدت الشجرة . فعددت المئة . كلت من عندي في
عين كفّاح التفتيش عن ديوان غصوب الأول وارساله إليّ ، فلم يهتدوا اليه .
فسدّت القارورة لثلا يطير الطيب ، وانتظرت فرصة الربيع ثم عدت منها ومعني
الديوان . وبعد البحث وجدت ان القارورة موجهة بشعر جديد كما يفعل
البستاني اللبق عند تصدير أغماره ، وفيها بضع قصائد من الديوان القديم . فعدت
إلى قول تلك للشاعر غصوب :

أما تعب الفؤاد من القوافي ومن خفقانه بالحب ؟ قل لي

إذا كان قد تعب من الحب فلا أدري ، أما من القوافي فحمله خفيف جداً ،
واليك البرهان ، بل اليك الحساب : ان المسألة حسابية ، أهْداني الشاعر
غصوب ديوان « الققص والموسجة » في الشهر الذي صدر فيه — حزيران عام
١٩٣٦ — وقد نفع الادب بطيب « قارورته » في ٣٠ تشرين الثاني عام ١٩٤٧

فيكون بين الديوان الأول وهذا مسافة احد عشر عاماً وخمسة أشهر . فإذا قسمنا هذه التركة الادبية الخالدة على الشهور وعددها ١٣٧ شهراً كان نصيب كل شهر بيتين وحرفاً ... لأن مجموع الشعر الجديد في « القارورة » مئتان وستة وسبعون بيتاً ونصف البيت . لا يفرك كبر الديوان فهو كأكثر دواوين اليوم أشبه بطلب الشوكولاتا الأنيقة .

هذا حساب اظنه مضبوطاً ، ومع كل فالغلط جائز ، وأهون شيء عندي أن هو الرجوع عن الغلط .

إذن ليس في القارورة الا شيء قليل ، وهذا لا ينقص من قيمتها ، فالمسك لا يباع بالمد والشنبل بل بالغمرات ، وان رأيتني احاسب شاعرنا هذا الحساب المسير فلأنه قال مع امرئ القيس : اذود القوافي غني ذبادا .

إذن ما تعب الشاعر من القوافي اذا كان هذا انتاجه في احد عشر عاماً وخمسة أشهر . بل هو كقول الشاعر : وأمُّ الصقر مقالاتٌ تزورُ .

فالثابت لي هو ان يوسف غصوب شاعر مقل ، اجنحته مثقلة ، ولكن شعره زائغ ملون ، معطر ، فيه كل خصال الشعر الغنائي . وشعره صوت نفس مضطربة كنفس شاعرنا أبي عبد الله بشاره الحوري ، ولكن غصوب مسيطر عليها بينما هي مسيطرة على الاخطل الصغير ... ان لنا درساً خاصاً بالفزل عند هذين الشاعرين ، لا أدري متى يكون موعده أما الآن فالكلام على غصوب وحده .

ان غزل غصوب غزل كئيب مغموم ، غزل مراقب ، ينظر ولا يقتحم ، يظل أبداً يتحجج لأنه غير فاتك ، وبرهانتنا هذا « التضرع » قديماً وحديثاً . انه غير جسور ولكته لا يموت غمّاً ، كما قال الشاعر ... وقد يكون غصوب كما زعم وقال : لذاتنا في الشوق لا في الوصال .

ان خطيئة « الفكر والقول » كخطيئة « الفعل » خطورةٌ ، انها متساويتان

لاهوتياً — كما تعلمنا — اذا استثنينا الرد والتعويض ...

رأيت يوسف غصوب يتطور في قارورته ولكن تطوره بطيء . الرجل
خلص في عمله ، مثابر يشذب ويهذب ، فهو والصافي في هذا ضدان ، ولعلّ
الصافي يجهل ان لا صدقة في الفن بل قريحة وعمل .

ذكرت « الخطيئة » لأن رائحة التدين تهبّ عليك من قارورة غصوب وهي
مطبوعة في المطبعة الكاثوليكية ، فاسمعه كيف يبرر هذا الحب بقوله :

هو الحب من نفحات المسيح وكان على الأرض قدماً غريباً

مع آلامك يا يسوع ! هكذا كانت تقول امي في النكبات . ابن المسيح
عند النصارى حامل خطايا العالم ، أفلا يحمل تبعة حب يوسف على خفتها ؟

اظنني لا أعدو الحق اذا سميت يوسف شاعر الحب النظري ، ولا أخالني
حقاً اذا سألته من أين لك هذا وقد جاوزت حد الاربعين ، ما زال غيره
يتغزل وهو في السبعين . ولا سيما ان الحب ليس بالباب الضيق ، فاقه ، سبحان
كرمه وجوده ، لا يقطع رزق مخلوق .

ان يوسف يعمل بقول شارل بودلير: للخروج من أزمة الهوى تدفعنا احدى
حاجات الحب الى « الصلاة » ، وهذا ما يبدو لي في القارورة تلميحاً ، وقد
لمسته لمس اليد في ديوانه السابق . ولكن هذا التدين عند شاعرنا نوع من التوازل
كالبهار والقرقة يزيد في نكهة طعم الحب والذلات .

وقد يكون الحب كفارة عند غصوب كما رأيناه عند بودلير القائل : حق
يؤدي الانسان الجزية لربه ويفتسل من وسخ الخطيئة الأصلية اعطي حقلين
بحرثهما : الحب والفن .

وها ان شاعرنا يعلن هذا الجهاد على هاتين الجبهتين في جوابه لتلك :

فإن الشعر حب أو جمال لعلّي مائت بها ... لعلّي ...

إننا لا نرجو لشاعرنا ان يصبح مع ابن الفارض :

ما بين معترك الأحداق والمهج أنا القليل بلا إثم ولا حرج
إن ابتسامه يوسف الهازئة ، وتستطيع ان تقول المزة ، تنفذ الموقف ، وينفذ
صاحبنا في المضيق ، كما عبر ابن الأثير .

وإذا أردنا تلخيصاً للصور التي تحتل ساحة شعور غصوب فتجد أوتها
العري ، فكأنه تلحد للشيخ فؤاد حبش يوم كانت الدعوة لتلك الرسالة عارمة .
فالعري يواجهنا في أولى قصائد القارورة :

في كل أغنية كعاب روتها الحب والجمال
تطلّ في عريها فتنشي بعريها الحسن والخيال

ثم يوضح هذه الفكرة الثابتة بقصيدة عنوانها « متجردة » يصف فيها
الحبيبة كأنه يصف تمثالاً رخامياً . يصفها وصفاً سليمانياً فكأنه تجاه شولية
جديدة حين يصرخ :

يا حارسي جنته انتما على ضفاف الفلّ والقار

ثم يبرىء هذا العري الذي وصفه وصفاً كاملاً ، تقريباً ، فيقول :

لا يعترية العار في عريه في الحسن منجاة من العار

ان هذا البيت عرعار حقاً ، اما ان الحسن ينجي من العار فهذا في نظر
يوسف ، أما في نظر معلمينا اللاهوتين ففتنة .

هذه هي المادة الأولى المركب منها طيب القارورة ، أما المواد الأخرى
المؤلف منها هذا المركب فهي من عطور وخمور وانغام واضواء ، وازهار
وينابيع ، وملذات حمر وخضر وصفر ، ولا بدع فالطيب يركب من أجزاء
مختلفة ..

أما نخيلة شاعرنا فهي نخيلة تعنيها الكلمة أكثر مما تعنيها الأشياء . ولكنه
بدلاً من أن يستعمل لفظات سهلة جداً يجعلها بين بين ، وهذا مما يحمّد عليه
فيقول مثلاً : صحارى حنين ، تفرد ألوانها وطيوب ، وترقص في الأفياء

سكرى . هذا نموذج من قصيدة جمال ، التي أرخى فيها العنان لخياله كما يفعل أبو عبدالله ، فقال : إن هذه الجميلة ألهت وحش الصحراء عن صيده ، وتقاطرت إليها الطيور من الأفق البعيد فذكرني قول الانجيل : حيثما تكن الجثة تسقط النسور ، ونعبد هذا الجمال من أن يكون جثة . لقد غاليت يا يوسف حتى كدت تدرك بشاره ... وتقوق نعيمه في قصته « لقاء » حين جعل الثعالب تطرب لموسيقى بطل قصته طرباً غريباً عجبياً ، ويصيبها ما أصاب سامعي الفارابي ..

وبما أننا نتكلم عن الكلمة فلنفرغ من شأنها : ان كلمات يوسف منتقاة وهو يجعل وكده في الملاءمة بينها لتولد الموسيقى التي يتمناها الشاعر ، وقد أدرك جلّ هذه الغاية ، وإن أغرب فقال : أغنية خضراء ... ولكن كلماته مختلفة الأعمار ففيها البدوي الخالص كقوله : « سموت لنا » ومثلها القرقف الأخطلية التي أكثر من استعمالها وكذلك دد الحلزية . . و « بعد لأي » النابغية . ومثلها قوله :

احسبها في دمي ، في عروقي وفي « الكان » مني وفي المزمع
انا أعلم أن اسلافنا ، يرحمهم الله ، ادخلوا ال على الافعال فقالوا :
ما أنت بالحكم الترضي حكومته ولا الأصيل ولا ذي الرأي والجدل
وأدخلوها أيضاً على الظرف فقالوا :
من لا يزال شاكرأ على المعه فهو حريه بعيشه ذات سعه
وأدخلوها على الجملة فقالوا :

من القوم الرسول الله منهم لهم دانت رقاب بني معد
كان القدماء يعدون ال هذه اسم موصول أما نحن فما لنا ولها .
اسمع يا أخخي يوسف ، ستراني في غد ، أو منذ الآن ، متساعماً مع سعيد عقل حين يقول في نشيدته قدموس : كنّ بها الصقع كما قال قس بن

مساعدة ، وان يقول :

باركك اليد الأهلّت على الفقر عطاء ، فعاطل الفقر حال

وذلك لأن سعيد عقل يقص ، والقصص يتسامح فيه ، ناهيك انه
اعد ، أو يعد لنا شعراً نادراً في الأدب العربي ، وهو شعر الملاحم ،
أما انت فما تريد أن تقول ؟ حنانك بل حنانيكما . تكفينا اتقائنا
القديمة فلا نخلفا لنا جديداً ...

وعلى ذكر الجديد رأيته تحاول ادخال التضمين في « عروضنا » فانا
أقول لك ان هذا لا يلائم شعرتنا . لأن لكل وزن عندنا رنة خاصة ،
فوصله بغيره لا يلائم . فالأوزان العربية غير الأوزان الفرنجية فمحاولتك
إذن خاسرة . تأمل قولك :

ظليل تلاًل من عريها ومن أريج الشعّر المرسل
تضمخ ثغريك بالناهدين وبالثر والفاتر الخمل

أما بقية المائتين والستة وسبعين ونصف البيت ، فكلها ذات الفاظ
منتقاة تشهد لك بالعناية التي تضاهي عناية مالرب .

أما القافية فقد تخلّص الشاعر من قيودها في أكثر المواطن وحذا
في ذلك حذو شعراء الفرنجة ، وهذا لا بأس على الشاعر منه .

أما الأوزان فهو يؤثر بعضها على بعض ، وهذا لا يعنيننا ، ولكنني
أحسست ان هذا التهافت كاد يظهر شعر النيوان كأنه شيء واحد . فالفكرة
واحدة ، والالوان أيضاً والأثمار أيضاً وأيضاً ، حتى كدت أرى فيها شهاً
قوياً من دار بطيخ ابن الرومي . والغريب هو أن نرى الى جانب هذه
الثمار روحاً تمتد جذورها الى الكون الأبعد ، فحبيبة غصوب كحبيبة
سليمان يشبها بالحديقة فيقول ويمحس القول :

حديقتنا أثمرت والجنى ثقيل على الفصن الأملد

بتفاحها حلم بالشفاه وأعناها بخمور القد
وبالورد، والأمس شوقاً إلى شمم يدغدعه أو « دَدِ »
تميس الزنا بق في جانبيها ويضحك فيها الأقاح الندي
وطيب البنفسج ملء الظلام وملء الخيلة والمورد

انه لشعر عذب تجول فيه الماوية جولاتها في الفصن الاملود إبان
الربيع . وأخيراً يدعو الشاعر الحبيب دعوة سليمانة أيضاً فيقول
بلسانه :

ألا تدخل الروض نجتاه بعنف فنتغم منه وفي
رياحينه نرتمي من عياء ونكرع في خمره القرقف

أرأيت يا شاعري العزيز ، ان التضمين لا يلائم الشعر العربي ، فهذه
القافية « وفي » قد حالت دون تصور « الاجتياح بعنف » فكنت كمن
بلغ المحجة بارداً فضاعت عليه القفزة المرتجاة .

ويبالغ يوسف في وصف « رحيق الثغر » فيجمله « مثلجاً » فيخطيء في
هذه الصفة مبنى ومعنى . أفي ذلك الجسم « براد » حتى يكون ريقه
مثلجاً ؟ ومن يحتمل الريق المثلج . أما المبنى فالصواب مثلوج .

ويوسف على دين الجاحظ في استحسان لثغة الحسناء ، فبعد ان يصف
لنا حديث هذه اللثغاء المبهم يقول :

يتمم القول ما يبالي أيهم القول أم يسين
فكلما زاده غموضاً تداركت شرحة العيون

جميل ، جميل جداً ، بل أكثر من ذلك ، والله در العيون ما افصحها في
مواطن كثيرة .

وحبيبة يوسف هي مهرجان الحسن ، وما تبقى من الازهار بعد العاصفة ،
وبقية عهد الله ، أو بقية من الفردوس في عينها . يقول ذلك ليتخطى

الى تعليل لذة الحب :

هذه اللذة التي نحن منها رجعة من نعيمنا المفقود

واللعينين عملها الأكبر في قلب يوسف وفنه ، حتى يقول فيها :

ترقى لي الشعر عيناها فأرسله ضرباً من السحر لم يخطر على بشر
لقد تجاوزت الحد مرة أخرى ، فهذا القول من حق أبي عبد الله بشاره ،
وحده ، أما أنت فلا تخرج عن المعقول . نعم ان في شعرك ما يدفع الى
الفرور ولكن ليس الى حد انه لم يخطر على « قلب » بشر .

وانني ألفت نظرك الكريم الى هذين البيتين ، ص ٤٩ و ٢٣ فيها محتاجان
الى اعادة النظر :

الى فهمه . كل ما ينجلي من « التلاميخ » نشوق صدي
افاقت على فجر عجيب ونفحة سماوية من « راحتها » تضع
ويستهر شاعرنا أحياناً باعادة الضمير فيوقف ذلك حركة سير الشعر
كقوله :

ويطفو من الذعر أو حبه حياءً على وجنتي ندي
فهو من قصيدة جميلة راقصة كاسمها - قلق - يحلل الشاعر نفسية
فتاة حين يزورها الحبيب ، والضمير يعود اليه في حين اننا نظنه يعود
الى الذعر ... وكذلك لا يتأبى الفصل بين المعطوف والمعطوف عليه ،
ثم يتمدى على حقوق طه حين فيقول :

« فعبت وعبت » لاتي وأوارها يحيد ، اذا ما امعنت ، ويزيد
ويسرني أن ألفت نظر شاعرنا المتأنق الى بيت لم يحسن تهذيبه قلعله
بعيد النظر فيه عند الطبعة النهائية :

نحن تحناتنا الملح الى رباك تحناتنا لعهد بعيد
ويحن يوسف الى القرية التي نحن منها فيبكر الى « العين » ويقول

قصيدة صغيرة جميلة كأكثر قصائد القارورة ، ولكن الحبيبة التي رسمها
لنا الشاعر ، فجعلها من ورق الورد ومن طيبه ، ومن ضياء ومن ،
ومن ... لا يصدق انها تقهم حديث العين والجرة ... الا إذا كان
الشاعر يريد ان يقول هذا الشعر لنا لا لها . وبكلمة وجيزة نستطيع
أن نقول ، ان قارورة الطيب ديوان نفيس على قلته ، والشعر لا يقاس
بالكم ، وسنقابل بين غزله وغزل الشاعر أبي عبد الله بشاره الخوري ،
كما وعدنا ، ونعطي كل ذي حق حقه ، فما فاتنا قوله الآن لا يفوتنا
قوله بعد حين .

الناشر بوشبكة

١

فرغت من قراءة كتاب « الادب القارن » فانسدت الدنيا عليّ .
كدت انام على كدر لولا كتاب الف لية و لية . من اجل هذا الكتاب ،
وحده ، حشرنا المؤلف في زمرة قادة الفكر الإنساني والعاملين على
تغيير مجاري الخيال البشري . فاحرر بنا ان نقيم لصاحبه أثر « الأديب
المجهول » .

فما قول المتحمسين للطبع على غرار الجاهلية ، في كتاب ازددوه
فصار كلحجر الذي رذله البناؤون رأساً للزاوية ؟... لقد أياستنا شعرنا
من كل خير طلبناه عنده . أطبقت عليه حمى التقليد دهوراً . والتقليد
إذا اجتزىء على كتاب لغة واحدة وسلالة واحدة ، كما فعل السلف
الصالح ، يصبح ضامراً خسيماً . اعتدت العربي بشعره اعتداده بنفسه حتى
قال ابو الادب العربي : وفضيلة الشعر مقصورة على العرب ، وعلى من
تكلم بلسان العرب . أما مع « شعراء اليوم » فقد تنازلنا عن تلك
المنهجية العارمة ، وصاهرنا الأجانب ، عن غير طريق الولاء ، فكانت لنا
ذرية أدبية جديدة ليست كلها على غلط واحد كمنوعات « الفبارك » .
قد تعددت القوالب واختلفت السحن ، وتعدت الادب بدم جديد

فاتنمش بعد ثور اعصابه وتصلب شرايينه . فاستلهم الآداب الاخرى
كاستنشاق هواء جديد يكسب النشاط والمافية ، على شرط الا تلهمس
ما على موائدهم . فجديد الأدب المتشابه لا يعمر طويلا ، ولا يخلد منه
الا ما كان فيه غذاء الذرية ، ولكل ذرية مجاعة قوت .

بدأ طلابنا يحشون أن حاجات نفوسهم ليست - مثلا - عند البحاري
في وصف القصر الذي « دعر الحمام وقد ترنم فوقه » ... فايتا مروا اليوم ،
فهناك بيوت أشمخ وأرفع منه عماداً . وليست ايضاً في ذلك الغزل
المكروور الذي لا يدل الا على أنه شعر .

ومن أولى من شعراء اليوم بالنفوذ في هذا المضيق ، فلكل دولة رجال .
وهام يخرجون الشعر من دهاليزه ليتشمس وتعاوده نضارة الشباب كَيْتَقِي
دمه الماصل وتزخر فيه كريات الحياة . إن التطعيم يُرَقِّي الاجناس وينوِّعها ،
فلنطعمم وإلا فجنينتنا تظل باناً وأراكا وعضاً وبهراً وعراً ، بينا البساتين
الأخرى تحفل بمشات الأجناس . فلنفرس ! فلنطعم ! وليتهننا من شاء
بما شاء إن كان في هذه التهمة حياة أدبنا وإخراجه من كهوفه ، أمّا ملنا
علك المصطكى ..؟

لا يستحي الانكليزي والروسي والالمانى والفرنسي أن يدلنا على العناصر
الأجنبية في أدبه ، أمّا نحن فنعدّ ذلك عاراً ، كأنما الفن يهبط علينا من
السما كالمَنّ والسلوى ، أو تخرجه أرضنا كالكتابة . إننا لا نريد من اللغة
إلا المواد الأولية كالألفاظ والأصول ، أمّا الشكول فلكل عصر زي .
وهذا ما يفعله شعراء اليوم كلُّ على قدر خياله وما طبع عليه ، وقد
درسنا أحدم - يوسف غصوب - الذي عددناه بحق طليعة هذه الكوكبة ،
وهنا تتناول الياس أبو شبكة في ديوانه الجديد - الألحان - الذي نشرته
دار المكشوف .

جاء في أساطير اليونان ، أن إحدى البنات المدعوة سيرنكس فرّت من وجه الإله « بان » إلى ضفة نهر وتحولت إلى رمال قصب ، فتبتّعها ذلك الإله الفضنفر ، وقطع من ذلك القصب وصنع شتابة ذات سبع قصبات مضمومة ، فعزوا إليه جميع الأصوات الخفية .

ونحن إذا قرأنا شعر أبو شبكة في « القيثارة » و « أفاعي الفردوس » و « الألحان » وما ينظمه أخيراً للناسبات التي لا بدّ منها ، نستطيع أن نمزو إلى شاعرنا جميع الألحان من غيف ومفرح ومحزن . قد يكون أقرب شياً بقصة الفارابي التي ذكرتها غير مرّة . ولئن كان الياس في ألحانه ابن الإله « اورفه » فهو في أفاعيه ابن الإله « بان » ، واتنا نشكر لسيرنكس — أم طفل — التي فرّت من وجهه فاستفزّت شاعريته ووجهته في الطريق الخالد . إن تلك الأفعى التقيّة الطاهرة قد دبّت لنار قلبه بالحطب فصهرته شعراً عسجدياً مصفى ، ونعم الكفارة زيورك يا داود ...

نقرأ القيثارة ، باكورة الشاعر ، فتذكّر ونحن نقرأ « أفاعي الفردوس » كلمة جرير في عمر ابن أبي ربيعة . ففي أفاعيه يبلغ فنّ القمّة ، وشاعرنا المبدع قد استحال ثلاث مرات ، وهو اليوم يحبو إلى الرابعة ، فهل من « أم طفل » أخرى تبتشى الشاعر وتلقّنه من ولوج الباب المفتوح ؟ ..

إنه في الطور الأول — القيثارة — من الطيور القواطع يطمح إلى الآفاق العليا ويقتصر طرفه دونها .

وفي الطور الثاني — طور الأفاعي — طائر غريب كاسر يسمو لينقض من علر وينشب مغالبه ، أما متقاده فموقوف كالصليب المتلوي .

وفي الطور الثالث - الألمان - طائر بلدي تشجيك أنفامه وتمجب كيف
استحال من أكالة اللحوم الى حسون فصيح يعيش على القنز .

أمّا الطور الرابع فأعيزك بالله منه . أعيد شعره من هذه الدعوات قبضاعتها
بنت ساعتها ، وفيها يصحّ قول النواصي : كلام الليل يحويه النهار . اللهم لا
تمح ذنوب الياس وخطاياهم لترتفع أناشيد قوته الى أعاليك ...

في إحدى المناسبات قال الياس عني « وحيناً عقرب » . هذه قافية البيت ،
أما ما بقي فغاب عني . واني أقول لصاحبي سأحاول أن أكون أنعم من
السنجاب ، ولا أقول المرفقي جلد المهر حاجة الى الحك ، ان لم تحكّ له انت
تحكك هو بك ، كما هي حال زكي مبارك أحياناً .

فلندع « القيثارة » جانباً ففي فحيح « أفاعي الفردوس » ، رائحة
أبي شبكة ، موسيقى غريبة . فغضب الأنبياء وسخطهم النافض كالبرداء
يتطاير حمماً من براكين « أفاعي الفردوس » . وكيف لا يكون هذا
وشاعره من قراء التوراة المدمنين ، يراها منبعاً للإلهام ، وإنها لكذلك ،
لما فيها من القصص الدسمة ... فهي أخصب اللبن وأمرعها للشعراء الشباب
وغيرهم . هناك دمن خضراء لا ينقضي ربيعها ، اعتدال طقس ، وحرارة
ملايعة ، أخرجت هذه الخيرات ، انها كالوطن الذي كتبت فيه تدرّ
لبناً وعسلًا ...

أخذ الشاعر منها موضوعين بعثها من جديد ، وأحييها بما عنده من
عاطفة جشعة ونفس متقدّدة ، فلا بدع إن قلنا ان أفاعي فردوسه عريقة
الحسب والنسب تستأهل انجيل سلسلة لتتصل بأمناء حواء التي أورتتنا الخطيئة
الأصلية ... ولولا عماد السيد في الاردن من يد ابن خالته ، ثم موته على الصليب
لما كان لنا العلاج الشافي من دانتا الويل ، ولظل أبونا آدم والابرار من
نسله في ظلمة اليمبوس الى الآن ...

ألا ترى « أفاعي الفردوس » عنواناً طريفاً ؟ اننا نستهل اسمها ولكننا لا نستطيع الحياة بدونها ، بل نستلذ لدغها ويطيّب لنا جرحها . انها مائدة مأكولة منعمومة .

إذا ما أشرفت على دنيا « أفاعي الفردوس » جثم عليك جوّ سادوم وعامورة بكل ما فيه من زفت وكبريت وبجر ميت وأعمدة ملح .
يريك شاعره الحاوي الجبار أفاعي بشرية فتصك وجهك وتسدّ منخريك إذا واجهتك .

ورغماً عن هذا الجو الخائق فأنت تحسّ انك تقرأ شاعراً ملهماً ، شاعراً له ذاته ، وله نفسه ، وله شخصيته ، ولشعره طابع أصيل ، فيه الصور الراحبة ، على ما في خلق الصور الجديدة من صعوبة .

لا تجزع ان أقل لك هذا ، فالوردة تعيش جذورها حيث تعلم ، وتعطيك أثماراً ينعم بها انقلك ويزدان صدرك . والتفاحة كذلك ، والشعر شيء كهذا !
والياس في « أفاعي الفردوس » من الشراء الملعونين ، وأقوى حواسه اللس والبصر . لست ارى عليه حرجاً في هذا الجوّ السادومي ، فهو شاعر يحمي الماضي ليؤدب الحاضر . وما زال لا يختلف في المفزى عن المفسرين وعلماء اللاهوت فأبي ضير عليه ؟ انه في أفاعيه شاعر الرذائل ، كما قال فرانس في بودلير . وأفاعيه كالحيات كلها ، حسن ملمسها وفي انبائها المطب . وبضد الحيات كلها لأن سمّتها تريق الحياة ، ولا بدّ لها منه ...

والأفعى الاولى هي دليّة ، صاحبة شمشون ، وبها يصدر الشاعر ديوانه . إن قصّة شمشون طريفة كأكثر قصص التوراة . بشر به أمه العاقر ملاك الرب ، ثم ظهر لها ، ولم يدعها قبل أن ترك لها وصفة للأكل خوفاً على الجبار في البطن . حرّم عليها الخمر والمسكر وأكل الشيء النجس لان ابنها العتيد مختص — غفواً ، مختص صغير — إنه نذير الله في البطن فلا يعلو موسى رأسه وهو يختص إسرائيل من

الفلسطينيين .

أحبّ شمشون امرأة من بنات الفلسطينيين ، وفي طريقه اليها لقيه شبل أسد فحلّ عليه روح الرب فشقّه كالجلدي ، وبعودته من عند الحبيبة اشتار عسلاً من جوفه فأكل وأطعم أباه وامه ، ثم تركه تلك المرأة فغضب على قومها وأحرق بيادرهم وزروعهم وكروم زيتونهم . أمسك ثلاثمائة ابن آوى وجعلها ذنباً إلى ذنب ، ووضع مشعلين بين كل ذنين في الوسط ثم أضرم المشاعل ناراً .
أرأيت ما أصعب العمل ؟ ولكنه شمشون الجبار ...

وتهدّد الفلسطينيون قومه فسلموهم شمشون مربوطاً بجملين جديدين فقطعها كخيوط القطن ، وهجم فقتل بفكّ حمار ألف رجل منهم . وعطش شمشون ، قاضي إسرائيل ، ففجّر له الرب ينبوعاً . ثم نزل إلى غزة ورأى هناك امرأة زانية فدخل اليها ، فكان له اعداؤه عند باب المدينة ، فقام في منتصف الليل ، واخذ مصراعي باب المدينة والعارضة ، وصعد بها إلى رأس الجبل .

واخيراً أحبّ امرأة في وادي سوري اسمها دليلة ، فصعد اليها اقطاب الفلسطينين بعد ما اعيام امره ، وقالوا لها : تملّقيه وانظري بماذا تكون قوّته العظيمة فنعطيك كل واحد ألفاً ومئة شاقل فضّة .

وعرفت دليلة ان قوّة شمشون في شعر رأسه ، فأنامته على ركبتيها ودعت رجلاً وحلقت سبع خصال من شعره ، ففارقته قوّته ، فأخذها الفلسطينيون وقلموا عينيه . واخيراً جاؤوا به في يوم عيد ليلعب لهم ، فقبض على عمودي البيت فسقط عليه وعليهم ، ومن هنا جاءت الكلمة المأثورة : عليّ وعليّ اعدائي يا رب ...

مدار قصيدة شمشون على غدر دليلة به ، فشاعرنا أبو شبكة مهتاج للجبار القديم . ولا شك ان في حياة شاعرنا دليلة غدرت به فأغضبته حتى اسممنا

هذا الشعر الخالد وسمى ديوانه أفاعي الفردوس. وما أفاعي الفردوس غيرهن...
ان كيدهن لعظيم .

يلتقي الشاعر العربي والشاعر الفرنسي دي فيني في التوراة عند دليّة ،
ثم يفترقان . اجتماعاً كما تجتمع الأشجار المثمرة في البستان ، فلكل منها
شاعريته وخواصه : وان وحدهما الغضب على دليّة فقد تكون حالتها
واحدة ومصيبتها واحدة ...

الفريد دي فيني من الشعراء الذين استوحوا التوراة كأكثر شعراء الفرنج ،
ولكن له لوناً خاصاً ، كما ان لشاعرنا أبو شبكة لونه الخاص ، ولكل أديب
أصيل ذات قبل كل شيء ، والشاعر الشاعر يخلق عالماً من العواطف والتأثيرات ،
والقضايا ، والمفردات ، والانشاء الشخصي ، وهذا ما نراه عند الياس في
« أفاعي الفردوس » ، فهو شعره المختص به دون سواه .

وإن سألتني فضولي : ولماذا هذا اللون الأحمر القاني ؟ أجبت : هذا لا يعنيني ،
ولا يعنيك . للفنان ملء الحرية في اختيار ألوانه وتنسيقها .

الفن التصويري ، وهو ابن عم الشعر ، هرب اليوم من رسم التاريخ
والأساطير . والياس لا يصور دليّة الامس بل دليّة اليوم — دليّته هو —
وكأنني به قد اخفق في إحدى معارك حبه الفاصلة ، فامترأبت بعدها عاطفته
المكبوتة تهدر وتعج كغفارة افقا .

الضغط يحدث الزحم ، وهذا ما تمتاز به قصائد أفاعي الفردوس من شعرنا
المعاصر كله . فهذا الغضب الاسود من البقع الحمراء سيكون له شأن في الغد ...
وكان الاقوى قد اضلته بكمراها فسلط عليها صواقعه هذه . وان حدث الله على
شيء فعلى ان مطاف صديقنا لم ينته به إلى احد ديورة كسروان حيث يقضي
على عبقريته بين صلاة المساء والستار .

إن من قرأ التوراة مثلي ، من الجلد الى الجلد ، يعيش في جو « أفاعي

الفردوس» ولا يشكو بأمًا . ليت شاعرنا عرض لقصصها الأخرى ،
وأرانا صوراً كثيرة من صور الحياة ، فالتوراة مجموعة قصص رائعة لها
كل يوم ممثلون عبقريون ...

ان عنوان « افاعي الفردوس » يذكرنا شارل بودلير في « زهور الشر » ،
ولا ينقص شاعرنا إلا طلبة الشيطان . أما « الجيفة » وهي أشهر قصائد بودلير
فتقابلها « قاذورة » أبو شبكة وهي مجموعات جيف . في « القاذورة »
يكتمل الفن لشاعرنا ، وهي على غير طراز قصيدة شمشون التي نعود إليها ،
فهو يخلق لنا فيها محيطاً غنياً من طراز بيئات « لأمته » خيالاً ، وتعبيراً
هداراً ، ورهبة يقشعر لها الجلد . واليك مثلاً منها :

فألفيت دنيا من فواجعها الورى	على بابها لوح من الرق اسود
قرأت عليه أحرفاً خطها اللظى	بروعك منها اثنان «سجن مؤبد»
قطوفت في غمر من الليل والحنا	يعريد والارجاس ترغي وتزيد
واللحم الغالي نشيش ورغوة	كان الورى مستنقع يتنهد
وأغمدت في صلب الدجنة ناظري	وفي كل جفن لي من الهدب مبرد
فأبصرت أطباقاً تمعدها يد	أصابع من عظم وتصبنها يد
صباغ يفور الحزري منه ملاصقاً	إذا علقت فيه النواظر تجمد
وشاهدت في الاطباق مفدة الورى	تور بها الديدان سكرى تعريد
مقادر تمشي في الحياة طروبة	تغني وأصداء القبور تردد
ثم الناس في الدنيا تهاويل حنطت	بكيت عليهم في جحيمي وعيدوا
وما هذه الدنيا يذرى رمادها	لريح الفنا الا جحيم مرمد

أسمعت هذه الموسيقى الغريبة ؟ أدركت هذا القران المبارك بين الالفاظ ؟
وهذه الصور الرهيبة ألا تمثل جهنم على الارض :

واللحم الغالي نشيش ورغوة كان الورى مستنقع يتنهد

فالورى مستنقع يتهدد ، والديدان سكري تعربد ، والدنيا جحيم مرمد ،
لولا بقية مشبوبة في شهوة الطين - الانسان . فهذه الصور والتعابير
والكتابات التي خلقها الشاعر هي ابعاد ما يطمح اليه الفنان . فلا يلائم
محيطه المختار الا هذه الالفاظ المنتقاة ، التي تملأ الفم فلا يتملص منها الا يجهد
وعناء . فهي في مكانها مع اخوتها على حد قول المثل العربي : وافق شئ طبقة .
وهذا هو العمل الفني .

وفقى الشاعر في « اخراج » قصيدته هذه فجاءت كأنها القصة ، لها
ما لها تيك من حدود ومعالم ، فهو في « القاذورة » شاعر وفنان معاً .

وما هذه القاذورة ؟ انها محيط عبقرى خلقه الشاعر خصيصاً ليضع فيه
ثلاث طبقات من الخلق : النساء ، واشباه النساء في الكيد والمكر ، ثم
الشعراء . وفي ختامها يفضب الشاعر لعبقري المسوخ ويصرخ صرخة المسيح
حين همز " السوط في الهيكل ، ويقول مثله :

وشاهدت اشباح السماء كئيبة عليك باسواط الارجيف تطرد
فقيم أزغت النفس عن نهج قدسها فصارت مغاراً سافلاً وهي معبد

كنت ارجو لهذه القصيدة الجنينة ختاماً ارووع وازخم ولكن « سافلاً »
ضعفته .

٣

قال الحريري : عدت الى اصحابي عود الرائد الذي لا يكذب امله ،
ولا يبرقش قوله . إذن فلنصدق ولا نبال ، فالناقد رائد ، امله الذرية .
انا راجعون الى ام الديوان قصيدة شعثون ، فهي اكبر افاعي الفردوس

واعظمهن خطراً . افعى طرشاء لا تسمع صوت الحايوي ، ولكننا سنعالجها
ببعض ما اوتينا من رقى . اذا قابلنا بين شمشون ابو شبكة وشمشون
دي فيني رأينا قصيدة دي فيني تهج نهج القصة وسمتها ، بينا شاعرنا
العربي لا يخرج في شمشونه عن نمطنا . تفيض عاطفته وتطفى فتجتاح
سدود الفن .

والشاعر حر في عمله فهو لا يكتب قصة جبار اسرائيل ، بل يتوسل
بصرعه الفذ ليصب قِدر سخطه على رأس « دليته » التي تحطمت كبرياؤه
امام جحرها :

ملقيه بحسك المأجور وادفعيه للانتقام الكبير
ان في الحسن يا دليته افعى كم سمعنا فحيحها في سرير

المطلع رائع ، والقصيدة كلها بركان متقد يقذف الحم فلا يجرو على
الدنو منه الا المغامر . أنشأتجهت في مقاطعها تترامى امامك قوافيها
كانها الصخور تقذف من منجنيق . فعاطفة الشاعر تقح كالافاعي في
الرمضاء ، وبالعاطفة يحيا كلام الفنان وتتحرك شخوصه ، انها لمحة
الادب الحي .

لست انتقل لك منها شيئاً سوى البيتين السابقين ، فالقصيدة محكمة
الحبك لا يسوغ تفكيكها . ولو قال الشاعر « راوديه » بدلاً من « ملقيه »
امن العثار ولم تصطدم سفينته بصخرة القاموس ، وكذلك « الشفاء » فهي
لا تصلح سداداً لهذا الموضع ...

وفي « الافعى » تتكشف لنا الأجنة عن حنش ، والعياذ بالله . افعى
دونها حية ابن عوانة ، وعلى باب جحرها تيس ذو قرنين ، كأنه صاحب
امرئ القيس يفظ غطيظ البكر شد خناقه ...

في هذه القصيدة انفجارات يسمع دوحها من بعيد جداً ، ويرى الاشتعال

الذي تحدثه من اميال عديدة ...

في هذه القصيدة التواءات وتثنيات كانسلال الافاعي ، وانتقالات
فجائية من نوع حمل الكلام على خلاف مقتضى الظاهر ، او الالتفات .
ولا عجب إن طابق الاسم المسمى فهي اقصى :

اجل سيراك الليل بعدُ تضمها ويبصرك المصباح تعصرها عصرا
وسوف ترى فيك المآثم نعبه قد التصقت في بطنها حية سمرا

مدهشة هذه الحية السمرا ... وانا ، على تسامحي في الفن تسامحا لو حلم
بعضه ابو نواس من عفو ربه لغاز بالجنة ، كنت اؤثر الا تكون هذه
القصيدة في الديوان ، فما فيها الا تصوير انتقام مرّ مخز . ولكنها في كل
حال إحدى صور الحياة الصادقة . وشاعرنا يرى في الاعتراف منجاة ،
فاستراح حتى من خطيئة الفكر ، وهو يقول في مكان غير هذا :

فرحت أسأل نفسي الدفاع عن كفراني
فلم اجد من يحامي عني سوى بهتاني

ابا في قصيدة « في هيكल الشهوات » فتهدأ ثورة الشاعر التي لم اشهد
مثلا في تاريخ ادبنا ، ويدهشني قوله بعدما أقام الدنيا واقعدها :

لي مهجة كدموع الفجر صافية نقاوتي والتقى أم لها واب
فكيف اختلس الحق الذي اختلسوا وكيف اذأب عن لؤم كما ذنبوا

سنحاول ان نصدقه ولكنها ثخينة لا تلبع . ان الاعتراف يحو ذنوبا
كثيرة وكبيرة . وما احلى قوله فيما بعد لهذه الافعى الراصدة في شق
الحائط للفرايج والزغاليل البريئة :

صبّي الحور فهذا العصر عصر طلى اما السكارى فهم ابناؤه النجب
لا تقنطري ان رأيت الكأس فارغة يوما ففي كل عام ينضج العنب

لست اشك ابداً ان هذا البيت الاخير من الابيات الخالدة ،

ولو عاد النابغة الى قبة عكاظ لقال لصاحبه : انت اشعر العرب يا ابن اخي في هذا البيت ...

ليت الشاعر قطم قصيدته هنا ، بل يا ليته استقنى عن قواه :
قد اشرب الخمر لكن لا أدنسها وأقرب الائم لكن لست ارتكب
متى وجد النص بطل التأويل والاجتهاد يا الياس ... ولعل الخمر
المغنية فارضية ، فالصوفيون أصناف ، وشاعرنا من الصوفيين الخمر ... اما
قوله : واقرب الائم لكن لست ارتكب ، فيشبه قول عمر ابن ابي ربيعة
لأخيه حين جزع عليه من النار التي وقودها الناس . عمر الله شاعرنا
ليخرج لنا من افاعيه ما يبرز حية موسى .

ان ابو شبكة من سلالة امرئ القيس وعمر ، وعلى يد هؤلاء ثلاثتهم
تمت عندنا فصول الرواية الدائمة . وأظن الياس لم يبق في قرارة الكأس
شيئاً ، وان لم يحطمها على شفتيه كصديقه بشاره الحوري ...

ليس لالياس ابتهاج امرئ القيس وعمر ولا قصصهما ، فأفاعيه أشبه
بجمل انباء المساء منها بوصف المارك الفصل . ولئن كان يفوح عبير
المسك وريثاً القرنفل من جو الشاعرين الاولين فجاء الياس تقفح منه
رائحة البهار والفلفل . وصاحبنا ليس كالشاعرين القديمين في وطره
عندهن ، ولكنه مغلوب يستعدي على صاحبه الدهر ليقصص له منها .

وفي سبيل هذا الانتقام يضحي بالكثير من ذاته ليستعجل هرم تلك
اللينة قبل أوانه ، ويرى تلك الافعى عجوزاً درداء أكل الدهر حديقتها
السلامية المسيجة بالسوسن ... وهذا ما يقوله في الشهوة الحمراء :

هاتي من المهر أشكلاً ملونة نهر بها بعضنا بعضاً ونهضم
ألا يذكرنا هذا بأخبار النحلة التي تؤدي مهمتها وتموت ؟ ثم يقول :
سترجمين ولكن مثل آمالي جوفاء مشلولة في جسمك البالي

ذكر التي اختصرت عمري بشهوتها وخلدت عمرها الدامي لاجيال
وقبل ان نبرح هذا الهيكل الدامي نقول : ليت له لم يقول « أم طفل »
ما قولها إياه لذاك البريء ، فتحت « في كل عام ينضج الغنب » ما يكفي
ذلك الحزين ...

ان عند شاعرنا كثيراً من هذه الفجوات التي تحفرها صواعق الفن
وتقيمها وادياً عميقاً بين الصورة والفكرة ، بين الكلمة والمعنى ليحلّ فيها
الانفعال الشعري . والذي لا يستطيع القفز فوق هذه الاودية السحيقة
لا يخلق شيئاً من الفن .

اللهم شدد ظهور شعرائنا وركبهم !

اما « سدوم » فهي اخت شمشون قوة ورعباً وفجيحاً :

سكرت بك الدنيا سدوم فكلها زمر على طرق الحياة متنعمة
وأثرت حنجرة الفجور فاطلقت حملاً على نغم الجحيم موقعه
أسدوم هذا العصر لن تتحجبي فبوجه امك ما برحت مقنعه
قدقتك صحراء الزنى بحضارة ثكلى مشوهة الوجوه مفعجه
بؤر مسترة الفساد بخدعة نكراء بالجز الشهي مرقعه

ثم ينثني الشاعر على نفسه ليشركها في هذا السمر الراقص فيهتف :

أسيلة الفحشاء تارك في دمي فتضرمي ما شئت ان تضرمي
انا لست اخشى من جهنم جذوة ما دام جسمي يا سدوم جهنمي

طوفت بي ميتاً بأروقة اللظى فحملت قابوتي وسرت بمأتمتي
وعصبت بالشفق المحمر جبهتي فرقمها في عصري المتهمك
مهلاً كلانا يا سدوم مسلح فلظاك في جسمي وثأري في فمي

وهذا سلاح الشاعر . والياس من جسمه ، كأم الجاحظ منه في جهد
جهد . ومن مزايا سدوم هذا الانسجام الرائق والتسلسل المتدفق ، والتقطيع
الموسيقي ، فكأنك تسمع سماعاً موسيقياً يتصاعد بك رويداً رويداً حتى تبلغ
القمة - القافية .

ان ديوان افاعي الفردوس وصف نفس في جميع أطوار الشباب ،
ووحده الشاملة في وصف اضطرابات تلك النفس الجائشة حيناً فحيناً .
فكأنه ينفس بهذا الشعر عن تلك النار المحتدمة في صدره فلا ينشق مرجه .
ومن الغبن الا ينظر إلى هذا الديوان كفكرة ينثرها الألم لينظمها الشاعر .
ان فيها عصارة قلب شاعر مفجوع . وعلى شاعرنا الامين ان يصرخ كابن
الرومي :

أفجع بالشباب ولا أعزى لقد غفل المعزى عن مصابي !

وكأنني أرى امامي على كل صفحة من صفحات ديوانه نقطة دم تذا .
ليست قصائد « افاعي الفردوس » مجموعة قصائد وانما هي قصيدة واحدة .
قصائد ، تمثل شقاء الشباب في حبه المبكر . وقد اعترف شاعرنا اعترافاً
كاملاً عاماً وعلى مسمع من الناس . أرى الناس جميعاً ذنوبه وخطاياهم ،
واعترف كما كان يعترف المسيحيون الاولون للاخوة جميعاً ، وكما اراد ان
يعترف فولتير ولم يسمع اعترافه ... غفر الله ذنوبه - ان كان هناك ذنب
غير الفن .

قد يرى غيري في افاعي الفردوس سمّاً زعافاً ، ولكنه اذا كان من
المؤمنين حقاً فانه يشرب السم الناقع ولا يؤذيه . والسموم في احوال

شئى تكون علاجاً مقويًا . وهذا شاعرنا يخالجه شيء من هذا فيخاطب
« الطُرح » :

قَلَمٌ جُثَّ في سحنة المسوخ حطَّمت حطاً فما على احدائي ؟
أَلَأني بذلت حيي ولم اطعمك منه سوى القنات الباقي ؟

رحم الله داود ... اذا الشاعر مرتاب ، يشك اذا كان ما حدث عقاباً
لتبذيره ، ومتى كان الشك هناك الضمير الحي الذي لا يموت :

ان في قلبي البغيّ خيالاً من عفاف ما فاجرته البغايا

عمد الشاعر إلى تمثيل شرور الحياة بأقبح أشكالها ، وساعده خياله
الجامح فخلق ما خلق . كان شاعر الرؤى والليل ، شاعر الرعب ، المتأثر
برؤيا يوحنا ، وأنبياء التوراة . صوّر شاعر الافاعي نزواته الظاهرة ولم
يتعمق في تصوير الخلجات الباطنية لانه حفل بالنتيجة وترك المقدمات ،
وكثيراً ما يستغني عنها الشاعر .

صوّر النفس الانسانية في مبادئها ، وقد وجهته الأقدار في هذه الى
الطريق فكان ديوانه — كما قلنا — اعترافاً عاماً استحق لاجله الغفران
الكامل ، لأنه أتمّ العقوبة التي فرضها على نفسه بإخراج « الالحان » ديوانه
الجديد ، تلك النغمات الشجية كاجراس الغروب ، النقية كندى الصباح .

ان شعر « افاعي الفردوس » يظل حياً بصورة المرقشة الرابعة والوانه
الغريبة وشدة الجهنمية . ان شيطان صاحبنا كبير ، وكان الشيخ لوسيفوروس
وجه اليه بأنشط رجاله وأنبهم ... وان نقص هذا الشعر بعض اللعان أحياناً
فهو يتميز من غيره بلون خاص وبصيغة يتفرد بها من أصباغنا كلها ، وحسبه هذا .
حسبه ان له فناً قائماً برأسه ، لا شريك له فيه ، فيستقى كما شقي في حب « ام
طفل » جزاها الله ما تناء جرير لام عمرو ..

وبعد فليست حكايات الياس في « افاعيه » أشد خطراً من حكايات

اورياما . وأين قوة النواصي من قوة شاعرنا ؟ ان قوة ابو شبكة أشبه بتوبة ملائكة البعثة :

رباه عفوكم اني كافر جاني جوعت نفسي وأشبعتم الهوى الفاني
تبعتم في الناس أهواء محرمة وقلت للناس قولاً عنه تنهاني
ولم ألق من جنون القلب في سبلي الا وقد عت الاهواء ايماني
رباه عفوكم اني كافر جاني

ما هذا شعراً ، هذه صلاة . ماذا قلت ؟ اني لاستغفر الشعر ، فما الشعر الحقيقي الا صلاة . ثارت نفس الشاعر على امرأة هشمته ولكن جراحه استعالت شعراً حياً . فاقتدى الفن بدم قلبه الكريم ، واعتقه من عبودية الكلام ، وعبودية النفاق وعبودية التقليد .

وكم ولد الايمان من الكفر ، فهذا الشاعر يهب بابليس صديق الشعراء :

حول خيالك عني	ولا تخيم عليا
فليس أهلك مني	ولا اللظى من يديا
لم أغش في النفس مأثم	ولم ائدم رجالك
ابليس . ليست جهنم	داري ، فحول خيالك

ألسن ترى شاعرنا لاهوتياً جديداً يعتبر النفس غير مسؤولة عن خطايا الجسد ؟ فلينعم بالآ فافه غفور وهو القائل : ان كانت خطاياكم كالقرمز فإنا ايضها كالثلج . ابشري يا الياس فما ضحيت من محر النعم سيكون قرباناً ومحرقة تصعد في لهيبها إلى السماء كالملك الذي بشر بصاحبك شمشون ... بريك قل لي : أين انت في احمرارك من المجدلية الارجوانية ؟ ..

ويعد ، فهل لصاحب « أفاعي الفردوس » من فلسفة ؟ أيرمي يا ترى إلى تطهير الجسد بالنفوب ليضعف وتقوى النفس ؟

للاستاذ في دهرانه منهج يسير عليه ، ولكن المصاييح النصوية في دهايزه

حراء كلها ... انه لاهوتي في الدينونة ، وصوفي احمر في معظم قصائده ،
ونواسي في توبته ، وفيلسوف في صلاته الحمراء :

فخّارة جبلت بالدمع والطين من عهد قايين او من قبل قايين
ما كان اسكندر فيها سوى شبح يحجب الشمس عن عيني دوجين
الى ان يقول :

الناس واحسرتاه اثنان مختلفان
أعنى له مقتلان في العقل مبصران
ومبصر اظلمته عينان لا تريان

وفي حارة القنوط يصرخ الشاعر بربه :

ادعوك والظلمة الحمراء تحرقني فلا تجيب وتلوي لا تتجيني
ويلاه كل شيء احمر ، حتى الظلمة ... ترك شاعرنا الرياء ووقف عارياً امام
عين الشمس : فما وارى ولا وارب .

انه شاعر يريد ان يقول شيئاً غير الالفاظ ، فهو لا يخلق لك جواً شعرياً
ويتركك تتخبط فيه وحدك . انه لا يحجم عن استعمال المعلقة ... اثبت لي
ديوانه ان ديواناً صغيراً يستطيع تصوير نفس كاملة فلا حاجة الى آلاف البيوت
ومئات القصائد ، اذا صدق الشاعر .

ان صاحب « افاعي الفردوس » اصدق شعراء اليوم على الاطلاق ، وقد
يكون اصدق من اعترف ، من اغوستينوس حتى جان جاك . واذا كان كل ما
نبدي ونصيد مبنياً على الفريزة الجنسية فأبو شبكة في افاعيه شاعرنا المنشود .
وليت فرويد يحيا ويتعلم العربية ، ففي صرخات شاعرنا مرعى خصب لعله
الذي يشغل الناس اليوم .

شغلت العلاقة الجنسية بال شاعرنا فوصف نتائجها ولم يعبا بغير ذلك فكان
في بحشه النفسي ساوكياً . هو في هذا الدوان مهاجم غنيف لا متفزل مستعطر ،

يفلب عنده النوق الحسي على النوق المنوي . وهو في كل حال لم ينس شيئاً ولم يخف شيئاً .

لا اشايح الياس في رأيه بالمرأة ، فهذه المسكينة ذهبت ضحية الاساطير التي خلقها الذكور ، فرافقتها اللعنة طول العمر . ليس من العدل ان تشرب من البشر ونرمي فيها حجراً ...

وأخيراً نقول ان شعر « افاعي الفردوس » منخل محكك وصاحبه مفيظ محقق ككل من ابتلي بحب حاد قواكبه الفيرة كما تواكب المدرعات بواخر الشحن ...

واني لآخرج من هذا الدرس متيقناً ان لنا مدرسة شعرية جديدة ليس لها من اللغة الا المادة الخام تفصلها على فوقها وهواها . اما تأثرها بأداب الامم والشعوب فلا شك فيه بل هذا ما يجب ان يكون لتدب الحياة في ادبنا ، ونخلص من معرض المومياءات التي تتقزز منها النفوس .

وقصارى الكلام ان صاحب « افاعي الفردوس » شاعر رصين ، قوي الخيال ، حاد العواطف ، جامع الارادة ، احدث في الادب العربي اثرأ جديداً سيعمر مثل متوشالح .

واخيراً ما لهذه الكلمة تتقدم ونردها ؟ ما لنا لا نمنحها الحياة ؟ فلنقلها : ان الياس أبو شبكة ليس بالشاعر المتمطي المهروق ...

الياس أبو شبكة شاعر إلى الأبد

وجه اميل إلى الطول منه إلى الاستدارة ، يزينه أنف ذو شان نبيه ،
وان لم يبلغ شاو أنف ابن حرب. وعينان لا تستقران كأنها محاجر مسك ركبت
فوق زئبق . أما أديم ذاك الوجه فتراي اللون ، نحاسي او كما قال ابو
تمام في وصف عامورية المحروقة .

ضوء من النار والظلماء عاكفة وظلمة من دخان في ضحى شعب
شحوب وأي شحوب ! . ولماذا لا ، ما دامت الحرب قائمة على قدم وساق
في ذلك الجسد النحيل الذي كان ضحية العين والقلب ... معركة دائمة بين
الكريات البيض والحمر كان محرقها ذلك الهيكل الذي غرقه الناس باسم الياس
ابو شبكة .

يحثم رأسه البين بين ، فوق كتفين كأنها ميزان معلق في الهواء ، فالكفتان
دائماً تترجرجان ، وقلبا رأينا القلب على العاتق ... اما الجبهة فمجمدة ،
ولكنها تتأطح الجو ، فالشمم في ذاك المرنين ما فارق صاحبه حتى على
فراش الموت .

اذا رأيته يمشي وشعره كالصوف المنفوش ، يهرول موقعا خطاه على نقرات

عصاه ، او يسير الهويناء عارضاً عصاه السوداء ، مطلقاً نظره بأذيال السحب
كأنه يومي إليها لتنزل إليه ، حسبته عرفاً بهم مع الارواح في الأبراج العليا
لا شاعراً يعيش في برجه العاجي .

كان إذا قال لك : حياك الله وبياك ، وتلك كانت تحيته التقليدية ، تخال
انك قادم على شرت . حتى إذا ما قعد واستراح ، اخذت غيمة السوداء تنقش
رويداً رويداً ، ثم يكون الصحو التام .

كان مرهف الحس قد تقضبه كلمة لا تحسب أنت لها حساباً . أما إذا
انتقدت شعره ، او فاضلت بين نثره وشعره فأنت عدو لدود ، ولا صلح حتى
تقوم طاقة صالح ...

خلق شاعرنا العظيم ناريّ الشعور لا يحتاج إلى أكثر من عود ثقاب
ليشتعل ويطير شعاعاً . فهو أرق من النسم متى راق ، وأجن من الأعصار
متى ضاق .

التقينا ، قبل ظهور الداء فيه ، في دار المكشوف فقلت له : استعد
لرأائي ، وامح من قلبك ذنوب النقد فالموت غفّار . فأجاب : أنا مستمجل .
ارث أنت وكن منصفاً .

كان يقول لي ، كلما اجتمعنا ، انه أعد رسالة جواباً على نقدي ديوانه
« افاعي الفردوس » وكنت كلما رأيته اطلبه بها وأسأل أين هي ، فيعبس ولا
يضحك كهنه عمر حين يقول : بعد غد ... ثم مضى لسبيله وما جاء ذاك
الغد ... فكأننا مشتاق إلى معرفة ما فيها .

ومرض الصديق العزيز فعدته مرتين ، وقد علقت بذهني صورة ذلك
السكاهن الذي دخل ليصليّ له ، وأنا عنده ، فاذا بشاعرنا ينسى أنه مريض
فيقعد في فراشه بخفة عجيبة ، و « يصلّب » برشاقة كأنها لمع اليدين الذي
تراهي لأمريء القيس ... فخلت انني أزور الشاعر الفرنسي فرلين قبل

الاحتضار .

عاش الياس للحب والشعر ، ولست أدري من الذي أفضل منهما على الآخر ،
أحب الياس الذي أحيا شعره ، أم شعر الياس الذي خلّد حبه ؟

كان الياس يعزف على أوتار عبيدة ، فهو في « القيثارة » و « الالحان »
غيره في « أفاعي الفردوس » و « غلواء » ، وهو غير هذين في « نداء القلب »
و « إلى الأبد » . كان شاعراً هائجاً كالنمر في الأفاعي وغلواء ، وحسبك منه
هذا البيت :

تراب القبر أنعم من فراش على جنبيه ثعبان وحوث

ثم صار كالبحر الساجي في « الألمان » و « نداء القلب » ، وأخيراً
استحال حباً خالصاً في « إلى الأبد » . إن شعر أبو شبكة كله مستمدّ من
شؤون حياته وشجونها . إنه هو نفسه موضوع شعره ، فما خرج قطّ من حيز
ذاته . وصف أفراده ، وما أقلّتها ، ووصف آلامه ، وما أكثرها . إن حبه
الحبّ بالك . وإذا كان لكلّ شاعر قطب تدور عليه رجاء ، فمحور شعر الياس
الحبّ . هو الشاعر الرومنطيقي الصرف . متأثر بالتوراة مستغلّ لها
كالرومنطقيين العالمين ، وكَم في التوراة من مرعى سمّت عليه الرومنطيقية .
وكما تدلّل بعض الشعراء على ربّهم كذلك فعل الياس في بعض شعره ، وأخيراً
مات وملء قلبه رجاء وإيمان .

ترك شاعرنا الياس أثراً بعيداً في نفوس الشباب ، فقال الأديب الذي رحل
منذ أسابيع - الأستاذ فؤاد سليمان - حين ظهر ديوان أفاعي الفردوس :
الياس أبو شبكة يسوق الشعراء بسوط من نار !

أحدث موت الشاعر اللبناني فراغاً كبيراً في دنيا الأدب فقام صديقه الوفي
الشيخ فؤاد حبّيش بطبع كتاب عنوانه : « الياس أبو شبكة » ، فكتبه معظم
الأدباء البارزين معتبرين عن آرائهم في الشاعر الراحل ، فكان الياس في نظرهم

جميعاً شاعراً كبيراً مهر الشعر المعاصر بطابع خاص. ولم يكنف الشيخ الحبيشي بهذا ، بل نشر في آخر الكتاب تنقفاً من مذكرات ورسائل تلقي نوراً على زوايا حياة الشاعر فتثير الطريق أمام الداخلين إلى دهاليز شعره .

شعر الياس أبو شبكة وليد حالات نفسانية . كان ذا نفس متقدمة وشعور حاد ، فعبّر عن آلام لا حد لها ولا طرف . ينتقل من ليلة قيسية إلى ليلة نابغية ، والصبح منه بعيد . متأثر بشعراء الفرنجة ، ولكته ما مدّ يده إلى حوائجهم وإن اشبههم في حبههم الصاحب . يعرف ميسه وبودلير ، ويستلهمها ولكته لا يشتهي مقتني غيره فيقطع منه ما استطاع . ينحو نحو الفرد ده فيني في استيحاء التوراة ، ولكته لم ينظم الموضوع عينه . لم يذكر سدوم ، ولا دليّة وشمشون إلا لفرض في نفسه . فهو لم يعرض كغيره لبنت يفتاح ليقول في موضوع ما ، بل لأن له هناك مارباً .

في خلقه آباء حتى العنجهية ، يريك نفرات هي بنت عم الجنون كلاله ، في أحشائه آلام متقدمة ، آلام من الحب ، آلام من أعباء الحياة ، حبّ مجنون يشمخر كوقيد البلاء ، يتعالى حتى يدرك السقف ثم يهبط رويداً رويداً .

أرأيت إلى القدر الفائرة وقد بلغت الجمام ؟ فنقطة ماء تردّها الى مستقرّها قبل الفوران . هيجان ، فوران ، غليان ، هذا هو الياس الشاعر .

شاعر رومنتيقي من الطراز الذي حدّده لانسون : غضب في الهوى ، وغرابة وقحة في الألوان المحلّة .

محموم يتذكر في دور حمّى الحبّ الجديد جميع ما مرّ به من نكبات القلب . هوى عاصف يكبّ على الأدقان دوح الكنهيل ، ولا يترك من تياء جذع نخلة .

لم يكن يعنيه ما يعمله غيره ، يريد أن يبني بيته على هواه ، وهو معجب به ويريد أن يعجب به الناس . يحبّ المراك الأدي ويشدّ شدات لا بأس بها

ولكنه لا يثبت ، يكرّر ويفرّ .

قرزم في القيثارة ، واشتد في أفاعي الفردوس ، ومشى الهيدبي في غلواء ، ورق في الألحان ، وأرسل السراج لهبة الانطفاء في « إلى الأبد » .

الشعر عنده لغة القلب ، وخيره ما كتب بالدم . سوداوي المزاج ، لا ينظم إلا مهتاجاً فيؤثر شعره في قارئه . فموضوع شعره — من أوله إلى آخره — الياس أبو شبكة . هذا ما ظهر لي إلا إذا كان الياس نهماً لا يشبع . ولهذا أرى الكأبة سائدة على شعره .

هو شاعر كبير في وصف الآلام الحبيبة التي يشويه الشك في اخلاصها ، وكأنه اتخذ شمشون موضوعاً ليصف اهتزازات قلبه الجبارة ويتهدد بسقوط البيت على ساكنيه ...

يصور أحسن تصور خيبة الحبيب ولكن بكبرياء فيها كثير من انسحاق القلب . وهو إذ يصور نفسه وبلاياه الأيوية تحسبه يحدّثك عن غيره . قلب لم يهدأ ، وآلام ما انقطعت إلا لتتصل ، فكأنها الليل والنهار يتبع أحدهما الآخر ، وهكذا دواليك .

لست أشك أن فرح الياس لا يتخلو من الألم ، فكأنه صورة الدنيا التي يسميها غيري وادي الدموع . لا يفكر ولا يتفلسف ، كثير النقص ، والخلاصة أن الحب الباكي هو حب الياس أبو شبكة ، حب شاعر « إلى الأبد » .

لكل شاعر محور ، ومحور شاعر « إلى الأبد » الحب فأبو شبكة لا يدع لغة اللحم والدم حتى في « الألحان » ، فهيب بالفلاحين :

هيا احصدوا ، وانشدوا الحب قلب ويد ، والعمر زرع وجنى
وفي « المساء في الجبال » ينشد أيضاً :

يذيب روح الله في المتعبين	اسمع في الوادي رنين الجرس
ويطهر الحب ويبقى الحنين	فتتحنني نفسي ويصغي النفس

هذه أبرز خصال الشاعر الرومنطقي . فهو يرى نفسه في كل شيء من السديانة حتى العجربة . وهذا شاعرنا ، في « نداء القلب » يذوب قلبه في إناء من الهوى ويعرضه على الانس والجن . لم ينق هذا الترياق حتى عند زملائه الشعراء ، فكان صاحبه أحق برزقه ، كما قال :

فأدنته من مُرشي وشريته وما زال ماء الحب ملء انائي
وما دام له الحب فهو بألف خير لأنه :

إذا هجر الحب دنيا القلوب فما تنفع الحطم الباقية

لا يقول شاعرنا في الحب لأجل الشعر والفن ، بل لأنه شكوى تباريح ، وعرض ملاذ ، فهو في أناشيده كالطير في تغريده ، والجرة لا تحرق إلا في موضعها ...

أرى بين الياس ابو شبكة وعمر بن ابي ربيعة قرابة فنية دموية ... والفرق بين الشاعرين هو أن هذا من الطيور القواطع وهذا طائر مقيم . هذاك حبيبته كولائم الأعراس — عبد هارب — منهن طعام يد ، ومنهن طعام يدين . وهذا يريد أن يجعل من واحدة فقط مأدبة سمردية . ففي « إلى الأبد » سلام واطمئنان كأن الشاعر في ليلة القدر ، أطفأ الفانوس الأحمر وأمرج قنديلاً أنقى نوراً من قلب الألماس في خنصر الحبيبة .

لم يحدد شاعرنا حبيبته جغرافياً لأنه لا يخشى اعتداء على تلك التخوم ، ولم يحول وجهه صوب عرائس التاريخ — اللهم إذا استثنينا الاسم ليلي — لأنه لبناني يؤمن بالملكية الضيقة ، ولا يعرف الاقطاع والمشاغ .

ما شبت شاعرنا الا بوافه — سكرستاني — ورع يعرف كيف يوقر الهيكل على أعين الناس ، فلا يمر أمام قدس الأقداس إلا متهيأ . جلل حبه الجديد بطرف من الجبة الفارضية . حب عميق ، قريب بعيد ، يتراءى كضوء مصباح ضئيل في ليلة سوداء . قد تطوّت تلك « الافاعي » وليس

هنا غير حب جديد ، حب ليس لتلك الانسانية فيه أقلّ وصف للجسد ، فكأنه من العالم الثاني . أفهمنا الشاعر ما يريد لأنه فاهم ما يقصد ، هو واع ونحن واعون ، والحمد لله . لا يفهم كالذين جعلوا من عشرات الألفاظ قبوراً للفكر الانساني ، فانقطع شرر الوحي . ان شاعرنا هنا غيره في « الأفاعي » و « غلواء » ، مع الاحتفاظ بالصلة الفنية والصبغة الشخصية . لا أنكر ضراوة معركة « إلى الأبد » ولكن جبهتها بعيدة عنا جداً ، فاتسمت بالسكون ، وهنا سموا الشاعر الملهم .

قال عمر بن عبد قيس : إذا خرجت الكلمة من القلب وقعت في القلب ، وإذا خرجت من اللسان لم تتجاوز الآذان . فصرخة شاعر « إلى الأبد » خارجة من الأعماق لتستقر حتى في أعماق الذين لم يبق عندهم غير فضلات المأدبة ... ان العاطفة الفائرة كالنهر المتحدر ، هذا يصلح الحجارة حتى التخارب منها ، وهذه عبت طريق الفن فجاء نشيد « إلى الأبد » موسيقى خالصة .

أما الموضوع فوصف أحوال الشاعر في ثلاثة أعوام . شعر من أصفى الشعر وأسماء ، يصورّ الشعور الانساني في هذا النعم المقيم ، مع تلك المحاولة : قلب يدق وعين ترى .

فاسهري فالمعجوز نامت على المسند سهرانة ... عليها السلام

ان تلك المראה وذلك الغضب لا تجدهما في « إلى الأبد » . ان بطة « أفاعي الفردوس » عينها شاردة ، ورأسها خفيف ، وصاحبها ، ككل عاشق ، عينه ضيقة ، فقام بينها القرد ... أما هذه ، رضي الله عنها ، فراضية بما قسم الله لها .

ان الشعور الانساني يهتز كاملاً غير منقوص في هذه الملحمة الحبيّة ، إن صحّت التسمية . فكأنها أجزاء كائن حي ، يتم بعضها بعضاً . ان

عنوانها شغل بالي ، وليس هنا مكان هذا البحث ، وأرى شعرها قد ارتفع الى ذروة الشعر الغنائي ولم يعرقل القصص سير الفن . هناك وثبات رائعة تدل على خيال مرح مرخي له الزمام . الشاعر طروب جداً في حبه الجديد ، يراه كيوم لذة ، دونه يوم دارة جلجل ، ولا عيب فيه غير خوف شاعرنا على انتقضائه . وكأنه وسمه بعنوان « الى الأبد » تقاوُلاً ، كما سموا القافلة والسليم .

أحسن الشاعر الى فنه وإلى الناس إذ خبأ العمل ... فلم يقع فيما وقع فيه عمر ... استمان كالصوّر اللبق بفلاكات رائعة ولم يعمل بقول الوقاح من العاشقين « بحنا واسترحنا » ، فالبائس والبائسة يتكان سبيل الحب .

ان « الى الأبد » واحات ، وبين الواحة والواحة فجوات وأحداث . وفي النص الأخير تذكرني الحبيبة بسذاجة الطفولة ، فشاعرنا يقص عليها ، وهي تقول : قل بعد ، ثم ماذا ؟ والشاعر يقص ويحيد ، فيسمعك ثروة الينابيع في الوحدة الخرساء ، وهكذا يكون شعر العاطفة ، ولئلا هذا شبّهوا شعر عمر بالفتق المقشر ، في عصر الحشونة والضخامة .

يفتح الشاعر طاقة على الشعر الحديث ولكنه لا يطل منها الا عرضاً ، فشأنه في هذا شأن كبار الشعراء العباسيين ، له وثبات رائعة جداً لا يتعمدها ، وقد أحسن إذ دفع الينا نشيده الرائع بلا مقدمة . كان له عذر فيما مضى ، فعلى من يرسل « أقاعيه » أن يحذّر الناس .

أرى الشاعر ، اليوم ، في حرم ، ولعله تخيل ذلك فبدأ نشيده بالصلاة ، كأنه كاهن الحب الأعظم يصليّ قبل تقديم الذبيحة أو المحرقة . إذا قدّم ابراهيم ابنه محرقة ، فإلياس - وإلياس نبي - يضحّي بقلبه اليوم . وإلياس ، بعد المحرقة ، لفنة الى سواء كلفنة سمّية الى كهنة البعل . لم يقتل ولم يذبح مثله ، ولكنه اكتفى بالقول :

نحن عدس ومكان مريب شقيت فيه أعين وقلوب

أما فاتحة هذا النشيد الحيّ ففيها دلال متناهٍ . سقطت فيها بين الشاعر وبين ربّه كل مؤونة وكلفة حتى أدرك مار اقرام ، وفعل كما قال داود بعدما أكل الخبز... خبز التقدمة ورغيف أوريا... - : القى على الرب منك وهو يعولك . ولكن أخا عمر زاد على داود شاعر التوبة عتاباً حلواً ، وجهه إلى من على العرش استوى بقوله :

ان تكن تحرم العزاء المحبين فإذا تركت للشعراء
ربّ صنّها وأبقها لي ظلّاً من حنان يمتد في صحرائي
وارفع الألسن الخبيثة عنها والأذى في الواحظ السوداء

وهنا يعتورني شك فأقول : لماذا قال سوداء ولم يقل زرقاء ؟ والكلمة المأثورة : العين الزرقاء كاللسان . إذا صدق الظن كانت عين هذه المليحة ، حرسها الله ، زرقاء . والله أعلم .

وبدلاً من أن يثور الشاعر ويتفلسف ليبرهن لنا أن حبه مقدس لا إثم فيه ولا حرج طفق يحدث ربّه غير متكلف وسأله أن يحول عينه عن كل انثى سواها ، وأن يسكّر سمعه عن الأنباء ليظل متمتعاً في نعم هذا الحب المقيم ، ولكن ما كلُّ ما يتمنى المرء يدركه ، وإلى أين نهرب من وجه هادم اللذات ؟

أبو شبكة الكاتب

م تطل مدة هذا الاديب ولكنها كانت مملوءة بالروائع التي يزدهي بها تاريخ أدبنا. لقد أحدث شيئاً يذكر في هذا التاريخ. ذرّ نجمه على مقعد المدرسة فكان ذلك التلميذ المزعج الطمّاح ، وكتب له منذ تلك الساعة شقاء من تدركه حرفة الادب ، وابن اليسر لمن يكتب في مذكراته بلهفة انه قبض يوماً ثلاث ليرات لبنانية ، وان إحدى الصحف شاهرته بنحسين ليرة ، وهلم جرأ .

كان شاعرنا ربيب بيت لبناني مستور . تدخل ذلك البيت ، وهو ما زال كما تركه المورث ، فتراه حارة تدل على يسر صاحبها . فحيطانها مدهونة ، وأرضها مفروشة بالبلاط الرخامي ، وغرفها واسعة وعالية ، و (الدار) فسيحة ، وهذا هو طراز البناء البورجوازي اللبناني . كأنما أعد ذاك البيت الرفيع العماد ليأوي اليه شاعرنا شقي ، بانس تأبى عليه أنفثته ان يظهر امامك في مبادله ، فاستطاب شقاءه ، والشقاء هو الحياة بل لالذّة للحياة اذا لم يكن الشقاء .

سعى الياس إلى الوظيفة ليعيش مكتفياً ، ولكن الوظيفة لم تستقبله ببشاشة ، فلجأ إلى احد النافذين من رجال الدين . وبعد الف رح وتعال ، كانت خيبة الأمل . فقال له ذاك الوسيط متهمكاً : « اعمل خوري يا ياس » ، فجن جنونه وكتب على أثر تلك المزحة السمجة مقالة داوية بهذا العنوان . ولما بلغ الثامنة

والعشرين كان في أوج سخطه على البشر ، فكتب مقالة عنوانها « أنا » مبدئياً اسباب سخطه وحنقه على البشرية ، وأشار إلى هذه الحادثة ، قال :

« أقنعني احد المسودّين بقبول وظيفة ، فرضيت بعد ان استرطت عليه الا يكلفني حفظ الجميل لجيش من الناس ، اذ لا طاقة لي على ذلك . فرضي ورضيت وبدأت المهزلة . جعل هذا المسودّ العظيم يحمّلي رسالات وبطاقات مقفلة الى المراجع حتى عيل صبري . واخيراً دفعني التطفل الحكيم الى فض رسالة فاذا فيها :

تظاهر امامه باللطف وعده خيراً لانه « زاحني » بطلباته وزياراته المتكررة . ماذا جدت بمسألة فلان ؟ .. اني اعلق اهمية كبيرة على نجاحه لأنه يستحق الالتفات ، ولا تنس انه خدمنا ايام الانتخابات ولا تزال بحاجة اليه . »

أجل هذا ما كان في تلك البطاقة ، ومثل هذا الحدث المخزي الدال على رياء البشر ومراوغتهم واستهزائهم بأبادة النفوس هو الذي أسخط الشاعر الذي قال فيما بعد : « هذا هو احد الأسباب التي تدفعني اليوم وغداً إلى الثورة على البشر . أحقّ انا أم خطي ؟ أم يجوز ان أصبح ساعي يريد مضحكاً بعد ان كنت بليلاً وكثاراً أغرّد لأطرب الناس ؟ »

واخيراً ينصح كل من تحدّثه نفسه ان يطلب بطاقة توصية ان يفضها قبل ان يكلف جيبه دفع اجرة سيارات .

قلت : ولعل ركض الياس وراء الوظيفة وإخفاقه هو الذي احتقه حتى كتب خير كتيبه في النثر ، ذاك الكتاب الذي عنوانه « رسوم » وأظنه خير ما كتب في فترة عصبة العشرة . لقد صور فيه الكثيرين من الرجال اللبنانيين من رؤساء جمهورية وحكومة ، ومن وزراء وأدباء . احدث هذا الكتاب ضجة كبرى في ذلك الزمان ، ولكنه لم يوصل صاحبه

الى وظيفة دخلها اعطنا خبزنا كفاف يومنا . فظل طول حياته القصيرة يذرع الأرض بين الزوق وبيروت مغنياً على ليلاه .. اما كيف خلق ابو شبكه تلك الصور والرسوم الرائعة فهو يتحدثنا عن تلك العملية القصيرة بقوله : « لست من الكتبة الذين يستطيعون ان يخلقوا شخصية من غير ان يكون هناك موديل لها . فعندما افكر في موضوعي استعرض في خيالي شخصاً خبرته عن قرب ، واجعل شرحه كما اريد انا لا كما يريد هو . قد اضع في فمه كلاماً لم ينطق به في حياته ولا عهد له بمثله . وكثيراً ما سخرت لأجل ذلك عدداً من اصدقائي وصديقاتي وهو لا يشعر . فغضبوا علي وتجنبوني ، ولكفي اعلم اني اذا عدلت عن هذه الخطوة تحجب خيالي وينضب قلبي او اصبح مقلداً مهذاراً . »

هذا هو الياس ابو شبكة النائر الذي كان يكتب محققاً وكأنه يلعب بالحكم . ضربة على الرأس ، نكزة في الحاصرة ، وطعنة يطير لها القلب ولكنها لا تقتل ، بل لا تؤذي . اما الياس الشاعر الرومنطقي النائر في افاعي الفردوس وغلواء ، والشاعر الهاديء الناعم في الى الابد والمريض الصامت ، فما اكثر من عرفوه ويعرفونه من الناطقين بالضاد ، وقد نقدت دواوينه سابقاً :

فاذا ركع فارلين حافياً في غرفته وصرخ : رباه ، هب لي البساطة ، فالياس كان يركع حق في اشد ازيمات مرضه هاتفاً : يا رب لا تجزعني كأس حبها . بل دعني اثريها حتى التالة الى الأبد

بقي عندنا الشاعر اللبناني الراعوي ، صاحب الالحان التي يضارع فيها فرنسيس جيمس . فهذه الالحان تنزل في هوة اذنك لتستقر في اعماقك . ان هذا الشعر اوحى به المحيط الذي نشأ فيه ، محيط الزوق وبكركي وحرصا ، وذلك الجبل الذي لا يقلع ثوبه الأخضر ، ومحيط جرود كسروان

حيث الفلاح اللبناني الاسمر يأكل خبزه بعرق جبينه ، فاذا تقنى الياس
برنين الاجراس وأثرت به فهو ربيب القباب القائمة حوله وحواليه . وكـ
تعلق بمجال اجراسها صغيراً ، وكـ فرّ كالفراشات في تلك الحقول بين
المعاصر وعلى البيادر ، وها هو يردد صدى الحداثة والفتوة ويتقنى بذكرياتها .

كان الياس يحب الحياة ويهم بها ، ولذلك عبّدَ الجمال في الجسد الانساني
الذي هو مستودع الحياة والجمال الأسمى ، ومن تعلق بمحيطه الرائع تعلق
الياس لا بد له من ان يقول في وطنه كله ما قاله الياس في ختام «الألحان» :

يا بلادي لك قلبي لك آمالي وحي

وجهادي يا بلادي

إلى ان يختم هذا النشيد بهذه الصرخة الدامية :

طهري اليوم دمي وغداً كوني في

يسترح فيك رمادي

يا بلادي

أجل لقد استراح ذلك الرماد ، ولكن اشعاعه يزداد مع الايام ، فلا سراج
يضيء وينير بعدما ينطفئ ، إلا الأديب والشاعر .

والذي يكبر بعد الموت هو الأديب الحق ، والشاعر المبدع .

والحسارة التي لا تموت على بلد هي ان يبكر ادباؤه في الرحيل ، ويبارحوا
الديار قبل الموعد .

مات أبو شبكة ، شاعر الحب والألم ، حين نضج . مات حين رجونا ان يضيف
إلى كتاب أدبه الحي صفحات جديدة باقية . فلشباب طعم ، وللكهولة دسامة ،
وللشيخوخة حلاوة ان ظل العقل في الرأس .

فيا أخي الياس ، لا أعزي فيك أحداً غير لبنان الذي تقنيت بكل ما فيه
من جمال أزلي ، وحسن أبدي .

أما نحن ، يا أخي ، فماذا فعلنا لك ؟ آه وأسفاه ، اتنا نرى مجدنا في آثارنا
المتهدمة ، وقد أصبحت انت واحداً منها .

نم هانئاً وانعم بهذا الذكر فقبلك غناه شاعرنا الاعظم فقال :
ذكرُ الفقى عمره الثاني ، وحاجته ما فاته ، وفضول العيش أشغال
لقد مت فقير الجيب ، غني النفس ، ولكنك باقٍ . هذا هو « الترمس »
الذي تتسلّى به عن اللوز ، كان الله في عوننا .

أهـن تقي الدين

عذرت الموت لم اوسعها ذاما جلال الموت ان تدع الملاما
 رسول الخلد في الدنيا يؤدي رسالته إلى الدنيا لزاما
 غشا لبنان يحملها فلما أطل الفجر مر بها لاما

هذا ما قاله أمين تقي الدين في الموت ، ونحن على دينه ، وفق الله
 رحلته وسهل طريقه وعسى ان «يمود» الينا احسن حالا ... فقد مر
 ببوتقة الدهر وخلص بفتة إلى عدوة الخلود . راع لبنان موت شاعره
 الأوفى ، فحامت العيون حول ذلك الفلك الصغير يخفق عليه بيرق الفن ولواء
 الصبرية ، وما لقه ليل للعدم بذيل ردائه ، حتى نقضوا ايدهم من ترابه وانقلبوا
 عنه يرددون :

فيا لك نجمة لمعت ففارت فصارت في قم الدنيا ابتساما
 يا صديقي الجديد !

ليت شعري ، اعلمت انك استحققت شكر لبنان ؟ أشعرت ان الجبل
 الذي لم تتحول عن جبهه قط ، ولم تشرك به احداً ، ولم تضرب فيشارتك
 الذهبية الا لتمجده ، أشعرت انه وقف امس حيال نمشك يقدر اخلاصك ،
 ويذكر قتاه الأمين ؟ .. ضيئك حياً ، ولم يسمع صرختك المرة :

مى انت يا وطني مسعدي لقد افلتت همي من يدي

ومت* فجاء ليسعدك ، ولكن بالبكاء . وهذا حظ الاديب من دنياه .

ما كنت يوماً يا أمين ابا قلمون ، قودع الرائح ، وتستقبل الجائي .
نشأت لبنانياً ، وعشت ماعشت لبنانياً ، ومت لبنانياً ، وحسبك انك القاتل
منذ ربع قرن :

كان في لبنان عهد طيب	رحم الله الزمان...الطيبا
يا بني لبنان ، لبنان اذا	ما تباهينا دعواته ابا
نسب شرّقنا بين الألى	قبل عنهم يدعون النسا
مرّ بالدهر ابوا أمردا	وتشى فيه شيخاً اشيا
نحن للشيخ بنوه والوفى	ان يرى أنا بنوه الأدا
انما نحن اختلفنا بيننا	حين يقضي العقل ان نمتصبا
فركبنا كل يوم مركباً	وذهبنا كل يوم مذهباً
كلنا يسعى إلى غايته	ليس فينا من يضحي مارباً
ليس فينا رجل الشعب الذي	ان دعا الواجب لى الطلابا
وجعلنا الدين فينا فارقاً	فتفرقنا به أيدي سبا
ويح لبنان اذا داع دعا	فبنوه عن بنيه غربا

ما أمر خيبتك يا أمين ! لقد مت* في أعصب الازمنة ، في زمن عادت فيه
الطائفية جذعة ، وهي تتمخض لتلد أشأم من غلمان زهير .

أرأيت كيف يصوّر أمته شاعر القوم ؟ ألمست الأسى يقرض فؤاده ؟
لم يكن امين إمتة فيخلو من الهم* ، بل كانت راسخ العقيدة ، ضاحك الجبين
كصنين ، ناضر الفكر ، صابراً كالارز - جزأ بالعواصف ولا ينحني تحت
الثلوج ، لا تأخذ شمس آب شيئاً من ماويته فيذبل . ان صباحه وظهره
ومساءه سواء .

لا تحف يا امين ، فلا شيء يستطيع ان يذوي طيفك الدائم ، لا شيء .

يفقدك هذا الجمال الذي نجيب به ، ولن يفتخر الموت بأنه رآك ذاوياً في ظلاله ، فالشعر الخالد يحمل اسمك وينقله من جيل الى جيل . وما دامت القلوب تحقق والعيون ترى فهذا الشعر يحيا ويحييك معه .

لم يبقَ من أمين ، بعد ما أعاده الموت أدراجه ، إلا الشاعر المشرق الديباجة الذي قال كثيراً من فاخر الشعر وفادر الكلام . نعم لقد مات الرجل ، لقد مات المدره ، لقد مات كل شيء إلا الشاعر .

كان أمين شاعراً مقلداً ، لا يسمع الناس شعره إلا اذا ابدع وأوتي شيئاً طريفاً . يسري شعره في الاسماع كما يستطير النور هادئاً رزيناً باسماء . كان أمين يعمل للتجديد يوم كان الشعر يرسف في قيود التقليد ، فهو لا شك من المجددين ، ولكنه لم يكن ممن يدينون بالطفرة ، فأسمع الناس كلاماً لم ينكروه وجديداً أكبروه . وإذا أرّخنا التجديد في الشعر كان من الذين حلّوه من اصفاده ، فحمله رسالة جديدة الى الوطن والمجتمع ، وارسله رائعاً تحسه ، ولا تستطيع تحديده .

أشرفنا على عالم الادب فإذا امم أمين تقي الدين ملء آذاننا ، وشعره في أفواهنا نردده بين جدران مدرسة الحكمة التي جئناها بعده . نظم استاذنا الجليل شبلي الملائكة « الجمال والكبرياء » ، ذلك الموشح الرائع الجديد ، في حينه ، فنظم أمين « الجمال والتواضع » الموشح الآخر البديع ، فكانا حديث الناس في مطلع هذا القرن ، وبها خطا الشعر في لبنان خطوة جديدة أعجب بها الناس ، ومشى الزمان ومثينا ، وما نحن حيث تعلمون .

كان أمين تقي الدين إذا سئل قصيدة يعد خيراً ، فان وقتى وفى ، وإلا فيخلف ولا يبالي ، لأنه يؤثر الفن على العالم أجمع ، ولا ينشر الشعر إلا إذا رضى عنه . وقال أمين الشعر في اغراض مبتذلة ، ولكنه كان في كل مقام يخلع على مقاله حلة من بيانه . تقول في نفسك : ما عساه يقول أمين اليوم ؟

أغير كذا وكذا؟ وإذا به ينقلك الى عالم غير الذي ظننت ، وإذا بك تكبر ذلك الدماغ الحصيب .

خصت الطبيعة شاعرنا بإذن لا تكذب ، وذوق لا يفش ولا ينجذع ، فقلّ في شعره النمش والبشور ، وخلا من الدمامل والقروح . لزم في أكثره حدود الاعتدال فهو لا يبالغ ولا يفلو ولا يقول ما لا يحتمله الناس .

عرفت أمين تقي الدين في الخبر زمناً ، وعرفت شخصه منذ عامين وأشهر ، والشكر للمدرسة الحكمة التي جمعنا خطرتين ، وكان آخر العهد منذ اسبوعين ، حيث قعدنا جنباً لجنب نتحدث ولا نحسب ان الموت يتلصص ليقْتال أحداً .

مات أمين ولكنه أدّى رسالته ، وإن قلتَ كلماتها ففيها الغنى عن الكثير . كانت « زهوره » باكورة موسم التجديد في القاهرة وإن لم تعمر فذاك عمر الزهور . وما هو يلحق بها تاركاً خلفه ما تتركه الحسناء المتطيّبة بعد مرورها ، وإن تمنينا فنتمنى أن نرى هذه الآثار بمجموعة لنقول فيها كلمة صارمة غير مطاطة كهذه .

أما الذي نقوله الآن ، ولا رجوع عنه ، فهو ان أمين تقي الدين شاعر شارك في التجديد ، وهو من مؤسسي النهضة الجديدة ، وألغى شعرائها . ولو انصرف الى الشعر انصرف أحد شوقي له ، وتنبأ له ما تنبأ لذلك لكان مثله قيدوم شعراء جيله . ولكن شاعرنا قال أكثر شعره مدفوعاً اليه ولو تركوه لعدّئى عن أكثره .

لانسأل الأدباء شيئاً لأمين ، فهو غير يتم ، وامة مدرسة الحكمة اخت الرجال فستقيم له يوماً مشهوداً يذكرنا أيامه فيها ، ولأمين أيام مشهودة ، ولا عجب إذا جلتى الأصيل .

وآخر ما سمعت من شعره العذب بضعة أبيات نظمها نشيداً ، رواها
لي صديقي وصديقه الأستاذ رشيد كنعان يوم السبت الماضي فحفظت منها
بيتاً لعله كما أرويه :

خبّأت يا ليل فيك هي يا ليل من خبر الصباح
أجل هكذا بات أمين شجياً وأصبح خلياً . ترك همّه في فراشه وانسل
غدوة كالضيف الخفيف الظل . هنيئاً له فقد استراح !

وإذا كان آخر العمر موتاً فسواءً طويله والقصيرُ
ذكر الفتى عمره الثاني ... هكذا قال المتنبي ، ومن أحق بالذكر من
أمين تقي الدين الذي خلف لنا أسرتين أدبيتين : أسرة عامة وهي هذه
الذرية الأدبية التي كان لها الأمين أباً بالمثل ، وفي ذلك يخاطبه الشاعر
الملاط :

أجبنّي ، هات . أنشدني جديداً أتسكت يا أمير الصادحات !!
نعم ، كان أمين أقدر شعراء جيله على إخراج موضوعه المبتذل بشكل
يستهوِك ويغريك . يسلم غروقاً ويعطي مجدداً ، وهكذا ينبجى الشعر
وتتفرج الأزمة ولا يبرح الشاعر من قفته . فأمين طامٍ فنّان يعدّ لك من
إدام ضئيل ، ومؤونة هزيلة ، مأدبة تشبع العين والقلب .

كان شاعرنا نفائساً في المقعد البيانية التي يستعاذ بالله منها ، يزواج بين
الألفاظ ويقرنها قراناً مباركاً داعياً لها بالرفاه ، فتعيش أهنأ الأعمار
وأطولها . أدت رسالته في القطرين مبشراً بمهد الفصحى القديم الجديد ،
فجمع في مجلته محصولاً نقياً يوم كان اليبدر خليطاً من قمح وزوان
وشيلم ... قالوا عن أبي تمام انه في انتقائه شعر ديوان الحماسة أشعر منه
في ديوانه ، واني لأظلم الأمين اذا قلت ذلك في مجلته « الزهور » فقد
اعتدل ميزان انشائه وانتقائه ، فما انحرف القب ولا مالت الكفة .

أما الاسرة الخاصة فيكشف لك سرها متى عرفت ان امين تقي الدين هو الأرومة التي نبتت عليها فروع اسرة تقي الدين الأدبية المشمخرة . أما قام الى جانب امين ابن عمه أحمد فكان شاعراً مجيداً من الطراز الأول ، ولا ننسَ أخا الأمين رشيداً فهو لو لم يطلق الأدب لكاتب بزّ أبا فواس في الظرف والنكته . ثم شبّ في كنف امين ابنا أخيه الأديبان الكبيران الاخوان خليل وسعيد تقي الدين وهما اليوم ملء عين الزمن .. كسيفنا والقلم .

هكذا كان امين باكورة الادب اللبناني في حقله العام والخاص ، وقد رفعت هذه الباكورة قبل ابائها قرباناً لآلهة الشعر والادب فكانت كقربان هابيل برغم أنف قايين .

كانت نفس امين الأبية حلاً ثقيلاً عليه ، فكبرت همومه ولازمته كالتوابيع ، فوصفها وأجاد ، ذكرنا بالاعشى والمخلق حين قال :

أنا والهمُّ صاحبان كلانا صادق الود حافظ للعهود
ما افترقنا حيناً من الدهر حتى جمع الدهر بيننا من جديد
نسر الليل صامتين لئلا يكشف الليل سرنا لحسود

وكيف لا هم رجل هو مثال الطموح اللبناني والاباء العربي ، فيقول من قصيدة لصديقه حافظ ابراهيم :

خلع الشقاء عليّ كل لبوسٍ لما خلعت عبادة الاعراب

ليس امين ابن بعقلين التي تولف مع دير القمر ويتدين مثلثاً يذكرنا ، كلما ذكر ، بالامراء فخر الدين ويوسف ويشير ؟ ان شاعر لبنان يحس مجد لبنان لأن منظر وكري نسريه القشعين يصبّحه ويمسيه . سمع امين من آياته وجدوده أن اللبناني ، في ذاك الزمان ، كان لبنانياً فقط ، فألمه تبدل تلك الحال فقال :

وجعلنا الدين فينا فارقاً فتفرقنا به أيدي سبا
 وبيع لبنان اذا داع دعا فنبوه عن بنيه غربا
 ولما طفى الأدب على غيلته حدد لبنان بيت عندما رثى الشاعر اديب
 مظهر فقال :

ذكرتك في بلد يزدهي بالادب الغض على فقره

ولما صدرت فتوى فرساي وعدّ لبنان بالفا غير رشيد ، لم يذعن شاعر
 لبنان لهذا الحكم ، وكيف يخضع وهو ربيب شماريخه ملاعب الحرية ، وابن بعقلين
 تلك الجنة المعلقة بل الحورية المتيمة بغنى احلام حريتها . كيف يعد لبنان قاصراً
 ويسكت شاعره ومدرهه ؟ ما كان جدود امين بكاذبين ، ولن يكون ذلك ؛
 ودينهم ومعبودهم « الصدق » . فاسمعه كيف يحتج بعنف وابهاء بني معروف ،
 ويهتف بحضرة اول رئيس جمهورية لبنانية ، الاستاذ الدباس :

هل أرادوا بالرشد أن نغسل البحر سفينا ، ونغسل الأرض جنداً ؟
 أم أرادوا أن نقذف السم غازاً ثم أن نحصد الخلائق حصداً
 إن يكن رشداً الذي زعموه فمن الرشداً كوننا اليوم ولداً
 وأخيراً انتفض انتفاضة سموالية وقال :

ليس لبنان للاماني مرمى فتعدّ النفوس كالشاء عدا
 ولم تطغ لبنانية امين على عرويته ، بل آله ما يؤلنا اليوم من تفرق كلمة
 العرب ، فنظم قصيدة عنوانها « إلى امرئ القيس » قال فيها :

سائل التاريخ عاماً ثم عاماً أي يوم خفر العرب الذماما
 المروءات هدى أعمالهم والوفا الدين الذي فيهم تسامى
 عبدوا الاصنام لكن عبدوا قبلها العرض فصانوه كراما
 حبذا العرب ومن أوفى يدا حبذا العرب ومن امضى حساما
 حيثما كانوا فهم أهل العلى لو هم لا يتحدون الخصاما

انما لو كنت امرأ القيس بهم لأجدت القول فيهم والكلاما
وقفا نبك حياء لم أقل بل قفا نبك اتحاداً ووثاماً
اتنا نضع قبالة «ان من البيان لسحرا» ، ان من الشعر لنبوءة . ثم نسكت ،
ومن السكوت بيان وخطاب ، كما قال المتنبي لكافوره .

فليكر فارس

احب ان يقرأ كلمتي حياً فأبى الدهر إلا أن تقال فيه ميتاً . ما أقل عقل
الاديب ، وما أسخف هذا الذي نسميه أدباً خالداً ... ماذا يظل بعد تلاشي
الذات وفناء الهوى ؟

استرح الآن يا فليكرس ، فلا بكاء ولا رثاء ، فمثلك لا يبكي ومثلي لا
يبكي ، فالبقاء لله ، ولعبيدي إيليا وأحنوخ ... حننت إلى هذه الكأس شاباً
فشربت بها كهلاً ، أما أنا فأرى اليد الأزلية تلوح لي بها وأصدف بوجهي
عنها ، لأنني غير عطشان ، وسوف لا أشربها إلا غصباً عن رقبتي . فلا قرب
القضاء نوبتي ، وليتني افلت من يد القدر لأعلم زهيراً كيف لا يسأم المرء
تكاليف الحياة .

كم تسامت يا فليكرس ، وكم تشاءمت ، وها أنت تبلى ما تمنيت فقل لي كيف
تجحدك الآن ، أأنت أرفه حالاً ؟ هل اخترقت عيناك الثاقبتان سحف الابد ؟
وهل للشوق والحب من معام في دنيا الخواء ؟

هيهات ... لا تقل لي ، ولا أقل لك ، أيها اللاشيء ، لا تحدثني عن أشياء
لا وجود لها إلا في مخيلة البشر . وهنيئاً لمن يموت على رجاء .

غداً يرحب بيمينك الثغر ، وتتنصب حول نعلك جبابرة الجبال ، ويضمك

إلى صدره السهل . غداً تستحق شكر لبنان ، ويختم فابوتك بتلك القطعة التي
يسمونها وساماً ، فأبي غد تنتظر ؟

كل هذا لا يساوي ساعة متعة أخلصت فيها للحياة فوهبتك من عطاياها أثمن
الكنوز ... إنها لا تهب إلا نفسها ، تهب وتسترد وفي هذا بقاؤها ، فهل تعقم
مثلنا في غد ما فتنتم لنا من نفسها ، ولا نعود نسمع على ظهرها من يعزينا
بقوله : « سبحان الباقي » ؟

١

مضى تقدمت السن بالمرء يتغذى بذكرياته كما يتغذى الجسم بخلاياه . كان
فليكس اعسى مني يوم تعارفنا ، فقد كنت جذعاً وكان قارحاً ، وما عساي
اذكر من فليكس غير نقضات وآفات ، غير تشاؤم مرّ ، غير تلك الابتسامة
الواضحة الغامضة التي كان يستقبلني بها ، أو يحملها اليّ في الفداة
والعشي ؟

كنا نجتمع غالباً في غرفتي المعلقة الواقعة جنوبي ما يسمونه اليوم
« تباريس » وكانت على صفرها مجمع الحلّان - ادباء ذلك الزمان - وهذه
واسطة عقدم قد انفرطت اليوم . جاءني يوماً فرأيتي معلقاً صورة نيتشه وقد
كتبت تحتها : فليغن الضعفاء والمخدولون ! ابتها الأم كلي ابنك . فاعجب بهذه
الفلة ... وكنا كلانا نكبّر فرح انطون الذي عرف الادب العربي بهذا الفيلسوف
الفري ، وكنا نقرأ معاً ما يترجمه فرح من زاراتوسترا مسلمين ومميزين
ومفكرين ، فراريج تحتك بديك .

كان فليكس يحب الفلسفة ، وهو ابن اب كان شيئاً في زمانه .

كان والده حبيب محامياً مدرهاً وله كتاب « صراخ المظلوم في بوق الحرية »
يحمل فيه على اليهود ، وكان عمه انطون فارس صاحب جريدة

« المرصاد » الحرة .

أما ام فليكس فراقية مثقفة ، في وجهها سماء المرأة الفاضلة . عرفتھا بيتھا في الميحات حيث نزلت عليهم ضيفاً أياماً ، ف وقعت عيني أول مرة على بحر البقاع الأخضر ففتني . لا أدري كيف اصف ذلك التأثير البالغ الذي استحوذ عليّ ساعة وقفت امام بيت حبيب فارس ورأيت الزرع يتعاقب تحت أذيال النسيم .

نشأ فليكس في ذلك البيت الملم الذي تسوسه ام مثقفة كانت لأبنائها كالأخت الكبرى يشعرون انها تحبهم وتحترمهم . وجاء القسيس في ذلك الزمان ، واعدت مائدة الفصح ، فجلس القسيس وام فليكس اليها ، وقعدت وفليكس على صفة قبالتها . وتلا القسيس حكاية عليّة صهيون وكسر الخبز وتناولوا صائمين ذلك لذكر يسوع فاعلين كما فعل ، اما انا وفليكس فكنا بين بين ، لا بطرس ولا يوحنا . شهدنا الوليمة التي انتهت ونأنا نذق كسرة من خبزها لاننا لسنا من المشتركين ...

لا يعنيك ولا يعني ان كانت ام فليكس بروتستانتية وابوه مارونياً ، ولكن الذي يهمك ان تعلمه ويهمني أنا خاصة هو ان فليكس « مطعم » فأمة اجنبية لا اعرف جنسيتها بالضبط ، وخاله كما اذكر رجل دين ذو شأن في ملته ، وهو من رجال العلم والفكر .

لم يكن فليكس متبسطاً في نكته ولا متقبضاً ، كان يرسلها موجزة ويرقب تأثيرها فيك . وكثيراً ما كان ، حق في عز شبابه ، منقبض الصدر تأتي ابتسامته كشق حديث في ثوب من عصب ، كان صدره ينطوي على ألم ممض يكتمه ولا يبديه ، ينظر الى الدنيا كمن يراها على ضوء القمر ، وقد عرفته في موعة الشباب ضئيل الأمل يائساً ، كثير الاحتجاج على النواميس الفاشمة التي تسير البشر .

واول كتاب قرأته له - يوم كنت تلميذاً - مطبوع في اميركا ،
وقد بحث عنه في مكتبة عاليه فما وجدته ، فخفت ان اكون بعته مع
ما بعث من مكتبتي الاولى والثانية قبل الحرب وفيها . ولكنني لحسن
الحظ وجدته في مكتبة عين كفاح ، ولكنه بلا عنوان .

ما هم العنوان ففليكس يسميه في المقدمة « مجموعة » ، وهو كذلك ،
ففيه بضع قصص اظنها مترجمة وفي آخرها قصيدتان قصصيتان . ان
فليكس قال الشعر كثيراً في شبابه ، وقد عارض احد شوقي في التسمي :
ذاك كان شاعر عباس خديو مصر ، وفليكس شاعر ناظم باشا والي الشام .
ولكن يد فليكس بقيت فارغة وشوقي أثرى ثراءً عظيماً .

فمن مقدمة هذه المجموعة التي اهداها فليكس الى نفس فريد عوض ،
وهو لا يعرفه ، نرى كثيراً من فليكس بل نرى فليكس كله . لم تكن
هذه المجموعة بنت قريحة فليكس البكر ، والدليل على ذلك قوله لفريد :

« كتبت كثيراً يا فريد ، وها انا على منحدر قمة الصبا أرى الأفق
لا يزال بعيداً امامي ، ولنجوم آمالي تترجرج في سماء مدلهمة يغطيها سحب
الجهل في أمة ما زال فيها الألمي غريباً . اتخطى الصراط الى شفير
الهاوية ، يحسد نحيل يحمل ما كتبت يئناه ويشد به شئاله الى حيث يسود
السكون .

« انا احد اخوانك ، غصن من ذلك الروض الذي حصدت منه . أنا
كاتب الحق ، وشاعر لنصرة الشعائر الطبيعية السامية التي بها سر السعادة ،
وقد اصبحت متلاشية امام الألفه التي يفسدها التصنع ويقتلها الطمع
والاستعباد . وهذا القلم الذي يخطط لك ذكراً يدوم قليلاً ويتلاشى ككل
شيء على الارض ، هذا القلم المتعب الذي تديره يد أنحلته الادواء ، ويملي
عليه فؤاد برّحته المصائب هو كقلبك من قبل ، جنح مكسور يرفرف

الى العلاء ، ولكنه لم يزل معذباً على الارض .
« يكفي أن أغض اجفائي وارثقي بالفكر الى عالم « الكل » الذي
ألفته لاراك » .

في هذه الكلمات على بساطتها صورة مصفّرة للحبيب فليكس ، فهو
نارة من المؤمنين بـ « عالم الكل » وحيناً صوفياً كبيراً يقول ولا يهاب :

وطني الدنيا وديني شرفي واخي كل تعيش في البشر

وما رواية الاستاذ ابو شبكة - وديني خالقي - الا كما سمعها مؤخراً
من فليكس بعد ان تطور لأجل الوظيفة وقوت العائلة ... فليكس تلفف
بألف برد سعيّاً وراء رزقه ، فمن معلم في عيبه ، إلى فاخوري في المريجات ،
الى صحافي ، إلى محام ، إلى وظيفته الاخيرة التي نعم بها زمناً ولأجلها قال :
وديني خالقي . والصديق ابو شبكة ، وهو الشاعر الكبير المرفه الحسن يعلم
جيداً ان « خالقي » هنا لزقة ...

ان حلة الريحاني على فليكس لفي محلها . تعجب امين من ان يتقهقر فليكس
هذا التقهقر ، في رسالة منبره وغيرها ، بعد ان كان في طليعتنا جوحاً وحرية
تفكير . ولو درى امين ان فليكس صار ربّ عائلة ولم يعد خفيف الظهر ، وان
في هذا التذبذب بقاء الجراية لعذر ...

كان فليكس اول من عرفت وصادقت في فجر حياتي الادبية . كان يجتبر
الفصول الطوال فأنشرها له في جريدة النصير ، سنة ١٩٠٨ ، وكان فليكس
مندفعاً وراء مواضيع بعينها ، يؤثر البحوث الاجتماعية ويثير قضايا يشتدّ حولها
الجدل ، فهو مطبوع على المناقشة يستدرج اليها الناس .

وهذه جريدة النصير المحفوظة عندي تحفظ ما وقع بينه وبين داود
النقاش حول موضوع « الحائن والحائنة » وأجما افطم جريمة . كانت النقاش
يدافع عن بلواه وفليكس شاب يرى في الحب كل شيء ، فيصحح ما يزعم ،

ويبرئ، ساعته ...

وما ظهر ثالث عدد من النصير ، بعد ما عهد إليّ بتحريره ، حتى كانت
لفليكس فيه قصيدة عنوانها « ملاك ساقط » ، واليك منها بعض ما يصور لك
رأي فليكس في الحب :

يا حب ، قالوا لي بانك ترتقي	بالنفس نحو النعمة السموية
يا حب ، كم طالعت عنك مقالة	رسمت لنا الدنيا بأجل صورة
والآن قد ضيعت آمال الصبا	وغدوت شيخاً في ربيع فتوتي
فرأيت فيك شقاوة لو سطررت	لحوتها عفواً بآخر دمة
يا حب أما ان عصرك قد مضى	ام انت لم تجتز لباب الجنة
يا رب عفوك ، كلنا في ذا البقا	نجني ومن منا بدون خطية
يا رب ألفتنا تناست « كلما »	اعطيته لبني الوري بالفدية
يا رب عد للأرض ثانية فما	لسواك في رفع البلاء من قدرة

...

ولقد بكيت على المصائب في الوري	حتى ذرفت لها بقايا دمعي
وغدوت لا اخشى الجراح من الاسى	فالسيف لا يدمي فؤاد الميت

ففي هذه الابيات المتقولة ، بكل امانة ، تهب عليك نفحات ألم وشكوى
فتى شاخ في شرخ الشباب ، وروح مسيحية في دم فليكس منها خمسون
بالمئة ، ولا شك انه رضعها من ثدي امه البروتستانتية التي ترى في الناصري كل
سعادة في الدارين ...

ولا تنتقل إلى العدد (٢٠٠) حتى تقع على العش المهجور ، والعش المهجور
قد يكون صورة حية لبنت حبيب فارس في الميحات ، الذي نظرت اليه
مراراً في ذهابي واياي ، فرأيت كما وصفه فليكس في هذه القصيدة التي

يختمها بقوله :

وسمعت الشحرور يبكي الطيور
ليس شيء في الأرض اشقى غرورا
من سرور الآباء بالأبناء
قرب عش منها غدا مهجورا

وفي العدد التالي خطاب له موضوعه « الصنائع والفنون » القاه في كلية
القديس يوسف بمناسبة قيام الأب ميشال بمدرسة صناعية . هل نسبت كلمة
« فاخوري » التي مررت عليك ؟ قد أحدث حبيب فارس معمل قلال
واصص كان فليكس فارس يديره ، وقد عرّج ناظم باشا مرّة فرأى يد شاعره
ملوّثة بالطين فأبى عليه تنظيفها قبل السلام وقال له : ان يدأ ملوّثة بهذا الطين
لهي أنظف من أيدي الوزراء والأمراء .

وفي العدد الذي يليه قصيدة غزلية عنوانها « عاطفة » ، وما قال فيها
يخاطب الحبيبة :

وأنت زهرة حسن لم تمرّ بها
وأنت اكليل قلبي باقة وضعت
وكيف يدرك زهر الواد كم أسف
عواصف الدهر حتى تدركي حزني
فوق الضريح تغطي رهبة الكفن
وكم دموع ثوت في ذلك السكن

...

فليس شعري إلا النفس صارخة
فليت نفسي لم تأت الحياة ولم
أتيت للأرض روحاً لا تريد سوى
كالطير يبكي غرباً خضرة الدمن
تلق اغتراباً وليت الناس لم ترني
ما قد رأته قبيل الخلق في عدن
فصادفت من خداع الناس ما سئمت
به البقاء ولم ترضخ لدى الإحن

واليك تعلّقي عليها لتدرك عقليتنا في ذلك العهد :

« النصير » : ليس من مبادئنا نشر القصائد الغزلية لاعتقادنا خروجها عن
الدائرة التي خططناها لنفسنا وهي النفع العام ، ولكن قصيدة كهذه يقف

عندها فكر الشيخ ، وتخشع لها الصبية ، وتدمع لها مقلة الشباب ، لمي بما يتعلق بأهداب الفلسفة ، فكأن هذا الشاعر قد آلى على نفسه ألا يقول شراً — حتى في الغزل الخاص — لا يدوي فيه صوت الإنسانية ، فكأنه يفكر مع كل دماغ ويشعر مع كل قلب .

وزاد صاحب النصير عبود بك بوراشد صفحات نصيره أربعاً ، ولم يكن ثمة جريدة بهذا الحجم ، فأعجب ذلك صديقي فليكس ولم يرقني طبعاً لأنه زاد في عملي ، ولم يزد في أجري ، فكتب فليكس لعدد ٢٠٣ مقالاً عنوانه : « كلمة عن النصير » أنقل لك فقرات منها تدلّ على فليكس وعلى زماننا الأسود كما ينبئك التعليق ، قال فليكس :

« النصير وهو الناظر إلى أحوال البلاد بعيون كتابها ، والمفكرين بها ، لا أراه منتشرراً بيننا بأعدته الحافلة إلا لغاية واحدة وهي توير الأذهان بأذهان البلاد ، وترقية عواطف الوطن بعواطفه ، فهل يبلغ الأمانة أم لا يزيد اتساعه غير زيادة الحسارة ، خسارة ثقافات الاقلام وضياح الارواح السائلة على ثلثة هذه القصة المجاهدة بلا عزاء .

إلى أن قال :

« هنالك في البلاد الناهضة — أي في أوروبا — كان أبطال السيف يعملون قبل أبطال القلم . أما هنا حيث العرش الحميدي الأبدي القرار ، والعلم العثماني المظفر يرف بكل معنى السلام فلا يطلب منا شهداء لسن نظام وترقية حكم ، قانوننا عدل ، وسلطاننا رب الرحمة ، فلا أبطال عندنا غير رجال الفكر ، ولا قتلى غير قاتل نفسه في سبيل العمل المقدس .

« مدنيتنا أسيرة يجب فكها من قيدين ثقلين بفلان الأيدي والفكر ، القيد الأول الحاجات العمرانية ، والقيد الثاني النظام الاجتماعي . الأول يجعلنا عبيداً موثقي الاكتاف ، بخشب ، بحديد ، بنسيج ، بإبرة ، بخيط ، بنحاسة صفراء

توضع على أحذية الأولاد ... ذلك استعداد هائل يدمي مقلة شيوخنا ويضيع ثقة نساءنا بنا ، ويحني ظهور شبابنا باليأس ويموت جبين الشبيبة المملوءة نشاطاً باصفرار القنوط .

« القيد الثاني هو ذلك التقليد الذي نأخذه عن الأجانب ونريد أن نجعله نظاماً لافتنا ، مع أننا لا نلائم لمصله ولا يلائم طباعنا ولا الاستعداد الفريزي الذي يحول بدمائنا يرتضي به . يجب ان نرتقي يا قوم ، ولكن من يرقينا ؟ تقدمي أيتها الصفحات الحاملة آخر جهاد لأول اقتصار ، انتشري بين شعب فتح عينيه للنور بفضل من تقدم من الابداء ، لقد مضى زمان كان صوته يضيع مع الدوي ... اما الآن فقد أصبح القسم الاعظم من البلاد يفهم لغة البلاد ، وقد لاحت بعض شرارات على ذلك الرماد البارد منذ اجيال ، فإلى الأمام ايها النصير ، ناد وانفخ ، فما انت نافخ في رماد ولا مناد ميتاً .

« لج الابواب العالية ... لج الاكواخ الصغيرة ... لج ... ادخل ... قل للكل ان مفتاح السعة مطمور في هذه الأرض المحبوبة فليفتشوا عنه . ادخل . ناد ... قل ... اصل حرياً عواناً ... استنهض هم الرجال ... قو تلك النفوس القانطة ، ادخل إلى خباء العذراء ، وإذا مررت امام بابي فلا تنس ان تلجه لأن هنا نفساً تترج مع كل نفس تحب الوطن ، ونحن إلى إعلاء شأنه . هنا قلم مكسور يحرق نفسه قسراً بيد اغلتهها الادواء وبرحتها النوائب ، ولكنها لا تزال تجذب بقية قوة مضمحلة لتعمل هذا الواجب المقدس ، واجب الانتصار لتصير الوطن » .

اما تعليقي على هذا المقال الذي قرأت فقرات منه فهذا نصه :
« النصير » يشكر لفليكس افندي ثقته به ويسأل الله ان يأخذ بيده ليخدم الأمة والوطن بظل العلم العثماني المظفر .

في هذه الكلمات التي نقلتها ظواهر شتى ، فهي تدلك كيف كنا نختال على اخراج الكلام من صدورنا ، فلا نستطيع قوله إلا ممزوجاً بالدعاء لظل الله على الارض ، سلطان البرين ، وخاقان البحرين ، ولي نعمتنا بلا امتنان ... فكلية حرية وعبودية ووطن واضرابها كانت محرمة علينا كنفاحة آدم . كنا في ذلك العهد كالجزائر نذكر الله ونذبح ، وهيهات ان نسلم من المؤاخذه . فقد كتبت مرة مقالة عنوانها « ابن انت » والضمير راجع إلى الحقيقة ففضت المشيئة بوقف الجريدة ، وكنا نعرض كل كلمة على المراقب ولا نطبع حرفاً قبل السماح لنا . وهي تدلك ايضاً على ان الصدور كانت تجيش والنفوس تحلم ، فنحن الآن في شباط سنة ١٩٠٨ ، فما اطلّ تموز حتى كان فليكس امير المتبر ينادي بالويل والثبور ويلعن العهد البائد عهد الاستبداد والظلم ، ويدعو بطول بقاء اثور ونيازي ... وهي تتبئك ان النهضة لا بد ان تتكون كالجنين وان تحمل بها ادمغة كثيرة في ازمئة وعهود عديدة حتى تولد جنيناً كاملاً من ابناء السلامة ، وهي تدلك اخيراً على ان فليكس كان أليف آلام وطريد وساوس وانه يشكو ألمين : ألم النفس وألم الجسد . وما برح كذلك حتى على رجاء ان يجب في العالم المتبد ، كقوله :

يا ملجأ الانفس الأعلى لديك أرى . مبدا هيامي فعتق الارض يطردني
هلا رجعت إلى حضن الخلود فقد فاقت بي النفس نحو الحب في وطني

٢

كنت مستأثراً بالمقالة الافتتاحية لا اتنازل عنها لافلاطون لو بعث ، وقلنا وضعت كلمة لكاتب أو شاعر في الصفحة الأولى . وشاء فليكس غيرة منه ان يكثر اعواني وانصاري على تحرير صحيفة ضخمة فحمل إلي « غصن ورد » لأمين الريحاني ، وكان الريحاني في ضحي شهرته ، وقد

نبه ذكره ، وهبت ريحه ، بعد اصداره كتابه الشهير « المحالفة الثلاثية في المملكة الحيوانية » ، وقد ارفق المقال باهدائي نسخة من هذا الكتاب التي استرجعتها من احد اصدقائي الكهنة « ي . ع » بعد مرور عشرين عاماً على غيابها عن مكتبي .

كتب فليكس مقدمة لفصن ورد الريحاني ، فنشرتها بالحرف مع المقال واليك ما قدم به فليكس :

« غصن من الورد هو عنوان لمقالة أو لشعر منشور كتبها صديقي أمين الريحاني .

« قليل من الادباء من لم يسمع بهذا الاسم الذي تتألق عن جوانبه اشعة الشهرة ، وتحتاطه هالة من الافكار السامية ، فلا ازيدة تعريفاً لقراء العربية خصوصاً وانني لا اكتب عن الشاعر بل اكتب عن قطعة اهداني اياها وفي يقيني انها اجل ما خطه يراعه .

« للريحاني كتابات كثيرة على هذا النسق ، وقد قرأت له ما هو اجل تركيباً واعمق تصوراً من غصن الورد ، ولكنني لم اجد الشاعر بكل شخصيته وعواطفه ، كما وجدته في هذه الاشعار المنشورة ، فانها وان كانت لا تتضمن كل القوى التي اوجدها التأمل بفكره فهي ، بلا ريب ، جامعة كل الحب الذي سكبه الطبيعة الشريفة بقلبه .

« حكم الريحاني بأن غصن الورد هو اجل ما كتب ، هو حكم انتصر به الشاعر على الفيلسوف ، انتصر به القلب الحافق بالحب الأزلي على الدماغ المتشتت والمفتش عبثاً امام نهر الفلسفة الراكد .

« هذه هي الأشعار المنشورة اقدمها لقراء النصير ، وسوف اذيلها بكلمة واتبعها بقصيدة لي ترمي الى ذات المعنى ، افعل ذلك اجابة لطلب صديقي الريحاني ولأهدي إلى القراء ما لا يضيعون به وقتهم عبثاً » .

هذه هي المقدمة ، اما الذيل فعلى نسقها وبما جاء فيه :
« اي حب اجل من هذا الحب الرفيع بعطفه السامي ، يجهاده وبأسه ؟
كل شيء في هذا الكون يعذب الحب لان هذا الشماع الباهر المتلألئ على القلوب
المرتقبة من شمس الازل يترجرج ضعيفاً في ظلمة الجهل وتنازع البقاء على غير
هدى الخ » .

المقدمة والذيل نشرنا لأنها في قبضتي ، اما القصيدة التي وعدتها فليكس
قراء « النصير » فحزنت في الطريق ولم تصل إليّ لأن اخي فليكس حرد ايضاً
وكتب إليّ يلومني بشدة وعنف لأنني نشرت مقال الريحاني في الصفحة الثانية ،
وعتب عليّ لأنه هو يؤلب الادباء المشاهير حولي ، وانا متعجرف انظر اليهم من
عل . وكانت جفوة قصيرة جداً ، فضّتها ابو فليكس وأصلح ذات البين
بين ولديه .

ذهبت يوماً ومعني الاستاذ اميل افندي خوري — لا ادري اين هو اليوم —
لزيرة الصديق الريحاني فوجدنا عنده زائرة انكليزية فكان ظلنا طويلاً ثقيلاً
عليها في ذاك الضحى . وكذلك يكون الظل فيه ، فاستطولت زيارتنا تلك السيدة
فسألت الريحاني : متى يذهب هذان الظريفان ؟ فأجاب امين بما لا يلائمنا ،
فغمزني اميل خوري ، فودّعنا وانصرفنا ، وخبرني صاحبي اميل فحوى الحديث
الانكليزي ، فما عذرت الريحاني في ذلك الوقت ، لان بقاء عشر دقائق لا
يستحق هذا الوسام الرفيع ... ولكن احوالاً عرضت لي تشبه تلك ، افهمتي
بمعدّ أن الوقت يطول ويقصر بحسب الاستعداد النفسي ... وان صاحبنا
وآنسته معذوران .

وخبرت فليكس بما وقع ، فهزّ كتفيه كمادته ، تلك الهزة البلهاء ، وعذر
لانه كان أعرف مني ، في ذلك الزمان بقيمة الرزق ...

آخر عهدي بفليكس

وكتب فليكس مقالاً عنوانه « خطرات أفكار » (نصير ٢١٠) جاء فيه :
 « شيء افتكرت به ملياً ولم أصل لاقناع نفسي به : « الرجل الخائن زوجته
 يعد خائناً لها فقط ، فلا تعتبره الالفة محتقراً للالفة ، أما المرأة فأقل شطط
 ترتكبه يعرضها للهوان ، يعرف الناس . الرجل الخائن يلهو ويلعب ، والمرأة
 الخائنة ترتكب جريمة هائلة ضد البشرية .

« لا أقصد أن تبرر المرأة كما يبرر الرجل ، بل أريد أن يشجب هذا كما تشجب
 تلك ، أو يقنعني باحث بامتياز الرجل على المرأة حق في الشر ، فهل من كاتب
 يركب هذا المركب الخشن ؟ » .

فركب المحامي داود بك النقاش هذه السفينة ، سفينة بلا قلاع كالتي
 أركبتها المجدلية يوم أبعدت عن أورشليم المقدسة بعد موت حبيبها ونصيرها .
 وانقضت أسابيع بين خذ وهات ، داود وفليكس يتساوران ، كلاهما يدافع عن
 قضية شغلت فراغاً عظيماً من عقله ، وقلبه وحياته ، وقد خالطت اللحم
 والدم وعششت وباضت وفرخت كما قال الحجاج . وطال صراعهما حول
 الموضوع : قلبان يمثلان : زوج غير مرغوب فيه ، وشاب يرى ان المرأة
 خلقت للحب كما قال :

« أما حق المساواة بالعمل فلست منتصراً لها به ، لأنني اعتقد بأن المرأة

خلقت لتعزية الرجل وإراحته بالأدب والجمال من شقاء العمل ، فإذا هي أصبحت عاملة ، تحولت من الجميل إلى المفيد ، وفقدت الخطوة الملائكية التي تجعل الرجل خاشعاً أمامها .

« إن المرأة لا يمكنها أن تقتبس الرجولية دون أن تفقد صفة المرأة أمام الرجل وفوق سرير الطفل . »

أما خصمه داود فيرى ان المرأة أكثر مسؤولية وأشدّ جرماً ، لأن رجل الخائنة يتعهد ما لم يزرع ، ويسقي ما لم يفرس . وكاد يتسع الحرق فاقفلت الباب على دخول العلامة الأب الخوري جرجس منش الحلي ، فكانت كلمته الحكم المبرم ، ففضى على صاحبي فليكس . (نصير ٢١٨) .

وعدت من الحدث في القطار ومررت ، كعادتي ، على غزن العلامة الشيخ مصطفى نجبا - المقي بعدئذ - فاستحسن عملي وأثنى على فيلكتوس - كذا كان يلفظ اسمه - وأعجبه نفسه وحرارة إنشائه . أما أخي فليكس فغضب لأنه يحب الجدول وطول الجال . فهو واسع الاطلاع مولع بأبواب النساء يحب ان تظل مفتوحة على مصراعيها ... وحرد اسبوعين فقط ، ثم راضيته فوردتني خطرات أفكار أخرى منها :

« منذ أشهر قلائل لم أعرف بمارون افندي عبود غير مفكر نجتهد تنبأت له الوصول إلى المحجة ، ولكنني لم أحسب قط ان سيث وثباً لينقف بغتة بين كبار أدبائنا وأفاضل المفكرين بيننا . هو كاتب « احترموا المعابد » و « المأساة الهائلة » . هو منشئ « بين القبور » تلك المقالة الرائعة التي تدلّ على قوة الابداع في موضوع مبتذل يكاد ألا يترك مغازاً لجديد . »

ومن الغريب ان يكتب مثلها ايضاً بعد عشرين سنة على كتابه « اعترافات فتى العصر » الذي اهداه إلي مع كتابيه « زاراتوسرا » و « رسالة المنبر » .

وكان لنا صديق كاتب مجيد هو الشيخ شاهين الحازن صاحب « كتوز لبنان المرصودة » ، وكان في تلك الأيام بحث على مناصرة الحياة الوطنية حتى لبس في ذلك الزمان ثوباً لا يلبس الحباء من رهبان لبنان أخشن منه ، فقال فيه فليكس أيضاً :

« الشيخ شاهين الحازن حامل تحت ابطه مساطر مصنوعات وطنية يعرضها لكل ناظر . قطع صغيرة من حرير الزوق ، ونسيج دير القمر ، وقد لبس هو نفسه من ذلك النسيج . تلك المنسوجات الصغيرة فيها حياة لبنان ، وطالما حامت حولها اقلام الكتاب ولكن لم يقم بيتنا غير المتكلمين فقط » .

وكان فليكس اذا لم يوفق يقال موافق لمقتضى الحال ينفجني بقصيدة . ان نثر فليكس اطيب من شعره ، وهو محلق في المعاني مسفّ في المباني واتفاق الامرين في شعره قلقة . ولكنه في كل ما يكتب يتبع فكرة يجبل بها قلبه وتلدها قريحته ، فهو لا يحول عنها ولا يزول . وفي قصيدته « الاحياء والاموات » التي نشرتها في نصير ٢٢٣ يقول في ختامها :

يا الهي انزلت حكمك فارقت	بنفوس تشقى لحفظ الوداد
صير القلب كالجسوم جامداً	او فحفت وقع السهام الحداد
عفوك الله لست ابدي اعراضاً	حكمة الخلق نقطة في سواد
غير اني ارجو المزا لقلوب	البستها الاقدار ثوب الحداد
اطلب الحق لا ارى من عزاء	غير سر مضيع للرشاد
لا ارى للعزاء غير صليب	غارق في دموع أم الفادي

حقق الله رجاءك يا حبيبي ... ليت لي ايمانك فلا احزن عليك كما قال بولس الرسول : ان الذين يموتون بالرب لا ينبغي لكم ان تحزنوا عليهم كسائر الناس الذين لا رجاء لهم .

وإذا فسح لي في مجلس الحياة واستطعت الخروج من عين كفاح
فلأزورن قبرك وأضع عليه حزمة من أغصان أرز لبنان وسنديانه
وزيتونه ، فقد كنت صلب العقيدة والمبدأ ، جبار الفكر ، مسالماً تقاروق
بالي هي احسن . ان لم تترك للعريضة التجديدك في تفكيرك العذب
ورسالة منبرك ، وزارا قسرا نيتشه ، لكفالك .

كان فليكس وفيلاً صادقاً ، محباً لأحبابه جداً ، غير مبغض احداً ،
وأشهد اني لم اسمعه يذم مخلوقاً او يسب انساناً ، بل كان يكرم في قلب
قامته المتحنية اشجاناً قلما اطلعت على واحد منها .

وقد دفع الي قصيدته « ملام » فنشرتها بعد نقاش حولها بيني وبينه
وخصوصاً حول هذه الابيات :

رأيتك في روض الحياة فتية	على وجهك الباهي سنا النفس يسطع
وفي لحظك الفتان صورة ما ارى	بروحي وروحي بالجمال قولع
وسوف اذا شاهدت زهرك ذاويا	يف به نحوي شذاء مضيع
وسوف اذا شاهدت ظهرك ينحني	يحن له مني فؤاد واضلع
وحين يخط العمر آخر لثمة	على وجهك العاجي كطرس يبرقع
اذا شئت في التجميد ألقني قبله	فلا يعترها في المشيب التصنع
فن كان مثلي لا يودع حبه	ولو كان قرب الرمس شيخاً يودع

أما اذا صادقت ان فليكس يقبلها مجمدة ، أما هو فحلف مؤكداً ما
يزعم . ولم أعد أراه في هذه الايام الأخيرة لأرى رأيه فيما اختلفنا عليه ،
ولكنني واثق انه كلام شعراء . قد يفعل ذلك إذا انقطع الرزق وضاعت به
الدنيا ولم يفتح له باب فرج ...

وأخر ما نشرته لفليكس في « النصير » قصيدة عنوانها : « ضلال » ،
وختامها يصح ان يكون شعاراً له :

اما الشريف فلا يطأطىء رأسه الا لمن من عنده الانعام
فالمرء تكفيه لعيش كسرة والمجد وممّ والحياة منام

وهبت عاصفة الدستور على البلاد ، فهلت المملكة العثمانية بعدئذ
وكتبرت ثم صار كما كتب الاديب الطريف « حداد » صوت الجامعة
الغراء ، بعد ان تصافح الكاهن والشيخ على المنبر المنصوب في ساحة البرج
شرقي المنشية ، وخطب الناس يحثون على الاخاء والحرية والمساواة ،
وصار اسم انور ونيازي حبيباً إلى كل قلب ، بعد ان زحف احرار
البلاد الى بتدين مركز متصرفية لبنان على عهد يوسف باشا ، فاسقطوا
رجال الدور البائد من المير قبلان إلى نصيف الرئيس الى ... وعدنا
مبتهجين ولكن فرحتنا لم تطل ، فعاد هؤلاء الى مراكزهم ، وبعد ان
كان يوسف باشا يؤمن على كل « اسقاط » طائعاً ، تتمر واحتلّ انصاره
كراسيهم التي ازلناهم عنها .

اما فليكس وصديقي الآخر داود مجاعص فاحتلا المنابر من قوز
إلى تشرين يقفان على كل خشبة تنصب فيهزان القلوب ببيانها وشاراتها ،
وقد ذكرني داود إذ كتب إلي مرة من المانيا بيوم عين المريسة - محلة
في بيروت .

وهكذا جاز أدب فليكس منبرياً هلال له العوام ويرضى عنه الخواص .
كان فليكس يخلق كالنسر وتراه العين كبرج فينيسيا المائل إذ يقف
في الناس خطيباً . عاف الكتابة في ذلك الصيف ولم تظهر له كلمة واحدة
في « النصير » .

ثم صار « اتحادياً » فأنشأ جريدته لسان الاتحاديين ، ولكن الاتحاديين
لم يقدرّوه فظل حيث هو ، وحلّ والده المرحوم حبيب محله ، فكتب
بعض فصول نشرتها في « النصير » ، اولها تقديس نظام لبنان وآخرها

حلات على مجلس إدارة لبنان الذي له صلاحية مجلس النواب اليوم .

وفي نهاية عام ١٩٠٨ تركت النصير لأحرر جريدة الحكمة في جبيل - فاضت روحها يوم شبت الحرب الكبرى - وفي هذه الفترة من العمر وفي أيام الحرب لم أرَ الصديق فليكس ، وقد رأيته بعد الحرب ، فكدت لا أعرفه لأنه كان قد أخذ قسماً كبيراً من شاربيه اتباعاً للزي . ثم تلاقينا مرات على غير ميعاد وظلنا على ولاء ووفاء حتى الساعة الأخيرة .

قد تهوّسنا كثيراً عند سقوط السلطان عبد الحميد ، وامتلأت البلاد جرائد ومجلات . اما أحلامنا فلم يصحّ واحد منها ، وأذكر كلمة قلتها لفؤاد باشا - الدالي فؤاد - حين استقبلناه على المرفأ استقبالاً شعبياً : الاستبداد كالعليق يصعب على الفلاح استئصاله ، فضحك لها لأنه كان ظريفاً يحب النكتة ، وهو الذي قال له السلطان عبد الحميد : ابو الهدى يبلع السيف . فاستضحك وقال : لا عجب ، وزير الحربية بلع الدارعة . فأغضب السلطان هذا الجواب البديهي ، فضرب فؤاد باشا كفاً على رأسه ثنى طربوشه ، ثم صدرت الإرادة السنية بنفيه إلى دمشق وبقي فيها إلى إعلان الدستور فجاء بيروت يلبس الطربوش المبعوج .

كان فليكس محباً ومحبباً ، وما شبهته إلا بشفاليه مانون لامكو . كانت حياته مأساة مؤلمة لولا ختامها الذي أراحه من عذاب القلب . لقد أكل الحصرم ففصرس هو .

هذه واحدة من نكات ذلك الزمان :

كنا ثلاثتنا أنا وفليكس وداود مجاعص ، اما الرابع وهو الشيخ شاهين فكان معنا كشاهد زور ، كنا في مسرح التريانو ، كان موقفه شرقي ساحة البرج محل قهوة الجمهورية او تحتها بقليل ، وكانت هناك غانية مغنية

راقصة كوحيد ابن الرومي . البنت نمسوية التبعة سحر جمالها بيروت فأقبل
على لياليها كبار الموسرين ، فاحترنا نحن الادياء في ذلك العهد - والظفر
يعمي البصر - كيف تنعم يحالها ، والجيب فارغ .

حضرتي حيلة لا اعدم مثلها في كل ساعة حتى بعد هذا التقهقر
الجسائي او الجسداني كما يقول رجال الدين ، فأنكرت اني افهم العربية او
الافرنسية ، ثم هبط الوحي وتطوّرت الفكرة فاذا انا امير سرياني ،
فمرفقوها اليّ كذلك فهزّت المحروسة كنفها ، واشتدّ بها الفضول إلى سماع
اللغة السريانية وأومها فليكس اني ذو ثروة جبّارة ، وكالرحوم ابن ابي
ربيعة اتبّع الجمال . صدقت المسكينة انني ازجي الليرات التي تخرج على
حفاقيها لا التي تطير في الهواء ... فانجذبت نحوي وألحت الحاحاً غنياً
استفدت منه قليلاً ...

ثم تركتنا على ان تعود بعد نهاية الحفلة لتتمتع بفصاحتي
السريانية ... وفي نيّتها ان تعمّق وتقص في جبي حيث الكنز الذي
لا يفنى ... ذاك الذي اختارت مثله المجدلية دون اختها المهمة بامور
كثيرة ...

وكان نصف الليل فما اخلفت الأنسة الميعاد ، رأى الناس تلك الجميلة
التي تدلّل وتتفتّح أمام آل بسترس وثابت وسرسق وبهم قاعدة
حدّة محرر النصير ، فالتجّمت الانظار صوبنا . وكان ترجماني داود مجاعص .
تهجّى داود الايحد سريانياً ، فتظاهرت انني فهمت ، وأجبت بالأبانا ، ثم
تهجّى داود هوّز فأجبتّه بالسلام عليك يا مريم ، ثم ثم ...

وأرادت البنت ان تسمع اللحن السرياني فانشدتها « ميمراً » من مار
افرام بصوتي الذي جاء ذكره في الكتاب الكريم ، ثم آخر من مار
يعقوب ، فقامت ترقص . ولم احرمها نشيد الاموات فطفرت الدموع من

عينها ، فخلت اننا في ماتم ، والدفن قد قرب ، وسيعقبه « شيل البخور » .
وأخذت تطرح عليّ اسئلة غريبة كأنها احد علماء الاجناس ، فيومها
ترجاني داود انه يكلفني وهو لم يزد على تهجئة حطّي وكلمن
وسعفس ، وهكذا قضينا سهرة غير قصيرة لم نسقها في خلالها كأس ماء
بارد ...

ولا تسل كم كانت خبيثها مرة إذ ودعتها بالافرنسية وداعاً مقروناً
بعبارات اكبار للطفها ، واعجاب يجهلها الساحر ، فاصفرت وتبسّمت
قائلة : أنت وحدك غلبتنا ، كنت اخبث وادهي منا ، سأنتقم منك في
الليالي القادمة .

فأجبتها لا يا سيدي ، لأنك لا ترينني . قليلاً ما اجد في كيسي بدل
الدخول ...

فأنستها هذه الكلمة ألها وامتعاضها ، وقالت : تعال على حسابي ،
شرط ان تفعل ما هو ألطف ، فهذه النكتة تزعج ، ولا سيما ان عرفت
بها زميلاتي .

فقلت : انك تزعجين بلاداً بأسرها ، فما عليك لو غلبك واحد
منها ، واخذ بثأرهم من دولتك ... انت ما دفعت حق جمالك .
أمسيحية انت ؟

فأجابت بعبارة التعليم المسيحي بالحرف : نعم بنعمة الله أنا
مسيحية .

قلت والمسيح قال : مجّاناً اخذتم مجّاناً اعطوا ، انا لم آخذ من
رأسمالك شيئاً .

وان كنت وثنية فملاك تذهب الى الهيكل وانا ابن بلد ادونيس ...
ورأيتها بعد ذلك مرّات ، فكانت تقابلني بإبتسامة وهزّ السّبابه ،

ولكنها لم تعلق على الدبق .

وظلّ فليكس طول حياته يسألني كلما التقينا : كيف السريانية في هذه الايام ؟ .. فتنبض امرتي وامرته ، ونقبع كلانا في الزاوية كالرتلاء في بيتها تنتظر ذبابة مارقة لتدعوها اليه ...

ديوان الشببي

إن كنت ، ممن تستهونهم الالقب الداوية ، فالحديث الآن عن وزير خطير صاحب معالي ، وعين من اعيان الدولة العراقية الجليلة . اما الذين لا يذهب بوعيمهم افيون المناصب الخطيرة ، فأحدثهم عن محمد رضا الشببي الشاعر فقط .

هب ان كرسي الشببي وسع السموات والارض فهو ، لا محالة ، زائل ، اما ديوانه فباق . وهل يعنينا اليوم من ان الطغرائي غير لامية العجم ؟ ان لقب ذي الوزارتين وصاحب المعالي زائلان ، اما اللامية والديوان فميراث الذرية .

الشببي واحد ثلاثة من شعراء العراق ، وكان الثالث — ومهده الشرق — يتجلى عندنا دائماً حتى في الشعر . ففي الجاهلية والاموي والمصور العباسية حتى ايامنا والتقسيم مثلث ، والشعر مدرسي كله ، وهذا ما تواجهه في ديوان الشببي . إذا قلنا الزهاوي كأبي العتاهية ، والرصافي كالبحتري ، مثلاً ، فالسيد الشببي كالشريف الرضي .

الشببي شيخ معتم . لست اعرفه معرفة عين ، ولكن البادي من رسمه الوقور انه في خلقه وسمته اشبه بشاعرنا الكبير امين بك ناصر الدين ، المتزوي في كفرمتى ، وفي الزوايا خبايا . فهذه الديباجة العباسية المتماكة كالدمقس ،

اللماعة كالارجوان تقرب ما بين الرجلين ، وهذه الثورة الملتفة على نفسها التفافاً
لولبياً كالإعصار هي هي في ديواني الشاعرين .

رأيت رسم الشبيبي فخلته يفسدني : كليتي لهم ، يا أميمة ، ناصب . وتحطيت
الى الديوان فاذا فاتحته :

لم يبقَ لي إلا الشباب وانه ديباجة ضمن الاسى إخلافا

وايقنت ان الليل الذي يقاسيه بطيء الكواكب حقاً ، إذ قرأت :

كلاني اكبد في العراق بلية وليلاً بأرجاء العراق بهما

ولكنه يصرح بعد تدار فينفس عن آلامه المقهورة :

ألا مدرك هذي البلاد واهلها فقد لقيت من جور ساستها جهدا

تقرغ أيدينا لتملأ جيبيها وتتهكنا جوعاً لتشبعها حمدا

وتزول الشبهة متى قلنا انها من نظم سنة ١٩١٤ . ويبدوله تخاذل
قومه فيقول :

وقبل تقاربنا وهما نحن جيرة ولما بدا الصبح انتنى قربنا بعدا

وكأنه قد آيس من كل ما رجا فقال :

كيف اتحاد بني الدنيا وم بشر موزع بين اشكال واقسام

العلم علم خرافات وشعوذة والدين دين منامات واحلام

موحدون ولكن عز انكم نتم وقد نهضت عبادة اصنام

وان ما بين آرائي وبينكم بعدا كما انقضت ابعاد اجرام

والشاعر كالتي تشغله شؤون الجماعة كأنه وصي عليها ، وهذه احدى
طبائع الشعراء الكبار ، فهم وكلاء الامة الجبريون ، والمسخرون ايضاً . ولولا
ذلك ما عناه من امرها ما عناه :

لولا التفكير في مصير بلادكم فافه ما ضاقت علي بلاد

والسيد الشبيبي على رأي بطاركتنا القدماء الذين رأوا في شق طرق

المركبات انتهاكا لحرية الجبل ، كما رأى شاعرنا في خط بغداد فقال :

مدوا الحديد وما اهتزت لمده سكك الحديد بأرضنا اصفاد
طرق الحديد إذا التوت وتشابكت شرك به شرف العراق بصاد
وللشاعر في هذه القصيدة المسماة « الباكية » زفرات حرى ولاسيا حين
يرى الزعامة سلحت لزعانف :

انظر الى الاعجاز كيف تصدرت وعماثم السادات كيف تساد
ثم يهيب بقومه النيام :

غفوا وعيوني للعراق طوامح وشابوا وودي للعراق صراح
ويرى سوء فهم الدين علته ما هنالك فيهتف :

ولو انصف الناس الديانة أجمعوا على انها فيهم نتيجة وجدان
ولكنهم حتى ذوها وأهلها يمدون عن عرفانها بعد كيوان
كان لم يكن انجيل عيسى بن مريم ولا أوحيت قوراة موسى بن عمران
انا شافعي ان لم يكن لي شافع إلى الله ، ثم الحق حي وایمانی
وفي البيت الأخير معارضة للذي قال : الحب ديني وایمانی . أما هذا
الانكاش قانون محلي يخلمه الاستيطان على الشعراء كما يخلمه على الطيور ، والشعراء
طيور خالدة .

ولا يسكت الشاعر السيد - كالامام علي كرم الله وجهه - وفي الحلق
شجى وفي العين قذى ، بل يصرخ :

يا قوم ، ما الدين عادات معطلة وانما الدين تحليل وتحريم
لا تجمعوا آلة التفريق دينكم فالدين عن وصمة التفريق معصوم
وعلا بالقاعدة الذهبية : ابدأ بنفسك ، يعتف النجف الاشرف بقوله :
مق اذا حث اقليمى شفاشفه عجت رد صداهن الاقالم
اظهرت بعض غناء لست اكتمه لكل جلّ غناء النفس مكتوم

اللهم فرجاً . وكأنه يشئ من تقويم الخطب فعاد الى النصون ، فقال
يخاطب الشباب في صيداء :

انتمُ جيل جديد خلقوا لعصور مقبلات جدد
كونوا الوحدة لا تقسحها نزعات الرأي والمعتقد
انا بايعت على ان لا ارى فرقة هاكم على هذا يدي

ثم يصفر مخضوضر الرجاء فيقول في ساعة سوداء ، وللشعر ساعات :

شباب طائش نزع وشيب ما بهم رمق
وشعب طالب ثقة فدلوه بمن يشئ
ففي آرائنا شيع وفي أحزابنا فرق
قد استشرى خلافتكم الا يا قوم فاتفقوا

وسئم عنعناتنا وتفاخرنا بالقديم كأننا البطاطس خير ما عندنا تحت
الارض ، فقال :

زلت حديثاً أمة ابداً تفاخر بالقديم

أما المرأة فما منحها الشبيبي طرف عينه الا ليقول لها : إلزمي البيت :
بتدبير المنازل هن أولى وهم أولى بتدبير النزال

وفي قصيدته « روح الرسول » نفحة من اخوة كرامازوف إذ يقول :
واكبر ظني لو أنانا محمد لللقى الذي لاقاه من أهل مكة
اذن لقضى : لا منهج القوم منهجي ولا ملة القوم الأواخر ملتي
ومن عين شمس اليقين ضياء ينتقل الى ظل شك عابر فيقول :

فيا عالم الليل هل رجمة الى عالم منك اوفى سنى
ويا ايها الازلي القدير أسارك نحن فرقةً بنا

وتتوالى المحنة فيقول :

يظنون هذا العصر عصر هداية وأجدر لو ندعوه عصر ضلالات

فان خرافات مضت قد تبدلت حقائق الا انها كالحرافات

ثم تظلم الفكرة وتضيء في وقت مما :

خبرونا عن السماء وقالوا فلك دائر وشكل كروي

ربما صح ما رأوه ، ولكن خير رأيك ما يراه النبي

ويتزع نزعة صوفية في قصيدة بين العقل والقلب ، ولا يحجم عن لزوم ما لا

يلزم ، ثم يصرخ من وجد اللحم والدم :

يا واردي ماء الحياة تذكروا أننا عطاشى

ويشد به الوجد فيخرج من جلد رصافته ، والحب خداع يصنّر العظام

فيقول :

لولا انفراد أحبتي بخصالمهم ما سار لي في الدهر بيت مفرد

يتجسد الطائي بي وقريضه والبحاري من الفحول واحمد

وتترامى له الدنيا كمفطة عز فيلقي - كالإمام - حبها على غاربها ويقول

قبل ان يختم باب الوجدانيات :

انا من ستر الكواكب شعراً تتوالى بكم فيملأن كتي

ربما جاء في القريض نبي هم نسخ آية المتني

بيد ان تلك الآية لم تسخ ، ودليلنا على انه كان يمزح ، هو قوله

لسيد الشعراء في ذكره الألفية :

يا شاعراً قاد القلوب لغاية لم يدن منها شاعر او قائد

اما رأي السيد الشيبني في الشعر فكرأي بشار :

متى خيروني في الكلام ونسجه رضيت بسيط القول لم اتائق

وأحزنه تقصير المتأخرين فقال :

أهم بسر الابتكار لانني وقد طال عهدي لا أرى غير ناقل

فما حبه يا ترى في حصون القدماء حتى لم يجد عن دريهم قيد

شعرة ؟ لعله رعيه الحقوق كما قال :

ولولا حقوق رعيها لي عادة لكان لمهري أينما جال ميدان
ورياضة النفس على الاخلاق الفاضلة تحمل المحل الاول عند السيد
حقى قال فيها :

أصحّ عباد الله ديناً ونحلة مجاهد نفس لا المصلي المسبح
ولا بدء من القول ان براغيث الحب اكلت الشاعر الشبيبي حقى قال :
تفاهمتا عيني وعينك لحظة وأدركنا ان القلوب شواهد
وكان الحبيبة اعجبها منه ذلك ، فقالت له : ثنّ ، فلم يجعلها بيضة
الديك فقال :

وأسهرتنا الشهب الحاكيات عيوناً يشاركتنا في السهر
هذا البيت من قصيدة عنوانها : « حديث القمر » ويا له حديثاً
علياً لذيذاً فاقرأوه في الديوان .

وخير ما نختم هذه الكلمة عن الشاعر هو قوله :

فتنة الناس ، وقينا الفتنا باطل الحمد ومكذوب الثنا
كلنا يطلب ما ليس له كلنا يطلب ذا حقى أنا ا
ايها المصلح من اخلاقنا ايها المصلح ، الداء هنا
صدق الشاعر ، وعجز الناقد عند هذا الطمع الاشعي قصير خلاشه
اعداده . أما السيد الشبيبي فحسبنا وحسبه ان حمدنا له حق وتناءنا
عليه غير مكذوب فيه .

أحمد الصافي النجفي في تياره

١

في ثاني نيسان لا في اوله حمل اليّ صاحب البريد كتاباً على غلافه اسم احمد الصافي النجفي ، فراعني ان يكون « التيار » لأنني كنت قرأت في السياسة الاسبوعية ان الشاعر قال لواحد - نسيت اسمه - إن تياره سيجرف الشعراء اجمعين ...

وقفت عند هذا الكتاب وقفة النابغة في دار مية بالعلباء فالسند ، فمنوانه مكتوب بالقلم الكوفي المشجر فكان كقرص مشبك ، ولولا ان هناك عنواناً في قلب هذا ، لما قرأته وبرد قلبي . شكرت ربي لأنه الامواج ، فالامواج قد غاشيها أما التيار فمن يحاربه !..

ثم حالت شؤون هزل اشغالها جدّ دون مطالعة الديوان حتى ذكرت ان للصافي مقاماً بين المعاصرين لا يبعد أن يظنه هو ك مقام المتنبي بأرض نخلة ... وظللت أروح وأجيء حتى خفت أن يموت العام ولا أقول كلمتي فيه ، ولا سيما ان الكتب تتكاثر على الرف فأخذته . لم أطور أول صفحة منه حتى عرض لي عارض وكانت التجربة . قلت لنفسني كإني أحدث

شخصاً غريباً عني : بأي وجه تقابل عبارة الصافي الكيئة وثناء العاطر عليك ؟ قاتل الله النقد ، انه يسود الوجه . تذكرت التقائي بالصافي قبالة السراي الصغير في بيروت وتعرفني به ، وما أعقد من عبارات اعجاب ، فما كدت أمسك القلم حتى أفلته . لا أفكر بما أقول في الديوان حتى يتراءى لي شبح الصافي اللئيم فأتمثل نظراته التائهة البريئة ، فوقفت كالغريب في مفرق الطرق ، حائراً .

وبقيت هكذا زمناً حتى قالت لي نفسي : ما تراه يكون لو ضحيت باخلاصك للفن والشاعر ؟ ثم ما قيمة هذه العاطفة السامية ... وهي سكوت ونوم ؟ أتباع بفلس لو نادوا عليها في اسواق الادب ؟ ولماذا اهدى اليك الشاعر ديوانه ؟ اليس لتقول كلمة فيه ؟

فتنبهت اذ ذاك لمهد قطعته ، يوم كتبت الكلمة الاولى ، فقهرت عاطفتي والقيت قاربي في « امواجه » ، فعمى الاغضب الصافي كما اغضبت سواه من رفاق واصدقاء وخططاء صبا وشباب .

٢

حقاً ان ديوان الصافي امواج فيها من كل شيء . وما اشبهه بليل امرئ القيس ...

الصافي بائس حقاً ، وشعره بله المبالغة ، ينم عن يؤسه . ولكن البؤس ، وحده ، لا يعمل الفنان . اما البائس فيعمل شعراً ان كان ذا قريحة كالصافي ، وبين الشعر والفن مسافة لا يحوزها الا من يؤمنون ، ولا يشكّون كالصافي . ان في الشعر فناً يثقف بُنيات القرائح وحينها .

ومشى القلم رويداً رويداً فأخذت انسى انني عرفت الصافي ، ثم بعدت

الشقة بيني وبينه فنسيت كل شيء ، إلا ان للصافي ديواناً أهداه إليّ ، وقد خرج هذا الأثر من يده وصار ملكاً للأدب العربي ، فملينا ان نصدق صاحبه القول ، كما نصدق النصيحة سواء ، ليعالج شعره العتيق فيستقيم له الفن والشاعرية ، ولا يحيا شاعراً بلا فن .

وسألت نفسي : أتعرفين يا هذه ، بماذا يحرف الصافي الشعراء اجمعين ؟ فميتت جواباً . فرحت أساءل : أبلواضيع ؟ انها وحدها ، لا تعمل شاعراً ، فقد يكتب نثر أروع منها وارقص . أبالنظم ؟ فهو يعترف انه لا يصنع شعره بل يرسله كما خلقتني يا رب . فهو في الفن على دين الشاعر القائل :

ارت المليحة من كانت محاسنها من صنعة الله لا من صنعة البشر

هب الصافي « لامتري » اما عاب عليه نقاد القرنجة استسلامه لقطرته ؟ وهل يظن الصافي ان الاغراض وحدها تجعل الرجل شاعراً خطيراً ؟ قد تجعله فيلسوفاً اما شاعراً فلا .

فشاعرنا المرعي نظام في أكثر لزومياته ، وان أغرق في حبكها وتقييدها بالقيود والأغلال . اما شاعريته الفذة ففي نثر « رسالته » . ما أشبه منظوم فلسفة « لزومياته » ، من بغض انسان وحب حيوان الا بألفية ابن مالك . ولولا ما فيها من شعور يكاد يتقد لبرئت منها الشاعرية . والشك ! هل يعمل الشك شاعراً ؟ فكم من أناس شكوا حتى قتلوا ، كابن القدوس مثلاً ، ولم يرفعوا إلى سرر الشعراء الكبار لانهم شكوا وقتلوا ليس غير ...

بيد ان هنالك موضعاً آخر لشاعرية المرعي هو في شخصيته . والصافي من هذه الناحية ، شاعر أيضاً لو انه تأني كالشعراء وهذب شعره كما هذبوا شعرهم . فحب الحيوان لا يعمل شاعراً ، اذا لم يتكلم

الشاعر والحيوان معاً بلفة الشعر ، اذا لم يحسد الشاعر معانيه الطريفة
بألفاظ تأتلف حتى تكاد تـرنّ وتطن . فالشعر موسيقى قبل كل شيء
آخر ، والا فالتـر خـير منه وابقى . ولو كان ملاك الشاعرية الكبرى
عطفاً على الحيوانات لكانت جمعية الرفق اعظم شاعرة عالمية . ان ما
كان بدعة في زمن فيلسوف الشعراء وشاعر الفلاسفة صار اليوم مبتدلاً ،
والشعر لا يحيا الا بالطراقة .

وبعد فليس للناقد ان يعارض الشاعر في اغراضه ، بل ان ينظر
فيها . وقد فعلنا فرأينا ان العناصر التي تتألف منها شخصية الصافي في
أمواجه ليست جديدة ، فهو لم يكتشف اقليماً جديداً ولكنه توسع
وتبسط في وصف اقاليم عرفناها فأثابنا بشعر هلـل النـسـج ولكنه صادق .
الصافي شاعر ولكنه لم يحذق فن الشعر بعد ، فما احوجه الى ديباجة
متينة مشرقة كالتي للرصافي — لو قلت رواصيها « الكليشيات » — اما
اذا كان يطمح الى شاعرية كالتي للزهاوي فليسترح ، لقد وصل . إلا
ان هذه الشاعرية العنـاهية — لا يعمر منها طويلاً إلا القليل مثل قوله :

يا للشباب المرح التصابي روائح الجنة في الشباب

وهذا قليل بل ندر في شعره الكثير . أما ما كتبه ابو العنـاهية على
كسر الجرار للفتيان والفلـان فقد هلك ، كما تهلك الاعشاب اذا اشتد
القيظ فلا يبقى إلا الزرع يرتقب الحاصدين ليفضض مناجلهم .

ان اكثر الذين حدثونا عن الصافي ودلونا على شاعريته لم ينظروا إلى
فنه بل عبروا لنا عن تأثرهم باغراضه . فخلعوا على الشاعر جبباً فضفاضة
لا يشبهها شيء غير أعطيات ملوكنا ، في ذلك الزمان ، اجريت على
الشعراء الوقا وكـرّات ، واعطوهم من الجمل اذنه .

قال رينه دوميك الناقد الفرنسي بمعرض كلامه عن جيل لامر الناقد

الآخر : « كل حكم فني ليس له مقاييس مستقلة عن شخصيتنا تبطل قيمته متى انسلخ عنا وانفصل ، فلا يكون الا وصفاً للذات شخصية قد لا يشاركنا بها احد . وقد نرى نحن رأياً آخر اذا قرأنا ذلك الاثر الادبي مرة أخرى ، وذلك لاننا نحن نتغير . فمقياس الفن يجب ان يكون غير الثابت والمحافظة . أما اذا كان النقد هو ما تتأثر به نحن لا غير ، فتلك هي القوضى في الادب » .

٣

ينبئنا الصافي انه لا يُعنى بشعره ، فهل هذا يعنيه ؟ فلشعر لغة غير لغة النثر لا بد من امتثال طريقتهما لمن يقوله . وان نسأل شعراءنا شيئاً فهو الخلق والابداع ، ليس في الاغراض وفي المعاني فقط بل في التعابير التي تتغذى من حياتنا الحاضرة ، فنحس بها كما فعل شعراء العرب في كل طور . ان التعابير صور اجيال مضت تقرضها عليك كتب الادب ومعاجم اللغة ، فاقبض منها ما لأم انواقنا ودع التعابير الشائخة الهرمة كالاغصان المكرفحة . ان القضب في اعمال البستاني كمخافة الله في حكمة الاقدمين ، ولهذا نطلب من هواة التجديد في ادبنا المعاصر ، تعابير حية لصور ومعانٍ حية .

ولم لا يكون للشعر لغة خاصة ما زال للسهرات أثواب ، وللمراقص لبوس ؟ فهل من يلومنا اذا اوعزنا إلى اخينا الصافي بأن لا يدخل ديوان العرب ببذلته هذه ؟ فأبي عنبر لحساء ، ونحن لم نستمع لها حتى تدخل علينا منبوثة الشعر ، دماء الشباب ، تقوح من اردائها رائحة المطبخ ؟ !

فالادب لا يثبت إلا إذا استقام له اسلوب وتعبير رائعان بعيدان عن التقليد والابتذال ، تستقر بهما العاطفة الانسانية بجانب العقل الرشيد . اذا كان الالماس يثمن ويسدس ويخرط ليفوي ويفري ، ثم ينحت ويصقل حتى يكوكب فكيف بالشعر ؟ هب المعنى الماساً ؟ فمن رأى رجلاً تخلّى بالماسه فصرّها في طرف منديله ؟ انه يحمل لها ظرفاً من الذهب الابريز ويغالي في زركشته . ثم من رأى زهرة بلا كم ؟ هب المعنى عبيراً فهو لا يطيب لنا محبوساً في قارورة كما نشتناقه ابتسامه في فم الزهرة .

فلا يتوهمن احد اتنا ندعو الى جمال التعبير على حدّ قول الناظم :
وما مثله إلا كفاقع حمصٍ خليّ من المعنى ولكن يفرق

فما هذا غرضنا ، اتنا لا نبتغي إلا معنىً طريفاً في قالب ظريف تتحد فيه كل الفنون الجميلة ، فالموسيقى والتصوير والمثالة والمارة كلّها من اعمال الشاعر ، وان ظن انه لا يتكلف شيئاً منها . يا له حملاً ثقيلاً يلقيه الفن على ظهره ، فكم يجب أن يكون قوياً !

أجل يجب أن نحسّ الموسيقى والتصوير والمثالة والعمارة في قصائد الشعراء ، والا فهي كلمات مرصوفة لم ينفخ فيها الفن من روحه . الأثر الأدبي تصوير قوامه الشعور وتوافق الألحان وموسيقاها ، والشاعر بناء استاذ يهتم بالتآلف الفني بين بنيانه حجراً حجراً ومدماكا مدماكا ، ثم البناء يجملته . ومثال حاذق ترقص الحياة تحت ضربات ازميله وتشرّيب كلما رفع مطرقة .

إن مهمة الكتاب وخصوصاً الشعراء شاقة جداً ، ولهذا لم أتعبج حين قرأت في مجلة « الطليعة » كلمة كاتب افرنسي هذا ملخصها :

« نحن الكتاب أقل الفنانين عملاً ، فالمصور والمثال يصرفان نهارهما

في معملها ، أما الكاتب فلا يجلس الى مكتبه إلا هنيهة ، بعد أن يحوم حوله ساعات ولا يقع .

تلك حقيقة لا تجحد ، فالكتاب كسالى والشعراء عجالي . تتوهم ، كلما سوتنا ورقة ، أننا نسطر وحياً بلا جبريل ، ونخضع لمشيئتنا الإلهية والإنسانية ، الف سطنائيل ... ولا يُحرّونا على هذا إلا قلة النقد : بالمعنيين .

وعندي ان أدبنا هذا لا يهتدي الصراط المستقيم ما لم تقم عليه وصاية نقد صارمة ، فنحن اليها في الأدب أحوج . السياسة عَرَضُ أما الادب فجوهر ، والأديب الحق المخلص لبشريته يخلق أمة ، إن لم يكن الآن فقدأ . ومن يعترف بكفاءة وجدارة أمة ليس لها أدب صحيح ؟ ألم نَرَ الأمم تشهر الحروب اليوم بإسم العلم والثقافة بدلاً من الدين ؟

نحن في حاجة الى أقلام لا تراعي في المنام خليلاً ، وأول واجباتها تقدير الموهوبين كالصافي مثلاً ، ليدعوا مبنى ومعنى . وهناك واجب آخر أقدس وهو الدفاع عن الأدب ضد الدجالين المفرورين ، فأَيُّ سوق بلا مراقب ؟ ان سوق الحضرة له شيخ ...

وقبل ان نكون فنّانين وكتاباً يجب ان نكون رجالاً - كما قال بروتير - أما الرجل والشاعر فوجدناهما في صاحب الأمواج ، فمسي أن يقذف تياره الى شط العرب درر الشعر الخالد ، ونرى فيه الشاعر والفنان معاً . الشاعر الفنّان من يقطع المسلك الوعر ويشقّ طريقه في الغابة المزدراء ، أما من يسلك المسلك ويمشي القافلة فلا رأي لي فيه ، فليسم نفسه ما شاء .

« لا يكفي أن تقول شعراً - والكلام لـ « فاغيه » عن لامرتين - يندر الحصول عليه من عمل السجية والقرينة ، بل يجب أن تقول شعراً من

عمل الفنان لا من وحي الجن كما اعتقد المرحومون اجدادنا وغيرهم من شعراء الشعوب . وبكلمة أوضح ، يجب ان نقارن القريحة بالفن لتلد الشاعر . ويمكن الصافي أن يكون شيئاً من هذا ولا يكلفه الا أن يمرج على منسج دمشقي ويقف متأملاً ...

لا بأس على الشاعر أن يكون كجواد امرئ القيس حين يقيد أو ابد موضوعه ، أما اذا بلغ الممثل التهذيب فليستعن بالصبر والآفة ، بل فليكن أبلد ستة الشاعر جميعاً ...

أما جمال الشعر فجبال داخلي ، جمال نفسي ، يشع من الألفاظ كالخمر في كأس بلورية ، فتتحد الالفاظ بالمعاني اتحاداً كلياً فتصير كخمرة الصاحب بن عباد وانائها . ومن هذا الجمال الذي لا تحيط بوصفه الكم والكيف يأتيه السناء الفائق كالذي يلوح في « الحيا » الساحر « بارقا » لو رآه الأخطل الصغير لما أرسل دمه فقط ... وليقل الريحاني ما شاء .

٤

قلنا في الفصل السابق ان الصافي توسع في اغراض قديمة - ومن شاء فليسم هذا تجديدأ - فضعف تمبيره وتشوش عليه التركيب . وقد أدرك هذا قبلنا أحد النقاد الافرنسيين - أظنه بروتيير - فقال : « ان التجديد يتعب الفنان ويمجزه » . فكما ان المثال لا يستطيع ان يصير الصخرة من الروائع بضربة واحدة ، كذلك لا يقدر الشاعر ان يبدع في أسلوب ما لم يتأن كثيراً . الى هذا أعزو ضعف التركيب في شعر الصافي . فالأسلوب القصصي الذي يتعمده تموزه تعابير جديدة وأنماط حديثة ،

وقوالب طريفة ، يصوغها من معدن الكلمة ، فهو لا يحتاج فقط الى كلمات يبحث عنها الشاعر ويضعها حيث استرخى شعره فيشد ، بل يحتاج أيضاً الى ألفاظ سائرة لا يفتني عنها غيرها ، ولا يتم المعنى إلا بها . واللفظ السهل لا يشتد ولا تأتلف ألحانه إلا إذا كان قائله كالبحتري أو كالأعشى حين قال بلسان السؤال :

فشك غير طويل ، ثم قال له اقتل أسيرك اني مانع جاري

فهل رأيت لفظة غريبة او شديدة ، فمن أين جاء الشعر هذا الاسر ؟ هذا هو سر الأدب الرفيع . ومن هذا المنفذ تتسرّب الركاكة الى شعر الصافي كما يلج الميكروب جسماً غير منيع . ويفضح هذا العيب فيه تقارب اغراضه وتمائلها ، فيبدو لك من بعيد كالعنزة البلقاء ، ففي تنوع الاغراض سارة الشعراء .

اقرأ قصيدة الصافي « الليل والنجوم » التي مهد لها الزهاوي فقال لنا : « انه اكتشف نجماً جديداً » ... ففي هذه القصيدة ترى ديباجة رصينة بل عبارات ألقتها وتعودتها ، فمن أين هذا ؟ إنه أتى من تقليد الصافي للمتقدمين في المعاني والصور ، فتوفّر على تصويرهم ، وأذاك « برواحهم » التي يجترّها كل شاعر فقال لك : بحر الفسق ، ونبل الحدق ، ورث الجبل وخلق ، ونهر الجرة انبثق ، وفحمة الليل ، وقرن الشمس ، وعمود الفجر ، وقدرح الزند ، والفرقدان صاحبان ، والأفق درع ، وأحمر قان ، وأبيض يقق ... وهلم جرا من هذه البضاعة التي كبّلت وتكبّلت الفكر العربي .

ليس يضير الصافي قولنا إن اغراضه غير جديدة ، فأمثاله كثيرون ، وحسبه هذا التوسع لولا الذي فيه من رخاوة . فالفكرة لا تنمو في الزاوية التي ولدت فيها ، بل تتجاوز حدود القرية وتجوّم البلدان وتهاجر كالناس ، ولكن بلا جواز ... فدولة الأدب لا قناصل فيها ولا سفراء

للتأثير ، وكل فكرة « مرغوب فيها » لا تبعد ولا تنفى بل تتطور
وتتكيف وتثري من هجرتها . وهكذا تتلاقح الادمغة الخصبة وتتوالد ،
كما رأينا بين ألفرد دافيني وسعيد عقل في بنت يفتاح ... فلا يخشى
الصافي ان يصير جداً بلا احفاد ، كما قال ، فالأفكار تتناسل وتحيى
وتبقى ، وأخلدها اصلحها .

واذا قلنا : ان هذا تأثر بذاك ، فلا نعني ان هذا الزواج المبارك
يعقب دائماً ، بنين صالحين من ابناء السلامة ... فالمعري ودائقي
واغوسطينوس ، ومن لفّ لفهم تأثروا برويا يوحنا حين حدثونا عن نعيمهم
وجحيمهم . اما اولئك النخاسون الذين يسرقون اولاد الناس بشحمهم
ولحمهم ويدمون آذانهم — لا عفا الله عن آذانهم الطويلة — فما هم الا قرصان
بجر وصعاليك ليل .

اما الصافي فلا يقفوا اثر أحد ، وليس في شقيقته على الحيوان تقليد
للمعري ، كما ان تبرمه بنا نحن البشر ليس كتبرم ذاك . وإن تمادى فرأى
الحيوان خيراً منا ، فقد قال شاعر قبله :

عوى الذئب فاستأنست بالذئب مذ عوى

وصوت انسان فكدت اطيّر

تلك ساعات سوداء ، أوجت إلى الصافي ما قال ، وما أكثر سويداء
المريض . اقرأ له من قصيدته « للبرغوث العاشق » :

وإن أصل ربوها أصل في محرابها
الشمها من فرعها لمتهى كعابها

لتعرف ان عنده ما عند البشر ، اولئك القروء الذين انحطوا
فصاروا ناساً ، كما قال فيهم :

فالقرد يعمل ما توحيه فطرته والمرء يعمل ضد العقل والسنن

وهل يعمل الانسان يا أخي بغير فطرته ؟ وهل السنن غير لجام لها ؟
فتى صار الرسن شريمة ؟ .. اقرأ قصيدة البرغوث ترَ حبا ساذجا
وغزلا فطريا ، لتعلم ان اخانا الصافي غضبان علينا وحدنا نحن الجنس
الحسن ، الثقيل الدم ، وتدرك ايضا ان شاعرنا قاعس الجد فيختم
« برغوثيته » بقوله :

وان تصدني كفها أمت فدا شباهي

حلو هذا الوفاء ... سلت يا اخي ، وعدت بخير من رحلتك
المضنية . لقد صدق العرب : السفر قطعة من العذاب .

والصافي فائر على كل شيء ، وراض عن كل شيء ، واظنه يفتش عما
يشور عليه تفتيشا ، وفق الله سعيه ، ولهذا يصعب علينا الآن تحديد
اتجاهه في أمواجه ، أو نقول من يشبه . فهو لا يشبه إلا احمد الصافي
النجفي ، بل لا يشبه ذاته في قصيدة وأخرى . إني لملئ يقين أن
الصافي يحلل لنا نفسه في مواضيع عديدة ، ولكننا لم نظفر بعد بصورة
واضحة الدلالة بألوانها وخطوطها ، فلا أدري اذا كانت نفسه معقدة
بهذا المقدار فلم يوفق الى تحليلها . فبدلاً من أن يرينا الصافي نفسه أرائنا
مبازله ، وما عنده من آلة فجاءت وجوه بعض صوره مقرفة ... خبرنا
عن عواطفه خبراً ، ولم يتغن بها كالشعراء ، فكالمقرر عندي انه لم يجد
نفسه بعد ، فهو في لبكة عوادي يصلح أوتار عوده المشوثة ، أو كالسديم
الذي يدور على ذاته ليم فور ، فمضى أن نرى كوكبا ساطعا
وشابا ناقبا .

والصافي في أمواجه كطفل يبكي ، فما نحن ندري ولا هو يدري ما
يريد . فيبينا نراه يحنق على قارة وينصب لها مصيدة اذا به يطلقها ،
والمفوء عند القدرة جميل ... ثم يزعجه ديك فيتمنى له الذبح ويشتهي
ان يكون له ابن آوى لولا السياج المحيط به ، اسمها شعراً :

فلو أَسْطِيعُ كُنْتُ لَهُ ابْنُ آوَى وَلَكِنْ قَدْ أَحَاطَ بِهِ سِجَاجُ
 الْعَهْدِ بِالشَّعْرَاءِ يَجْتَوْنَ الْمَوْسِقَى وَالْجَمَالَ ، وَالدَّيْكَ مَوْسِقَارَ جَمِيلٍ ،
 فَاتَّةَ أَلْوَانِهِ ، وَشَتَانَ مَا بَيْنَ فَارَةِ وَدَيْكَ ، وَلَكِنْ الصَّافِي مَوْلَعٌ
 بِالتَّقَائِضِ . أَمَّا مَا يَبْدُو لِي ، الْآنَ ، مِنْ اتِّجَاهِهِ فَهُوَ مِيْلُهُ إِلَى الْوَصْفِ
 وَخُصُوصاً مَا يَخَالِفُ مِنْهُ الْعَرَفُ ، فَيَسْتَخْرِجُ حِكْماً وَعِبْراً كَشَعْرَاءِ الْعَرَبِ
 الَّذِينَ تَوَهَّمُوا ، أَمْسَ وَالْيَوْمَ ، أَنَّ الْحِكْمَةَ خَالَةُ الشَّاعِرِ ، وَمَنْ لَمْ يَقْلُ
 الْحِكْمَةَ فَهُوَ عِنْدَهُمْ كَمَنْ لَمْ يَزِرْ حَلَبَ عِنْدَ أَخِينَا بِشَارِهِ فِي مَتْنَبِيئِهِ ...
 وَهَذَا مَا أَقْصَى شَعْرَاءَ كَثِيرِينَ عَنِ الْفَنِّ .

وَيَعِدُ ، فَلْيُتْرِكِ الصَّافِي عَلَى كُلِّ مَا تَوَاضَعَ عَلَى إِحْقَامِهِ الْبَشَرَ الْإِدْبَاجَةَ
 الشَّعْرَ وَالْفَافِظَةَ وَالْقَوَاعِدَ النَّحْوِيَّةَ ، فَإِنَّ أَزْدِرَافَهَا أَزْدَرَى مِنْهُ . لَمْ أَرَ لَهُ
 ضَرْباً فِي هَذَا النَّحْوِ إِلَّا فَرَنْسِيْسَ مِرَاشِ الْحَلِيبِيِّ ، كَلَامَهَا حَافِلَ التَّجْدِيدِ
 وَكَلَامَهَا لَمْ يُوَدِّ إِدَاءَةً حَسَنَةً ، وَالْفَرْقُ بَيْنَهُمَا أَنَّ الصَّافِي لَا يَنْقُصُهُ إِلَّا الْجَلْدُ ،
 أَمَّا مِرَاشُ فَفَعَلَ مَا أَطَاقَهُ .

أَيُّ ضَرُورَةٍ قَضَتْ عَلَى الصَّافِي أَنْ يَقُولَ :

إِذَا « رَجَعْنَا » الدُّيُوكُ » وَصَحْنَا « حِينَا
 فَذَا طَوْلَ الظَّلَامِ لَهُ هِيَاجُ

ثُمَّ قَوْلُهُ :

وَكَمْ « ضَمْنٌ » مَنِي فِي خِيَالِي لَذَائِدِ

فَلَمْ تَبْقَ لِي مِنْهَا وَلَا لَذَةُ الذِّكْرِ

مَا لَنَا وَالْبَحْتَرِي ، وَلَكِنْ أَرْضَى بِهَا غُلْطاً ، كَأَنِّي بِهِ يَرِيدُ أَنْ يَتَابَعَ
 عَمْرُ بْنُ أَبِي رَبِيعَةَ حَيْثُ قَالَ :

« رَأَيْتُ » الْغَوَايِي الشَّيْبَ لَاحَ بِعَارِضِي

فَأَعْرَضَ عَنِّي بِالْحُدُودِ النَّوَاضِرِ

وكن اذا ابصرني او رأيتني

سعين فرقم الكوى بالمحاجر

فلو قلنا لمر مغفورة لك خطاياك لاجل هذه الصورة الجميلة ، أنقول ذلك للصافي وهو لم يخبرنا الا ان الديك يلج في صياحه ... فما أحسب الصافي قد ارتكب هذه الاخطاء الا عمداً ، لانه يجب الاخطاء كما ستري ، أو أن عرفته تذكره دائماً بلفظ « اكلوني البراغيث ! » كفى لفتنا هذا التمتع والتعطط في قواعدها وألفاظها . ثم ما أجبره على القول : « فلو بأية حيوان تبدلني ؟ » وعلى القول :

احشاما باليات كما (بلت) احشائي

ما لنا ولهذه الاخطاء الآن ، أفلا أظفر بتعبير جديد في ديوان قرأته من الدقة إلى الدقة ؟ فبماذا تفوق امرؤ القيس وعمر حق قالوا بها : اول من قيّد الأوابد ، واول من حير الذمع وماء الشباب ؟ الخ ...

ان في الصافي حسناً ولكنه في شعوره لا في شعره ، « حسنٌ جميلة غير مهندمة ، ضاعت معاني جمالها في تنايا ثوبها المجد . قلتما نفس في ديوان الصافي اثرأ للشباب بل للرجولية ، وقد قلّت الوانه حتى الندورة . اما رجولته فتتجلى حتى في أشد حالات بؤسه ، فما هو ذلك البائس الرخو بل بائس صلد كالرخام تحت مطرقة النحات وازميله . اما العزمة المربية في شعره فهي كالبرق الذي وصفه امرؤ القيس ، كلعج اليدين في حبي مكمل . والخلاصة ان في الصافي نخوة الفرس العربي الاصيل مهما هزل ودق . اما حينه إلى الطبيعة وغضبه على المدن فينبع من نشأته الاولى التي طلقها فصار يرى نفسه كنفقي ، ولهذا جاء شعره وثيق الاتصال بحياته .

تري في ديوان الصافي أشباه صور ، فهي لا تستوقفك ولا تستهويك لأن صاحبها لم يحدق ابراز خطوطها ذوات المعاني ولم يجد تلوينها ، وهو

لو فعل لأرانا جلاً . يحاول الصافي اجادة الحتم كأي فراس وان لم يحسن
جمع نفسه في زوره كاسد المتني ، ليقفز ختامه قفزاً ويحجز جزءاً .
اسمع ما يقول عن التاجر الشامي الذي خال الصافي أميراً بدويًا ، وهو
ماراً بدكانه :

ثم القى شباك بشرٍ ولطفٍ فوق وجهي يرجوها أن يصيدا
هبةً لما مررتُ بالقرب منه قائلاً : ما تريد ؟ قلت : «نقود»

وبوجه عام ينقص شعر الصافي كثير من الدم ، فهو بحاجة إلى كمية
وافرة من زيت السمك . اما هو فيرى الشعرية كلها في مخالفة الناس ،
ولهذا يكتفي بوصف الاشياء دون تشخيصها ، فتبقى كما هي ، أي اشياء .
واذكر انني قرأت له شعراً قال فيه انه يريد ان يقول شعراً منطق الطير
لفظه ، فيا حبذا ، وعسى أن يكون أعذب الطيور ترتيلاً ، ومن يؤثـ
هذا فقد أوتي شيئاً كثيراً ...

نحا الصافي في ذكر قبجه نحوَ عنقرة ، ولكن الشاعر الجاهلي كان أبرع
جداً فاستغل سواده حتى لم يبق غذاء في ذلك السواد الا امتصه ، فأخرج
الصور الرائعة مبنى ومعنى . وابيات عنقرة مشهورة . واذكر شاعراً
آخر ، أسود أيضاً ، هو محمد امام العبد المصري ، قد أخرج صورة رائعة
لسواده حين قال يعتذر عن عزوبته :

أنا ليل وكل حسناء شمس فاجتماعي بها من المستحيل

وقد حلل أيضاً عنقرة نفسية جواده - ولم يتعلم علم فرويد - كسلامه
موسى الذي طلع علينا مؤخراً بسادية المتني - فأجاد بقوله :

فازور من وقع القنا بلبانه وشكا إليّ بعبرة وتمححم

كما حلل الصافي نفسية بعض القطط والكلاب والفار ، ففي قوله :
« فضحونا حتى أمام الكلاب ! » ختام رائع وسخر لاذع ذكراني بقصيدة

لأسعد رستم الشاعر للظريف ختمها بما معناه : إن هزّ أذئاب الكلاب
أصدق من هزّ أيدي البشر .

وأرى الصافي يبالغ جداً في وصف « غرفة شاعر » وغيرها . يرشدني
إلى هذا الحكم تقنيته بقبحه . أنا لم أرَ فيه جالاً ولكني ما رأيت قبحاً
كالذي يصف ، فلا قبح ولا دمامة ولا عاهة — خلقة كاملة ، نعمة زائدة —
كما يقول المثل . هذا إذا لم أكن مبتلى بخداع النظر يوم لقيته ، أو جعلت
وجهي مقياساً للجمال الرائع ...

ذكرتني قصيدته « غرفة شاعر » بقصيدة ابن الاعمى في ذمّ دار سكنتها ،
والشاعران بالغا جداً . لو كان في غرفة الصافي قيراط مما وصف لأكلته
تلك الحشرات ، فالومياء لا تسلم من تلك الفئران والجردان . وإذا كان
الشاعر ينام حقاً في « أوضه » كالتي وصف ، فقد ظلمناه في تلمسنا الفن
عنده وتطلبه منه . اليك ما يقوله في مفرشه وغطائه :

صارا ثمينين لما	صارا من القدماء
احشاهما باليات	كما « بليت » احشائي
حتى كأنّي شلو	أنام في اشلاء

وما زالا من جيل نوح فأعجب كيف اجتاز بها الحدود ..! وأشك
أن في دمشق بلدية ...

٥

ان شعر الصافي يشتدّ في القصائد القصيرة الوزن ، وتقل فيه :
قد ، والكلّ ، وكلّ ، والغير ، وذا ، والبعض ، ووجود ، وما إليها ،

من الالفاظ التي يحشو بها شعره ليستقيم الوزن . قابل اذا شئت ، قصيدة « البرغوث » ، و « سراجي » ، و « الوحدة » ، و « البدر في الهالة » و « إلى العميد » ، بغيرها من قصائد الصافي الطويلة الوزن .

ويشتد شعر الصافي أكثر في المواضيع العتيقة ، قلباً وقلباً ، كالليل ، والنجوم ، وقد اشترنا إليها ، والهواجس النائرة ، وبين الفرس والعرب ، ووصف الشاي ، فيكاد يسل من حوشي الكلام ، وتلك الطفيليات . والصافي لا يتحاشى تسكين المتحرك — قاتل الله من جوّزه للشعراء — فيسكن الحيوان ، والحشن ، والنهم ، فيزحف شعره سلحفاة ، والشعر يحمل أن يكون فراشة . فاذا صحّ أن المحيط تأثيراً بالشاعر ، وهذا لا شك فيه ، فخطيئة الصافي في رقبة تلك النرفة . فالذي يأوي إلى مثلها لا يبالي بتكرس الفاظه وتدريبها ...

ورب قائل قال : قد فرغ الصافي بما تستجهد فيه ، اما قال في مقدمة أمواجه :

واسكن كوخاً ما به أي زخرف ولكنه كوخ اقامته لي يدي

قلنا اذا كانت البلديات تهدم مثل هذه الاكواخ وتحرقها ، وتسهر على هندسة الشوارع وتخطيطها ، فأحرر بنا ، أن نفعل مثل هذا للمدينة الخالدة .. وكيف نرضى للصافي بكوخ وهو يقدر على تشييد قصر لو تجلد ؟ فلو لم يكن الصافي شاعراً سليقاً لما أعربنا ديوانه هذا الاهتمام . فالنفس نفس شاعر ، اما التعبير فكذب البحتري ما فيه إلا العظم والروح والجلد . ومن يكفل لنا ان الصافي لم يقل هذا إتضاعاً كدي موسى . فالشعراء كالنساء في السنتهم قواضع عميق .

أما يؤس الصافي فتلسه في قصيدته « ما اسم هذا اليوم » لا في « غرفة شاعر » ، ولا « في الوحدة » ، ولا في « الحنين إلى الطبيعة »

حيث يقول :

طبيعة الكون في خلقي لقد غلظت فلو بأية « حيوان » تبدلني
هل جئت دهري هذا في أواخره أم اني في وجودي سابق زمني
أما أنا فاظن الامرين : الزمان آخر والصافي سابق . اما الحقيقة
فمعد صبي المعري الحبيث ... ثم ما لي ولهذا الجهد فحديث الشاعر من
باب تجامل العارف ، وتلك شكوى الشعراء من « أهيل » زمانهم فلا
حول ولا قوة ...

ويتم الصافي يذكرني « بأمّ يتم » الرصافي ذات اللباجة البحترية .
اما كيف انشقت الارض وبلغت شاعرية الرصافي فهذا ما يحيرني ...
تلصص الرصافي من قال ، وقالت ، وتقول ، ويقول ، وتمشّر
الصافي بيقول وتقول ، وكأنه شعر بثقلها فأراد ان يتخلص منها فجاءنا
بتدعو ودعاء ، فكانت اتقل وأشع كما ترى :

فيقول ابن ابي « فتدعو » غائب فيقول غاب اما له من مرجع
ولربما وجد الحنان من امرىء « فدعاء » انت ابي وكنت مضيعي

اما صرخة الصافي في ختام « يقيم » فوجعة حقاً ، لانها منبعثة من
كبد مقروحة ذاقت مرارة اليم :

ليت الصفار جميعهم لم يعرفوا آباءهم وربوا معاً في موضع
كيلا يصيب اليم بعضاً منهم فيعيش عيشة بائس متكعب

وما اوقع الصافي في تلك الورطة الا تبسطه في الفث والسمين ،
وتقصيه كل حركة كأنه يصف حفلة لجريدة : أقرأ « اليتيم » و « انا
والدجاج » و « الشاعر والفار » و « الشاعر والقط » ، فترى ان الكلام لم
يَنقَدْ له في القصص الا في « بين شاعر وصاحب فندق » التي اجاد
الريحاني حلها في « قلب العراق » فأخرجها فكهة رشقة ككل ما يكتبه

الريحاني في هذه الاغراض :

فبينما تراه يقول ويبدع :

ان رمت في الدهر ان تحيا فكن خشنا

فنخل الدهر لا يبقى سوى الحشن

يمدو الزمان فمن لم يعد مستبقا

امامه سحقته أرجل الزمن

اذا به يصف ويركّ شعره حين يقول :

ما ارى المجلس الا حاكيا صوته عن مجلس منعكس

ضم آلات بلك ربطت فاذا حرك يوما ينبس

ألا ترى كيف اخبرك ان المجلس كالحاكي ، ثم شرع يفصل لك كأنه

يشرح للتلامذة درس فيزياء ؟ ... فهو لا يوجز ولا يرمز ، ولا يثق

بفهم الناس . وآدم لم يقدر توه قدره فساء ظنه حتى يفهم شعره ،

فسرح لهم حتى أملتهم ، والملدوغ يخاف جرة الجبل ...

وفي « خيبة الشعب » يخاطبنا الصافي بلغة « الميجانا والعتابا » فيقول :

تالله ما اعظمها من خيبة نحن زرعنا الزرع والغير حصد

اما الزجال اللبناني فقد قال ابلغ من هذا الشعر :

يا شجرة البالد دار ناطورك اسد وتكسروا الاغصان من كثر الحسد

نحننا زرعنا الزرع ولجالالغير حصد يا حسرتي عبّوا القمح بعدالنا

أسمعت الشعر الباكي المؤلم ؟ هذا الشاعر يبكي ويبكي معنا لانه صادق ،

فاين « تالله ما اعظمها من خيبة » التي عصر الصافي يا فوخه حتى اخرجها ،

من قول الزاجل : « يا حسرتي عبّوا القمح بعدالنا » ؟ ... أرايت يا

اخي الفصح ، روعة الشعر العامي ؟ فهذا الهتاف يا حسرتي ، وهذه

الصورة الباكية : عبّوا القمح بعدالنا ، اي حصدوا زرعه ونقلوا الحنطة

في عدله ، فتأمل .

وما قولك يا سيدي الشاعر الكبير ، بالصورة الاولى : « شجرة في الدار ، وناطور اسد ، واغصان تتكسر من كثرة الحمد ؟ » . لا تنس ان الحمد يشغل بال القروي جداً حتى على عزته وبقوته و ...

ومتى عرفت ان هذا القول لا يعني بالشجرة غير حبيته التي انتزعت منه ، فلا شك ، انك ستشاعني وتزعم زعمي ان هذين البيتين من الشعر الحي . فكل لفظة تبوح بمعناها وتخبّر عن لوعة صاحبها ، حتى تكاد تشخصها لك .

وكأنني بالصافي يدرك ان الالفاظ لا تطيعه فيقول لنا :

أهوى المعاني عن ثياب	اللفظ تظهر عاريه
فالشمر تحجب نوره	ألفاظه والقافية

اذن فليكتب نثراً فيريحنا من النقد ! ان الوزن والقافية للفنان كبؤرة العدسة التي يتجمع فيها النور . أما الصافي فما اكثرث لألفاظه ولا بالي بقوافيه ، فجاءت نافرة شاخصة ، طالعة نازلة ، مداميك لا يردعها خيط ولا فادن ... واليك شاهداً من قصيدته « الشاعر والقط » التي بلغناها الآن :

و كنت مكابداً خجلاً لطردي	قطيماً قط لم يذنب ويحني
حيائي من القطيط حياء نبل	وليس حيائي منهم غير جن
ففاق حيائي منه على حيام	لذاك ضمته لي ضمّ خدن
فهل هو شاعر القطط التقى بي	فألف بينه طبع و « بيني »
أيبني ان ينافسني بشعري	ونظرت به عن الاشعار تقني

حقاً انها منافسة غريبة قريبة ... ارايت مرة أخرى ماذا يفعل « التفصيل » بأخيها الصافي ؟ وهل من بأس علينا اذا تساءلنا هنا عما تراه بورث

الصافي شاعر القلط حتى يقول له :

و كنت اود لو تغدو لي ابناً أورتك اذا صبح التبتني

لقد صبح هذا يا اخي في اميركا واوربا فورثت القلط خيرات كثيرة ...
وما يملك من هذا فالوصية معمول بها عندنا فوص لقطك ما شئت ...
وإن تستشري قلت لك : ورثه غرفة شاعر ، أليس هو شاعر القلط ايضاً ؟
اما « الليل والهلم » فأعجبتني مبني ومعنى ، ففيها أثر الخيال الذي
فقت عنه ولم اجده في شعر الصافي ، اسمع وصفه هه :

والهلم مجنون تراه هادئاً صبحاً ، وان جاء اللجى تهيجاً

ويعد ان يصف جنون « هه » المطبق ، وما كان بينها من طمن
وضرب ، وكرّ وزال حتى استحال الصلح ، قال لنا الصافي :

لو كان همي عاقلاً أقنعتك لكنني قابلت همأ أهوجاً

ويلى عليك يا اخي ! ما اجل بيتك ، وما اروع همك الاهوج ، وآه
من « قابلت » ! ليتك تأنيت وجئتنا بأحسن منها ، فلولاها لقلت لك :
انت اشعر العرب يا ابن اخي ، وترحمنا كلانا على النابفة .

وظل الصافي يتصارع وهه حتى مطلع الفجر ، واخيراً قال لنا :

فرّ وألقاني صريعاً بعده وقال ألقاك اذا الليل سجا

قد ذكرتني صراع الصافي وهه بصراع يعقوب مع الرب كما خبرتنا
التوراة ، وحدت الله على ان الصافي لم يفك جنبه كيعقوب اسرائيل
الذي أورث البشرية « عرق النساء » .

وفي « غناء السواقي » ومضة صوفية ، وفي أبيات غيرها يقترح الصافي
تسمية الشوارع بالأخلاق بدلاً من الرجال . هب اتنا يا استاذ سمينا
شارعاً باسم العفة وكان كشارع المتني في بيروت فماذا تعمل ؟

واخيراً يرينا الصافي التناقض الذي يتعشقه في صفحتين متقابلتين (١٣٠

و (١٣١) فيقول :

أهوى الكلام من الشعور مجرداً إن الشعور قبوره الالفاظ
ثم يقول :

اللفظ قشر وفيه لبّ الماني يقرّ
كلاماً مستحق ان يعتني « فيه » فكر
فالبّ يفنى سريعاً إن لم يحط فيه قشر

وأخيراً يصارحنا الصافي بما في نفسه فيقول لنا :

لي في الشعر عالم مستقل انا فيه فرد بدون خلاف
لم اشارك غيري لأنني كربي واحد لا نظير لي في القواني

صدق الله العظيم ، الشعراء في كل واد يهيمون . وكأني أرى بشاره
الحدوري يغضب غضبه المضرية حين يسمع هذين البيتين فينتصب وينشد :
ومعشر حاولوا هدمي ولو ذكروا لكن أكثر ما يبنون من ادبي
أما نحن فنترك الصافي وبشاره يتناحran على من هو شاعر السماء
والارض ، ونغضي في طريقنا عجالاً لنرى ما عند الصافي بعد . ها قد
وصلنا . فهو يحدثنا عن نفسه بصورة أخرى فيقول :

كأني من الأخطاء طيني مركب فما أصلح الأخطاء إلا بأخطاء
وقد فعل هذا حقاً في قصيدة « الطفلة السائلة » بقوله (ص ٥٨) :

هل تستطيع العيش من عمل وسنوها لم تبلغ العشرا

فأصلحها في « التصحيح » وسنيتها ، وظلت خطأ ... ولا اعتبار لما
ذكره ابن عقيل فذاك سماعي ، وكان على الصافي أيضاً أن يحذف الياء
من « كاني » .

وفي آخر ديوان الصافي ثنائيات ورباعيات وخماسيات يجمعها عنوان
« أنغام مشوثة » ، وهي كذلك . نظم فيها الصافي كل شاردة وواردة

شعراً ، وهذه مصيبة . وقد لاحظت هذه القطع فرأيت ان ابياتها الاولى
تسخر كلها للبيت الاخير فتبدو سحنتها كالطخة كوجه الاجير عند الصباح .
وفي خاتمة الامواج يشمرنا الصافي في نظمه :

وجمال الاشعار في ان تبين الروح والسر في البيان الفصيح
وكجهم يسمى لتكثير مرآة مداوي الاشعار بالتصحيح
إنما الشعر مثل قذف البراكين ومثل الشكوى من التبريح
أتميدون قذف طلغي البراكين لترتيبها بشكل ملبح

إذن هو في واد ونحن في واد ، هدينا وإياه . أما ما قرأت له
أخيراً في غير الامواج فيثبت لي أن الايام وممارسة النظم ستعدل الصافي
من حيث لا يدري .

أمد الله بعمره وأراحه من غرفته وهمه الاهوج ، وحسبه من التجديد
انه لم يمدح ولم يرث .

وليثق الصافي وغير الصافي ، بمن انتقدت وانتقد ، بإخلاصي لهم ،
وانني أتمنى أن يكون العام الجديد أغزر وأجود محصولاً ، فيفيض
التقريظ ويقل الانتقاد .

الصافي في دلوين الثلاثة

يقول العرب : كل يفتي على ليله ، أما صديقنا الصافي النجفي فيفتي على ألف ليل . فإذا رأيته على الرصيف إما متأملاً وإما شائح النظر فلا يتبادر إلى ذهنك انه من الصحرة أو العرافين الذين يرجون بالغيب ، بل ثق وتأكد انه شاعر هائم ، شاعر بوهيمي حقاً ، يعمل بقول المثل القائل : من اهتم من غداه لعشاء كان من القوم الكفار ...

الصافي شاعر ، ولكنه شاعر على طريقته هو . لست أشك في انه لا يستطيع اخراج شعره بغير مظهره هذا ، وان رأيناه في « أشعته » و « أغواره » و « تياره » أصبح وأبهى ديباجة منه في « أمواجه » ، فلامواج زبدها وعفشها ونقشها . أما الأشعة ففيها ضياء ولعان بمقدار . ان حظ الشاعر من الألوان قليل لأنه غير بصيد مرامي الحيال .

الصافي شاعر واقع ، وواقع كالماء الزلال ، وان اسمى ديوانه الصغير « أشعة ملوثة » انه نظم عفواً ، وهو شعر قاله صاحبه في مواضيع شتى ، حق كاد ان يكون مجموعة خواطر التقطتها غيصة الشاعر حين صنعت . يختلف الصافي ويتفق فيها مع زميله الزهاوي في رباعياته ،

وما عندي طائران تفقست عنها بيضة واحدة . يتفقان شكلاً وإن
اختلفا في بعض الموضوعات . كلاما شاعر غير عحك . وكأني بالصافي قد
أدرك هذا فقال :

قالوا قريضك لفظه صدف حيناً ، وحيناً لفظه در
فأجبتهم اصدافه درر لو كان يدرك كتبها الفكر
ألا يذكرك هذا قول ابن الرومي :

شعري شعر إذا تأمله الانسان ذو العقل والحجى عبده
لكنه ليس منطقاً بعث الله به آية لمن جحد
ولا انا المقهم البهائم والطير سليمان قاهر المردة
ما بلغت بي الخطوب رتبة من تقم عنه الكلاب والقرود
فإذا صنفنا الشعراء ، وهذا ممكن ، لأن الشعراء كالطيور اشكال ،
على بعد الشقة والاجيال ، رأينا الصافي في ديباجته كابن الرومي ، وإن
كان دونه خلقاً وخيالاً . وفي صاحبنا النجفي شيء آخر من ابن الرومي
هو قلة ثقته بفهمنا نحن البشر ، فيقول :

حين انحط بالقريض الى الأرض تزيد الرفاق من جانبي
وإذا ما ارتفعت بالشعر أبقي مفرداً يضعك الانام عليا
وهو أيضاً كابن الرومي في شتة الاغارة على الذين يطعنون في شعره .
فيقول فيهم :

قال خلي وقد تعالى ضجيج حول شعري الراقي ونظمي الرقيق
فيم هذا الضجيج حولك أضحي يتعالى من حامد وعقوق
قلت هذا الانين من حشرات عارضات سحقتها في طريقي
أما النقاد ، ويا ويلتي عليهم ، فهذا حظهم في كل زمان ، ولكن
صاحبنا حملهم ما لا يطيقون . التقى بهم في غور من « أغواره » - دونه

غور بيسان ، فهو أحط من البحر كيلومتراً — فقال كلاماً معقولاً . أما في التيار فقد تجاوز الحدود والتخوم ، وهذا ما يفعله التيار الجارف ... فاسمع الآن ما قاله شاعرنا في « الاغوار » :

بنقّاد القريض برمت لما رأيتهم وقوفاً في طريقي
فتعثر فكري بهم اذا ما اردت السير في نظم دقيق
وكل قد دعاني نحو نهج فحرت كأنما انا في مضيق
فلم أرَ حيلة لي غير اني اسير ولا أبالي بالنقيق

اني أقرّه على هذا الرأي فليس . ان الناقد لا يستطيع ان يصيّر الذهب عيار ٢٤ ، ولكن هذا عمل الصائغ . فليصوب الصافي انبويه على شعره ليولد اللب الآكلة ، فهو مستطيع — إلى حد ما — اذا أراد . هذا ما أصابنا من احوال « الاغوار » ، اما ما لقيناه من التيار فهو الداهية العمياء والمصيبة الهوجاء ، مصيبة في العنوان ومصيبة في ما تحت العنوان ووراءه ، وخلفه ، وقدامه ، ولولا هجونا الصافي هجواً غير لئيم لمان علينا الأمر فاسمع سبابه .

شأكر نقادي اللثام لأنني ركبت عليهم في طريقي الى المجد
فان قصروا في السير يوماً وخزتهم فساروا وساروا مسرعين من الحقد
يضجون من حقد واضحك هازئاً بهم وهم يحرون بي دون ما قصد
ولو عقّلوا يوماً رموني الى الثرى ومن اين تأتي للسوائم بالرشد
وهيات يستطيعون رمي الذي علا عليهم ويعلمو الحر دوماً على العبد
ومن يعمل شخصاً قساده كطية وخير المطايا مازج اللوم بالحقد

ولا يعمل التجفي الفخر بشعره ، وهذا الفخر الطائش داء الشعر العربي الخبيث ، داء باض وقرّخ في صدور كل من قالوا منا شعراً . والقريب العجيب ان كل واحد منا يظن انه الشاعر المفرد ، وليس من ينتقد شعره

الا حاسد لثم ... اما صاحبنا هذا ، وليس قولي هذا بضائره ، فقد فاق كل فوق في هذا المرض حين قال :

سموت بشعري فوق جبلي ولم يزل يشك بشعري معشر البلهاء
فان لم اكن في امة الشعر واحداً اكن امة أعلى من الشعراء

اقول آمنا وصدقنا بهذا العلو ، ولكن ايمان البلهاء لا يدخلهم ملكوت رضا صديقنا النجفي . فالملكوت مختص بنوي العقول ... ان اللاهوتين لم يحدوا بعد الزاوية المعدة للجاذيب والبهاليل في دنيانا الثانية ...

اما سخط النجفي فكسخط ابن الرومي ، كلاهما متبهم ضيق الصدر بالناس غاضب عليهم ، والفرق بين الشاعرين ان ابن الرومي يرمي عن قوس سخطه شخصاً بعينه ، اما النجفي فضراب قنابل رشاشة لا رامي سهام مراشة ، فالتاس كلهم عنده انجاس . ان هذه فكرة شرعية طاغية على الشعر العربي ، ومولدها الثأر للشمر من الناقدين ، وهي التي طفت على شعر المتنبي . شك المتنبي بصديقه لعله انه بعض الأمام ، وقال الصافي يذم المخلوقين على صورة الله ومثاله ، بصورة لم اوفق الى نعت صارم الصقه بها ، فيقول في كلب حكم عليه صاحبه بالاقامة الاجبارية في الشارع مؤبداً ، فانتصر الصافي لذلك الكلب حين رآه حزينا مكسور الخاطر :

يشخذ الخبز حول بائع خبز من يد المشتري دون طلاب
يسأل المشتري في نظرات قد حوت للطوى معاني كتاب

رق قلب الصافي لهذا الكلب المسكين فقصد بيت صاحبه ، واذا به يرى عنده جرو كلب جميل ، فويحه « على تركه قديم الصحاب » اي الكلب العتيق المظلوم فكان من الرجل ان :

قال هذا جرو جميل وذاك الكلب شيخ فاعجب لهذا الجواب

وبعد ان عاد الصافي يتعثر بنيل عبايته ، قعد يقرّع البشر ويلوم حتى

ختم قصيدته بهذا البيت الطريف :

صرت أبى من نسبتي لأناس فضحوا حتى امام الكلاب

هذا نموذج - ذو قيمة - تقدمه للقراء من سخر صديقنا النجفي .
ان سخره يبكي ولا يضحك ، فلا هو سخر بشاري ولا سخر فواسي
ولا رومي .

اما موضوعات الصافي فلا تحلل ، لانها كنعم الله التي لا تحصى ولا تعد ،
الا اذا خصصنا شاعرنا بكتاب اضخم من دواوينه جملة ، وهذا مستحيل ،
ولذلك لم نتركه بالمره ، ولم نقف عند كل قصيدة وقوف قدماء شعرائنا
على الأطلال . إن للصافي فلسفة ولكنها كلاهوتية الشاعر سعيد عقل ،
لا تقم انها فلسفة ما لم تنبّه . فسعيد يحسب « المحبة » علم لاهوت ،
والصافي يرى البغض فلسفة ... ومن يرّ الدنيا وناسها بعيني بؤسه وشقائه
فلا يمكن ان تكون موضوعاته غير ما كانت . وها هو إذ يقول
قصيدته الرائعة ، في ذكرى المتني الالفية ، لا يحرم الناس من الطمن
والضرب ، فيقول في نقاد المتني بيتاً جميلاً . وللصافي مثله كثير
في دواوينه :

قد أقاموا ملوحة البحر عيناً حين خافوا من ان يخوضوا خضمه
ثم يرى ما قيل في ذكراه شعراً نازلاً عن الشعر فيقول :
وأنى الشعر مهرجائك يشكو بعد الف إلى قوافيك يتمه

قلت : فما عساه يقول لنا الصافي في ما قيل اخيراً في مهرجانات
شاعرنا مطران ؟ ان شعر ذاك المهرجان المطراني لا يليق بشمس شيخ
في خدمة مذهب الرب ، فكيف يليق بمطران يؤله شعر شبابه وكهولته
ان يكون بطركاً لولا المحابة ... كآني هم قد راعوا النظر فقالوا في
ابن الثمانين شعراً كأنه ابن تسعين ... ويحتم الصافي رائعته في المتني
بقوله .

مدح هذا النبي يبغي وصياً
انا اولى بمدحه وعلاه
آخذ من ابائه الجم شمه
ان يفني شعراً فلي منه هم

وبعد ، فان اسلوب الصافي هو هو ، وتفكيره في « الاغوار »
و « اشعة ملونة » و « التيار » لا يختلف عن تفكيره في الامواج . اما
تصيره فهو في هذه الدواوين الثلاثة خير منه في الامواج . وان كانت
ما رأيته بعد قراءة هذه الدواوين يحملي على القول مع شوقي :

وترُّ في اللهاة ما للنفى من يد في صفاته أو ليانه

اما في الابتكار والخلق والابداع فالصافي شاعر يخوض وسط المعمة
ليس اكثر . قد يبحث بصورة او حكاية ، ولكنه لا يوفق كل التوفيق
إلى « الزخم » الذي يترك دويًا في اودية الاذان . ينسبك ختامه غالباً ،
روعة تلك الفكرة التي حبل بها دماغه ، ثم تمخض ولم يلد الا جنيناً
لا يوعوع حين يبصر النور .

فالى الصافي ثنائي الخالص ، وحسبه انه يقول لنا شعراً ، ان
يكن غير براق ، فهو فيه غير متعمل ولا سراق . وأحسن ما في
الاحسن من هذا الرجل هو انه يعرف نفسه كما عرفه النقاد ، وان ركب
علينا جميعاً في طريقه إلى المجد ، كما قال . يعترف الصافي بذلك ، ولكنه
كما يتضح مما سسمع ، يدرك من امره ما ندرك ، ولهذا ختم « التيار » ،
وهو آخر ما صدر من دواوينه ، بقوله :

نظر الناس لي فحاروا بأمرى وانا مثلهم بأمرى حائر
انا اما ان لا اكون كغيري شاعراً او اكون وحدي شاعر

وآخر مؤاخذه لصديقي النجفي هي تضرعي اليه ان لا يرفع الكلفة
بينه وبين اللغة - وان كان قد قلل ذلك - فقوله : « نظر الناس لي »
لا يليق بشاعر كبير كأحمد الصافي ، وخصوصاً لانه نجفي ، والنجف الاشرف

كهف اللفة ومقلها التبع .

فالى الامام يا صديقي ، انك ستجد مرعاك ، كل ساعة ، ما دمت
تعباً من ينبوع الحياة والواقع . اصنع الناس جميعاً ، وخصوصاً النقاد
المناحيس ، انهم يستحقون ... اما ركوبك عليهم في طريقك إلى المجد ،
كما تقول ، فأرى ان تستغني عنه بجمارة ... ان هموم مجدك المتواضع
لا تقتضيك اكثر من جحشة ، فلا تطلب غيرها مركوباً ... ثم من
يدرينا انها لا تنطق كجمارة بلامام ... وتخلق لنا موضوعاً جديداً تضمه إلى
روائعك ؟..

ان بشاره الخوري كان أرحب منك صدراً ، وأنعم هجاء للطاعنين في
شعره . وعلى كل فوعدنا وإياكم الأبد .

الصافي في الحان اللهب

وهذا ديوان جديد عنوانه « الحان اللهب » للشاعر أحمد الصافي النجفي . ان شاعرنا النجفي الذي غمطنا ويحتمله ينتقل في عناوينه بين الماء والنار . من « الامواج » الى « التيار » ومن « الأشعة » إلى « الحان اللهب » . أما ان الصافي ملتهب فما في ذلك شك ، فهو ملتهب الجيب مشتعل القلب . درويش اذا جاءت النعمة رفضها ، ولعلها جاءت بشخص تلك المعجوز التي أته مستمجة فقال لها :

تصافين غيري بمهد الصبا وتأمين عني ولا ترحمين
قصدت سواي أو ان الشباب ومذ شخت أقبلت لي تسرعين
وكتت اذا ما شرحت الهوى أمامك من منظري تهرين
أكنت دميماً فلم تستطعي لذلك رؤية وجهي اللعين
وأني أنا اليوم أبشع وجهاً فهل ان قلبي لوجهي يزين ؟

أعرف الصافي متفرداً في مواضيع دواوينه السابقة ، وكذلك وجدته في الحان لهيه . يفتح هذه الالحان المارجة بإعلان إيمانه بالله فيقول :

كهلتي بالله قد آمنت ضل شبابي ودعاواه

فان تجذ ذاشية جاحداً فقل الى النار أخلصنا

فقلت : حنانك يا سيدي . امهلهم رويداً . لعلمهم يتوبون ... وفي القصيدة الثانية ، وعنوانها « المدم الحيي » يغرب في آرائه حتى يقول :
وحواس التقي حدود فان زالت قطعت المدى وجزت الحدود
أظن ان هذه الفكرة ليست من محصول الصافي ، ما أظنها إلا من مصنوعات بسكتنا والشخروب ... ثم يقول :

وثناء الانام ينقص من نفسي فأغدو لدمهم مستزيدا
وأني لأحمد الله ألف مرة على وقوفي منه بين بين ...

والصافي نسج وحده في مواضعه ، فكره مهياً لاقتبال جميع الصور بشكلها الواقعي ، يصف ما تقع عليه عينه وتسمعه اذنه ويشعر به قلبه .
فاسمعه يصف سكران رآه في إحدى روحاته أو جيئاته :

نام حتى ليس متنبهاً لأذان أو لساوقس
لو تراه في الفراش ترى ميتاً في جوف ناوس
وترى في وجهه بشراً ساكناً في جلد جاموس

والشاعر يرسل الكلام غفو الطبع ، فلا ينمق ولا يوشى ، وفي ذلك يقول :

قيل لي فم لست تعنى يوشى أو بتنسيق فائض الاشعار
قلت شأني ارسال شعري سيلاً مسا على التنسيق للأنهار

كان للتغاد في كل ديوان من دواوين الصافي السابقة حصة الأسد ، أما في الحان اللبيب فهو أرأف بنا منه في التيار ، فكأنه يوطئ له الهادنة والمفاوضات ولكن بقول آيسنا من كل خير رجواته عنده ، قال :

شيطان شعري دأبه العناد يتعب في تقويمه النقاد
يقودهم طرّاً ولا يقاد وكلما زاد له الارشاد

وناقده في أذاه زادوا ورمت نظماً حسباً أرادوا
فرّ وضاع من يدي القيادة وخاب من تقادي المراد

تذكر قولي لك ان الصافي نسيج وحده في مواضعه ، وهاك الآن
وصف هذه المعركة بين أوراق شعر الصافي وأوراق المال ، قال :

وضعت في الكيس أوراق التقود اذا بها مضايقة أوراق أشعاري
واذ بنار الوغى في الكيس مسمرة توجّ ما بين أشعار ودينار
سمعت شمري يدعوه وهو ذو غضب يا أجنبي ابتعد عن ساحة الدار
ثم انجلت المعركة بعد كر وفر ، واقبال وإدبار ، عن فوز أوراق شعر
الصافي ، وهذا ما كنت انتظره . فصاحبنا الصافي في مقاتلة الدينار دون
كيشوت ثانٍ ... قال :

لكننا فاز شعري بعد ملحمة كبرى ، وأخرجه ، فالحمد للباري
ان هذا الشاعر الهائم يدوس كبرياء ارسطو بكبرياء أعظم منها ...
وليس عدو المال ، في هذا الزمان الكلب ، بالحصم القليل . أطل الله بقاء
الشاعر العزيز ليخرج من ذخائره الادبية جدداً وقدماء . وإذا شاء السامع
المتعة كاملة غيز منقوصة فليقتن ديوان « الحان اليبب » النفيس ،
ليقرأ فيه قصيدة « إهداء الكتاب » ، وقصيدة « البليد الثقيل » .

عمر أبو ريشة ديوانه «شعر»

كان ذلك في حلب ، ومنذ بضعة عشر عاماً ، يوم سمعت بشاعر اسمه عمر أبو ريشة . دلني عليه تليزي ، يومئذ ، وصديقي فما بعد ، الاستاذ اورخان ميسر ، اتى على صاحبه وسماء في ذلك الوقت شاعر الشباب ، وقدّم لي تمثيلية نظمها الشاعر الشاب عنوانها « وقعة ذي قار » ، فاستبشرت بما فيها من وثبات تدل على الشاعرية العتيدة ، وصرت كلما وقمت على قصيدة له أقرأها وأرجو . فهاشيت الشاعر في تطوره الى ان ظهر منذ اعوام ديوان له عنوانه « شعر » فما مددت اليه يدي لانه لم يقدم الى المشرحة طبقاً للمراسم ، اما ديوانه الجديد ، الناسخ ما قبله ، وهو يحمل شيئاً من هذاك ... فما هو الآن بين يدي .

عنوان هذا الديوان « من عمر أبو ريشة شعر » وقد سميت النسخ لأن جريدة « كل شيء » أذاعت ان الاستاذ أبو ريشة « لا يعترف بالكتب أو الدواوين التي ظهرت قبل الآن » ، والتي تحمل اسمه ... وانه يتبرأ منها .

لا يا أخي عمر ، انها محسوبة عليك ، فما يدخل المطبعة من عبيدنا

ينبتق ويخرج منها مولى لنا . لماذا تتبرأ من بنيك ، فإم هم بالسفهاء اخوان
الشياطين . ما رأيك استعجلت الأمر قبل أوانه لتعاقب مجرماته ...
والبرهان هذا الديوان البديع الذي أخرجه للناس ، جامعاً فيه خير زاد
للبلاد مذكراً بالأحفاد بأجداد الأجداد .

جلت « دار الأديب » عرائس ابو ريشة على عشاق الأدب الرفيع ،
محلّة مزينة برسوم رائعة تستميل العين والقلب ... فيينا يكون الفكر
سارحاً مارحاً على موسيقى بحرية حقاً ، اذا برائدته المين تطل على
واحات تلك الرسوم الرمزية فتصيح بالفكر المجدد : وقتف ... خفتف
السير واتند يا حادي .

الحق اقول ان في ديوان ابو ريشة شعراً طالما تمنينا ان نقرأه ونسمعه ،
فشاعراً يحدو الكلام ويذجيه على هواه . قلت موسيقى بحرية وهاك
التفصيل : في شعر عمر ما في شعر الوليد من سياق مطرد ، ورنه ايقاع
وتقسيم عبارات ، فتشفي القصيدة مترنة الخطى كأنها قطعة من عسكر .
ألفاظ مختارة منتقاة لا تنافر بينها وبين جاراتها ، ولعلّ هذا من عمل
الاقليم اذا صدقنا زعم تين وبريتير ...

والشاعر على طوله المفرط ، وامتداد نفسه ، يؤثر الاوزان القصيرة
المرقصة حتى لكأن أبا نواس شاعره المختار ، فقلما تخمر في ديوانه بحور
الشعر العابتة الصاخبة كبجر الاطلنتيك ، بل تجدها كلها على طراز بجرنا
المتوسط ، ضاحكة ، مطمئنة ، صاخبة ، بمقدار ما في هذا البحر من عتو
وصغب .

يخرج عمر من حصن القصيدة القديم ، ليني « دارة » ذات « خرجات »
وشرفات ، فتخترقها الأشعة والنسم المطهر ولكن هذه الاشعة لا تؤذي
ألوانها ، ولا تذهب بروعة ظلالها . لا تشم رائحة العفونة ، ولا ترى وجوه

صور تعودت ان تراها كلما قرأت وسمعت شعراً . ان الفرار من قافية الى أخرى في القصيدة الواحدة يطرد الملل . وقديماً قالوا : العز في النفل . فإذا رأيت أسفاف شاعرنا نادراً جداً فاعلم ، حفظك الله ، ان هذا الانطلاق قد نجح الشاعر فظلّ علقاً في جوه الفني تشدّ قوائمه خوافيه ، فلا تصدق انه ابو ريشة ... واحدة فقط .

في ديوان عمر أنين حب جريح ، وفيه أهازيج حب مظفر ربح معارك شتى ، وخرج من غبارها غير معوّه ولا مهشم ، يحيش كجنح ليل بشار . ان صاحبنا معظوظ غير منكود ، يتأمر كثيراً ويدلّ ، ولكن ليس بمخلب ومجد ناب كأسد ابن عوانة ... بل بشباب له القدح المملّى والاسهم المرتقعة في بورصة الحب ... ولعل له في اسم عمر بعض العون ورأس المال في البندر ، وان كان لم يقتصر في شعره على الحب كسميه ابن ابي ربيعة . فهذا « العمر » الجديد يقسم ذاته المتمردة بين قلبه ووطنه . يضحي بقلبه اذا كان الحب يستأهل هذا الكبش ، ويصبح بالشباب صيحة القائد المغوار في المعركة الفائرة التنور :

أشباب يا زهو الحياة ويا نشيد العنفوان
لا كنت ان ارخيت معطفك النضير على جبان

أجل يا اخي عمر ، الشجاعة أس الفضائل . هكذا علمنا السلف وهي لا تنقص شبابنا العربي ان شاء الله .

في ديوان عمر قصائد قيلت في مناسبات . ولكن عمر يلج موضوعه من غير ابواب شعراء الفرح والترح . فبدلنا هذا على ان هناك ارادة عاملة لا عادة تسوق الشاعر بعصاها . فهو لا يكشف الشمس ولا يشق القمر ، ولا يطفئ النجوم ولا يدك الجبال ، ولا يسألها ان تتباك لئلا يزعزعا الدهر ... ان قلب الفن ليطمئن حين يسمع مثل هذه الاناشيد . قالن

يصبح برجاله دائماً وابدأ : هاتوا الجديد ، الجديد ، الجديد .

وفي ديوان عمر نخوة ولكنها غير مبتذلة ، نخوة على آفها بيض حسان ،
فهي مضمخة بطيوب عذارى الفن ، وفيه ثورة جياشة ولكنها تلبس مأزر
البيان الوضاعة وغلالات فنية فتانة يحتفي تحتها صدا الدروع ، وزنجار
السنان ، وأثر السيوف . الشاعر قاطر ولكنه غير هوّاش وغير سباب ،
مخلص لأتمه يريد ما بريئة من كل عيب ، وان رأى قصوداً عن الجلتى
استفزه ريعان الشباب وأرن كما يأرن المهر ... يشن الفارة الكلامية ،
واول الحرب الكلام . اسمع ما يعاهد عليه خالد ابن الوليد في قصيدة
تلكاد تكون ملحمة :

يا مسجى في قبة الخلد يا خالد هل من تلفت لبياني
لا رعاني الصبا اذا عصف البغي وألفى في ضريح لساني

ان عمر يعلم ان اللسان معارك ليست اقل خطراً عن معارك السيوف ،
وان قال ابو تمام : « السيف اصدق انباء من الكتب » . فن يوقظ السيف
النائم في قرابه نوم الهناء ؟ القلم كما قلت يا عمر ، يا حسان المقام ، فليتها
لسوريا شاعرها الفخيم ، فهي مستعيدة به اليوم مجدداً أولانا اياه صاحب
يتيمة الدهر . اما استعارة الضريح للفم فما اعجبني .

في عمر ابو ريشة شاعران : شاعر غنائي يرح برصانة ، ويتألم يحمد
ووقار ، يتجمل في حديث حبه ما قدر خوف الشماتة ... وشاعر
قصصي ظهرت لي ملامح عبقريته الشعرية في وثبات وطواعية قص
رايتها في مسرحيته « وقعة ذي قار » كما قلت سابقاً . وهب اتنا وجدنا
لمر نداء في القناء فانتا لا نجد له ضرباً في القص على حقه . « وفي
عذاب » ، وهي مسرحية منشورة في آخر الديوان ، ما يؤيد زعمي ،
فاقرأها يا قارئ العزيز ، واكشف لي عن رأيك فيها ، ولعلي اعود اليها

والى عمر القصصي ، اما الآن فعليّ ان انصرف إلى غيرها من الديوان .
لقد عثر عمر في فنه على الحل الوسط لمشكلة التجديد المويضة . فهو
لا يسير وراء القدماء كما تسير جياد العربات على الطريق المبتدة : الدرب
الدرب . ولا يكثر من الصور المائنة المبنية على المجاز العقلي ، وهي التي
تعرف اليوم بالطريقة الرمزية . لقد أمتت هذه العبارات عند بعض أصحابنا
كل الشعر ، حتى أشبه بعضهم بعضاً في فترة قصيرة جداً . ان عمر يأخذ
من هذه البضاعة ، ولكن بقصد وحذر . يقول مثل أصحابنا : لحن شقي ،
رماد المتى ، غفوة خرساء ، تلفت عريان ، مجروح التمني ، وأطياف يتامى ،
وصيحات حمر ، وخطايي الحمر . وكلها جميلة في مواضعها ما عدا « الصيحات
الحمر » حين يخاطب عمر ابا العلاء (ص ٨١) :

فتعالت صيحاته الحمر تهدي لو أصابت أصدائها آذاناً

إن هذه الصيحات الحمر لا تلائم شاعر الفلاسفة ، من كان أكله العدى ،
وحلاوته التين ... فما الذي ذكرك هذا النعت يا اخي ، اتراها الحافظة
قد عادت بك الى قول ابي العلاء : ما عرفت من الالوان الا الاحمر ...
اما في قولك انت :

حشت خطايي الحمر عن هيكل القدس وفي حماة الارجاس كفرت عن رجسي
فهذا النعت يليق بخطاك ، ولكل مقام مقال .

وعمر ينادي كأصحابنا الرمزيين وزن افتعال فيقول :

يا اعتداد الايام باليتم كفكف بعده كل دمة خرساء

ولكنه لا يغرب مثل أولئك فيزعج ... تأمل كيف يمبرِّبلقة الذي
أراد أن يشمر ففنتسى ، فيقول في قصيدة عنوانها « حنين » :

عرفت شذاك فالتفتت تسائل عنك أشواق

فلحت على خطى مني فغابت فيك احداق

تشخيص بديع ، ولمع في هذا جولات موفقة ، فإذا شئت ان
تفككها ففعليك بديوانه .

ولكن شاعرنا المبدع ، على كبر حظه من الحب والفن ، يفتح ديوانه
باليأس ، باليأس منا نحن البشر العاديين ، فيسائل نفسه في فاتحة ديوانه لمن
ينظم هذا الشعر :

لمن تعصر الروح يا شاعر اما لضلالات المنى آخر ؟

ثم يعدد : أأحب ؟ ألهو ؟ أألمجد ؟ أألخلد ؟ إلى ان يهيب بنفسه :

رويدك لا تسفنح الخيال بيضاء ليس بها سامر

هذا كثير يا صاحبي ، واني لاخشي ان تصاب بداء الشعراء . قد
رأيت هذا الميكروب عالقا بأذيال قصيدتك « عرس المجد » . اما اليأس ،
وستشفى منه في الغد القريب ، فهو يقتل الشباب ، وان حلا التفنن به في
الشعر . ألا تذكر قول عبد الشعر : ولا ترى طارداً للحر كاليأس ؟
انشد ، انشد ، فكلنا آذان . اتنا نسمع ونطرب ونهتز ، فما نحن
بالجسارة . ولا الحديد . اتنا نمجد من يستحق التمجيد ، ولا اجرؤ على
القول : ونخلد من يستحق التخليد . ته دلالاً فانت اهل لذاكا ، ولكن لا
تتمدح فسوف تسمع مني ومن غيري مدحاً يكفيك ويفنيك .

واذا اثبتنا عليك بما انت اهل له ، فلا يعني هذا اتنا كمنا افواهنا
أو سدنا طاقات النقد عنك مخافة ان تطير مع النسيم ... لا يا عزيزي
عمر ، فأعظم أثر ادبي ليس في حرز حرز ، فارجو ان توسع صدرك . ان
في ديوانك الرائع هنات هينات كان في الاستطاعة تهذيبها او ابدالها
لو لم تتمجل . وهب انك كبيت كنانتك ولم تجد عوداً اصلب ، فالاستغناء
عنها كان اولي . فهذا « المسار والتسمير » الذي يرافقني في ديوانك قد
يستحلي في النثر ، اما في شعر كشعرك فهو بشع ، ألم تحس مثلي بمساحة

هذا المسار في قولك :

ولكل كف غضة سكينه ولكل عرق نابض مسار

لقد طعنت هذا البيت بسكينه واجهز عليه مسارك ، فلا حول ولا ... ان « منجوراً » يصنع من الخشب الثمين كطرف ديوانك لا تدق فيه المسامير ...

والسناد ، وهو من عيوب القافية كما تعلم ، أراك لم تكلف نفسك الابتعاد عنه . فقلت ذلك اكثر من مرة ومرتين « راجع صفحة ٢٣ ، ٥٠ ، ٥٢ ، ١٠٥ » .

ثم ماذا نعمل لتصلح ما بينك وبين « ان » ، فهذه العداوة بينكما ارجو ان تعفني عليها معاهدة صلح - ولا تكتمن الفن ما في صدوركم - لقد قال القدماء كما قلت انت اليوم ، ولكن شعراً كشمرك مارحاً سارحاً يجب ان ينزه عن مثل قولك : اخشى تموت رؤاي (ص ١٩) وقولك : فما اسطيع اجلو سرأ (ص ٥٠) وقولك : هيات تروى (ص ٩٩) ، واخيراً قولك مرتين في (ص ٢٨٣) : « وأخشى أنوء بعبء الألم » و « اريد اقبل » .

وفي « مصرع الفنان » لم يعجبني قولك : تشرب الدمع من مقري انفجاره .

وقولك في الصفحة عنها « بعيد اليهود عن قيثاره » . ان هذه « اليهود » تدلّ على قلة صبر ، ومثلها قولك : « تتميه إلي » .

وكذلك قولك : « النسم الرخو » . ومن ينعت النسم بالرخو ؟ أندع القدماء أدق منا بانتقاء النعوت .

واكتارك من استعمال ما الزائدة لا يعجبني . نحن في زمن يقصون الزائدة فيه فور شعورهم بها ، فكيف نضعها في الهيكل الفني لتعومّه

وتشوّهه ؟ أفلا تراها شنيعة كما رأيتها أنا ؟

مضت الليالي ... مثلما الاحلام في اجفان نائم
كما النحلة النضبي لدى وخز خصمها تموت ولكن وهي مرطحة النفس
إن « كما النحلة » هذه ذكرتني ما حفظته ، منذ نصف قرن ، من شواهد
ابن عقيل :

وان الحرم من شرّ المطايا كما الجبّات شرّ بني تميم
والذي سامني ان تقع عليه عيني في شعر أبو ريشه هو مثل هذا
المبث الذي نراه عند البحّري :

أمن المودة ان تعيث بأضلعي أمن المودة
جاوزت حد الشوق يا واهي القوى جاوزت حده
أما الذي حرت فيه فهو هذا البيت من قصيدة في رثاء الملك غازي :

أتمدون في بلادكم لأبي الكاس وتروون بالتجيع بلادي
فالزيادة فيه فاضلة عن المعتاد في تحطّي موازين الشعر .
ولي ملاحظة ، وهي الاخيرة ، على قولك :

ان من سامك المنون لقوم لم يحَيّوا على الحجي والفلاح
فاذا وسعنا لك لتشق فعلا مضارعا من « حي » وهي اسم فعل ، فلا
نسكت عن خروجك عن سياق الكلام فلا يصحّ القول : إن من سامك
المنون لقوم ، وانما الوجه ساموك ، ناهيك انه لا يقال سامه الموت ،
فليس موت الشهيد خسفاً يسامه . وفي الصفحة المقابلة عدت صمّ فقلت :

خفروا ذمة اليهود وصموا الأذن عن صرخة الهضم اللاحي
وهي فعل لازم . فأين انت من سدوا ؟ وكيف لم تخطر على بالك ؟ ..
هذه هي الهنات . أما الجمال فعلمه هذا اللبّوان الضخم . وفيه فوق الجمال

الفنسي تحليل "نفساني" رائع في قصائد عديدة ، وأخص منها تلك التي يسوقها عمر مساق القصص ، وهذه خاصة يحالفه التوفيق فيها . خذ مثلاً قصيدة « جان دارك » فالشعر جرى فيها على خطط علماء النفس . حلل عمر نفسية هذه البطلة كما شاء فقال شعراً يبقى . وإذا رجعت القهقري الى حكاية ديك الجن المحصي ، وعنوانها « كأس » ، رأيت ان شاعرنا خلاق لا يعدم أسباباً يرتقي بها الى النثرى ، اسمع بعض ما قوله ديك الجن وقد « شخّص » في هذا أروع التشخيص :

نادى هواها ، فالتفت وما رددت له جوابا
وشباها الظمآن بين يديّ يستجدي السرابا
فوجت مجروح الرجولة اخفض الطرف اكثابا

وشاعرنا الملمهم يتلاقى وشوقي حول المسيح وصليبه ، وكلاهما يلوم الدول التي خرجت بتعاليم السيد عن التخوم التي رسمتها . وقد رأيت يقول مثل شوقي في وحدة الاقطار العربية :

قال شوقي :

كلما أنّ بالعراق جريح لمس الشرق جنبه في عمانه
وقال عمر :

أيّ جرح ضجّ العراق عليه ما تلقى الاساة من لبنانه

لقد نفر شوقي إلى عمان ومعان لانت لبنان لم يكن في الحساب في زمن شوقي ... وربما قصر ابو ريشه اذا عارض شوقي ، اما حين انفلت من قيود المعارضة ، فيخوض مع شوقي وسط المعمة . إقرأ قصيدته في رثاء سعيد العاص ، ذلك البطل الذي عرفناه باثناً طريداً ، وترحنا عليه شهيداً مات قبل ساعته :

نام في غيب الزمان الماحي جبل المجد والندى والساح

اما نفسية شاعرتا وديابجته معا فتدلك عليها قصيدته « نسر » :

أصبح السفح ملعباً للنسور	فاغضبي يا ذرى الجبال وثوري
ان للجرح صيحة فابعثيها	في سماع الدنى فحيح سعي
واطرحي الكبرياء شاواً مدمى	تحت اقدام دهرك الكير
لمني يا ذرى الجبال بقايا	النسر وارميها صدور العصور
انه لم يعد يكحل جفن النجم	تيهاً يريته المنثور
هجر الوكر ذاهلاً وعلى عينيه	شيء من الوداع الاخير
هبط السفح.. طاروا من جناحيه	على كل مطمح مقبور
قتبارت عصائب الطير ما بين	شرود من الاذى ونفور
لا تطيري جوابة السفح	فالنسر اذا ما خبرته لم تطيري
نسل الوهن غليله وأدمت	منكيه عواصف المقدور
والوقار الذي يشيع عليه	فضلة الارث من سحيق الدهور

ثم يصف الشاعر جوعة النسر ووقوعه على شاو دفعته عنه عجاف
البغات فاهتز ، وارتعش وطار ، حتى اذا اجتاز مدى الظن :

جلجلت منه زعقة نشت الآفاق	حري من وهجها المستطير
وهوى جثة على الذروة الشاء	في جفن وكره المهجور
ايا النسر هل اعود كما عدت	ام السفح قد ألمات شعوري

لا تياس يا عمر ، فأنت من الفن في ذراه ، اما « السفح » الذي
تعنيه فهو لا يبيت الشعور ولكنه يوقظ العواطف فيحمي الوطيس ...
ارجو ان تظل في « سفحك » هذا لتعفي النسر والنمور ، وتدفع
الجيل بالمناكب والصدور ... فحيلا ... عشت يا ابا الریش ... فأنت
يا ابن اخي ، اشمر جيلك في هذا النعوان الذي جمعت فيه بين طريف
الادب وتليده .

نازك الملائكة عاشقة الليل

هذه خنساء جديدة - ولكنها مثقفة - تطلع علينا في القرن العشرين
بدنوان شعر يدور حول موضوع واحد ، كديوان خنساء الزمن الغابر .
تلك ذويت شعرها دموعاً على اخوها ، وهذه استحالَت عواطفها شعراً
حزبنا كثيراً يصحّ فيه ما قاله ألفرد دي موس - اذالم تخني الذاكرة - :
اضرب القلب فهناك الشعر الذي لا يموت .

ولو يصحّ لي أن اتمثل بالنايفة لقلت لنازك الملائكة : اذهبي فأنت
أشعر من كل ذات تديين ، ولولا ذاك البصير عمر أبو ريشة - لفضلتك على
شعراء الموسم ، وليغضب عليّ ألف حسان ، فلا يخلق النقد غير الاعداء ...
نازك الملائكة من بيت يذكرنا بقول الأخطل : أشعر الناس بيتاً بيت
زهير ، فأم نازك - أم تزار الملائكة - شاعرة ، وقد قرأت لها قصيدة
في مجلة المعهد حققت لي الكلمة المأثورة : البنّت لأمها . وأبوها شاعر أيضاً ،
ولعلّ أخاها تزاراً ، واختها احسان التي قدمت لدموعها شاعران .

لقد ضربت نازك الرقم القياسي في الشعر الباكي فبزت ببكاها وآلامها
جميع شعرائنا الباكين حتى شيخهم الأكبر ... وما أشبهها الابدام دي نواي

الشاعرة الفرنسية الشهيرة ، فكلتا الشاعرتين العربية والفرنسية تخافان الموت وضخمة القبر ، وان تمننا كلتاهما التقلت من قيود المادة . قالت نازك :

نعم مات قلبي ، ابن احزان حبه وابن امانيه ؟ وابن أغانيه ؟
أرأيت كيف تقهم الحب هذه الشاعرة ؟ الحب عندها أحزان وآلام ،
وتذكر الموت في ريعان الصبا فتقول ، والضمير عائد الى عنوان القصيدة ،
« قلب ميت » :

ويرعبه ذكر المات وليله فيدفن نيران الاسى في قوافيه
فكيفما اتجهنا في ديوان عاشقة الليل فلا نقع الا على مأتم ، ولا نسمع
الا أنينا وبكاء ، واحياناً تقجعاً وزعيقاً .
تبكي نازك الملائكة جزءاً ضاع منها ، ولكننا عوضناه شعراً لا
يملّ على وفرة وتشابه .

ان نقد النساء صعب كراثثن ، وخصوصاً اذا كن مسلمات ، وقد
كبر في عيني المتنبي حين جربت فأدركت ما قاساه من عناء حين كان
يرثيهن ، ولكن ابا الطيب ، اجزل الله ثوابه ، كان يفرّ الى الحكمة ،
اما انا فإلى ابن أفرّ ؟

ان في ديوان « عاشقة الليل » ما يجيرني ، فعند « شجرة الذكرى »
أقف وقفة متأمل مستلهم لعلّ الله يفتح عليّ ، فأقول ما أَرْضى عنه فأذكر
قصيدة « الآاء المشعوث » لسلي بريدم . فهذه شاعرتنا تقول :

مررت بها في المساء الدجيّ فألقيت رحلي في ظلها
وان كان هذا التعبير « القيت رحلي » لا يليق بعاشقة الليل ، خنسائنا
المتقفة ... وهناك في ظل « شجرة الذكرى » تثرئب ذكريات الشاعرة
وتطوف شجونها من حولها فتقول :

اقص على ظلّها قصتي وقصة شاعري ... الفادر

وكان في يد الشاعرة شوكة قاطعة تمرّ بها على ساق صدرتها فجرحت
بلا شعور . ثم عادت اليها بعد - نين فقصّت علينا ما يلي :

فقلت لقلبي هيا نطف بها وليثر حزنك الهامد
سنألفها اليوم عن جرحها ألم يشفه الزمن الأبدي ؟

ودرت أسائل عن جرحها اما فعلته أكف القدر
فلم ارَ الا اخضرار الحياة فليس عليها لجرح اثر
واما جراح فؤادي الحزين فمازلن يشكون طول الصدر
فيا عجبا للزمان المضي متى عن اساءته يعتذر ؟

الله اعلم يا آنسة ، الزمان عنيد رأسه كبير يصعب عليه الاعتذار ،
ثم من يدري ؟ فلعله يعتذر إلى النساء . وكما حيرتني « شجرة الذكرى »
احترت ايضا في رموز أخرى كثيرة امّتها « التمثال » الذي لم تتكشف
لي حقيقته بجلاء ، فهي تقول في « قلب ميت » :

وما اناذي عمري احتقار وادمع وفي نفسي الوهي لظى وتمرد
أحن الى حيي الجميل وان يكن أشاح عن التمثال جفني المسد
وماذا تبقى الآن ؟ شلو حجارة تضيق بها نفسي وصخر ممد
تعلق قلبي بالنجوم وقلبه تمرغ في الاحوال .. والطين يشهد

هنالك في الامس البعيد وليله سأدفن تمثالي وحيي وادمعي
اشد قبرا من تمرّد خافقي واسقيه من بفضي له وترفمي
اغنيه الحان احتقاري وثورتي وتهزأ اضواء النجوم به معي
وازرع فيه الشوك والسقم والظلي

لقد قسوت جداً ، ولكنه يستحق ...

وفي قصيدة « بعد عام » تصور لنا حالة نفسانية لم يتوفق شاعر ذكر
الى قول احسن منها تحليلاً عاطفياً عميقاً فنقول :

مرّ عام... يا شاعري... منذ ابصر تك في ذلك الصباح الكئيب ...
اليالي تمر ... تتبعها الايام في بطئها المملّ الرتيب
وانا لهفة ... وشوقي يزداد وروحي في عاصف من لهيب
ظماً للحياة يملاً احساسى ... ونار في دمعي المكوب
وشظايا كآبة رسمت فوق جيبي غلالة من شحوب
ثم تتمعجب الشاعرة كيف نهضت باعباء همومها وكيف لم تمت حتى
تقول لشاعرها :

الشهيق الحزين في هدأة الليل ألم يلقيه اليك النسم ؟
والشرود الذي المات احساسى أما حدثتك عنه النجوم ؟

ثم تصف ببراعة فائقة كيف واين التقت بشاعرها :

منذ عام ... في الشارع الصاخب المتمد ... والشمس في صفاء الاثير
جمعتنا هنالك الصدفة الحلوة ... في غفلة من المقدور ...
وللتقينا ... لم نبتم ... لم احدثك بما في فؤادي المصور ،
لحظة ثم اجهد الزمن القاسي على قلب حلمي المسحور
سرت يمنى ... وسرت يسرى ... ولم يبق سوى ثورتي ونار شعوري .

كل يوم اقول يا قلبي الظمآن للصحو ... لا تضق بالغمام
لن يضر الاقدار في ليلها ان تتلقاك ... مرة ... بابتسام

مرّ عام ... لم يبق منه سوى لحن حزين ... مفرورق الالمان

ليس الا ابتسامتي المرة الظمأى ودقات قلبي الحيران
ليس الا ظل من الصمت واللهفة يبدو في جفني الظمآن

وهذه القصيدة ، في نظري ، هي خير قصائد الديوان بل هي من الشعر
الفنائي الرفيع . كانت العبارة والصور فيها طيبة سهلة الانتقاد للشاعرة
لأنها صادرة من الاعماق ... ولعلّ الزمان أخذ بشأركيس من نازك
الملائكة ...

وفي القصيدة التي تليها تدعوقلبها الى اليأس المريح وهي تخاطبه بهذه
الوداعة الهادئة :

ثم ماذا أي حلم ترجي يا ابن السماء
انت في الأرض فلا تحلم بلقيا الأوفياء

رحم الله المتني القائل : لعلني انه بعض الانام . ان كلمة الأنسة
الشاعرة لا تقلّ روعة عن كلمة شاعر العرب . وقبل هذه القصائد التي
مرّ ذكرها تصف لنا الشاعرة موقفاً لا يحتمله الجنس الحشن فكيف
بالجنس اللطيف ؟ عنوان القصيدة « نفثات مرتعشة » وأولها : عد ... لم
يزل قلبي نشيداً حالماً . وقد ختمتها بهذه الصورة الرائعة :

مازلت .. منذ ذهبت .. حيرى في الدجى ..
شهد الأسي اني لزمت مكانيا ،
وممي يصور لي خطاك ... ووقعها ...
فاذا اصخت ... صحت من اوهايا
لا شيء ... غير الريح ... تعصف في الدجى
لا شيء ... غير تنهدي ... ويكائيا ...

فالذي عندي ان ديوان عاشقة الليل حديث قلب منكوب أثار
نكباته سخط الشاعرة على الناس اجمعين ، وما شكر السوق إلا من ربح .

انها تقول كالمتني وبصوزة بسيطة جية :
لم يعد في جسي الداوي وروحي موضع ... يحتل الجرح الجديد ...

لم يعد في نفسي الوهي ... مكان لأسى ... او فرحة او ذكريات
أشهد وضميري مرآح ، أني لم أرَ الفرح عندها إلا في ختام قصيدتها
« جزيرة الوحي » حين تحتّمها بقولها :

وانقلب اليأس بشرات وأمنيات فأبي عبيد
ولكنها لم تعبد . بل عادت الى غيبوبات يأسها ، وقالت في « الخطوة
الاخيرة » وهي خاتمة ديوانها :

آه يا اشجار ... لا تذكرني فانا تمثال يأس بشري
ليس عندي غير ... آثار حنيني ... وبقايا من شقائي الابدني ...
قد قلنا انها غاضبة على بني آدم ، واليك ما تقول لنا :

لا أريد العيش في وادي العبيد بين أموات ... وان لم يُدفنوا
آدميون ولكن كالفرود وضباع ... شرسة ... لا تؤمن

فهي في هذا جبرانية نعيمية تذكرنا « حفار القبور » لجبران التي
استمد منها نحاتيل نعيمه الشاعر « اخي ان ضج » . وتذكرنا ايضاً ذاك
الذي ارسله « أبسن » في روايته وجعل في زنده سلة يجمع فيها الناس
ليعاد خلقهم من جديد ... ومشكلة السخط على البشرية تحلها نازك
الشاعرة الجبرانية بقولها :

نحن الخياليين في أرواحنا سر الالوهة والخلود الضائع

صدق الفن العظيم .

أظننا أشبعنا افكار الشاعرة اليايسة تحليلاً . عفواً ، ما هذا يأساً ،

إنّ هذه إلا ثورة جاعحة ، ومن حق ثابتة كنزك الملائكة ان ثور ،
واذا لم تثر هي فمن يشور ؟ الملائكة علموا الناس الثورات ...

ولقد قلقت واضطربت وشكت ككل مفكر وحيد فسألت الامطار
كما سأل نعيمه نفسه وحلها حلا يرضي خياله ورجاءه . اما الآنسة
نازك فجاء حلها منبثقاً من شعورها ، فقالت تخاطب الامطار :

ما أنا ؟ ما أنت ؟ يا أمطار ما ذاك الخضم ؟

واخيراً اجابت :

— لست إلا نرّة في لجة الدهر المغير

وغداً يحرفني التيار والصمت مصيري

— ما أنا إلا بقايا مطر ملّ السماء

ترجع الريح الى الارض به ذات مساء

وهي في هذا الحل القاتم جبرانية ايضاً ، ولكنها من نوع آخر .

وتنتهي إلى دفن شكاياتها ، ولكن بتفجع يفتت القلب ، في ختام قصيدة

« على الجسر » فتقول :

يا نهر فلتندفن شكاياتي ومرّ شجونها

الآدمية ان بكّت فلضعفها وجنونها

فآه والفا آه ، كم تحت كلمة « الآدمية » من لوعة وشرف وابهاء .

ولا استغرب ايّتها الشاعرة المحترمة حبك الليل ووقفك شعرك عليه

ففي كل الامم شعراء مختصون . قالوا في اوروبا : فلان شاعر القمر ،

وفلان شاعر البحر ، كما نقول نحن مثلاً الاستاذ المقدسي شاعر النهر ،

وشاعر البحر ، وان كان ميتاً ... لقد قلت لك شيئاً ايّتها الشاعرة

المحترمة ، وما زال عندي اشياء . اما الآن فلتعد الى فنك لئرى

عناصره الاولى .

ان هذه النقط الكثيرة في ديوانك المطبوع قد لا تدلّ غيري على شيء ، أما انا فقد رأيت فيها تفسيراً لقول الضفدع : في في ماء ... ولكفي أشهد انك ما قصرت . كنت جرئة فقلت ما يقال اما ما لا يقال فنقمهم نحن ، ولأجله نقدّر عبقرتك .

في ديوان عاشقة الليل شعر وحكي ، وهذا ناشئ عن شدة حساسيتها فهي تريد ان تقول كل شيء ، تريد ان لا تحبىء شيئاً ، ولهذا تجد العبارة الرفيعة الى جانب اخت لها غير نجبية . ربما قلت لي : وكذلك تكون المواليد وهذه ننة الطبيعة ، وقد نبّه إلى هذا ابو تمام ، وكذلك زعم ابن الرومي . اما انا فأخالفها وأرى ان شرائع الفن تسوّغ وأد البنات ، بل خنق كل مولود غير نبيه ... واليك نموذجاً واحداً من نوع الحكى :

لم استطع يا نهر كتمان العواطف والشعور
من يمنح السيل القوي من التوقف والمسير

اما حين يثور بركانها وتنتظر في قرارة نفسها وتقع عينها على الجرح ، فينهض الشعر من مجثمه فتقول :

في عمق اعماقي اعلى صير يحن جنونها
وعلى جفوني رسم احلا م يضح حينها

فلو انها وضعت « يضح » موضع « يحن » و « يحن » موضع « يضح » لتغيرت الصورة . ولكن شاعرة الليل قلما تحمل عباراتها اكثر مما تطبق ، ككل من يستمد الشعر من نفسه لان مظاهر الوجود . ان اكثر الشعراء يستمدون غذاءهم مما حولهم ، ثم تتمثل ذواتهم فيستحيل دعماً نراه في البشرية ، بينما نرى الأنسة نازك تستمد غذاءها الشعري كله من قلبها وروحها ، حتى حين تصف لنا مشهد الحصان الساقط « على ارض الشارع المبللة والسيات ترتفع » ثم تهوي فلا تسقط الا على جرح . فهي لم تصور

من هذا المشهد الـ ناحية تلامس عاطفتها وتتصل بها هي . ما رأت في هذا المشهد غير الصورة المنعكسة عن ذاتها . كان في امكانها ان تخلق رائعة بل لوحة فنية ، ثم لا تنسى نفسها ، ولكنها نسيت كل شيء من الصورة الا نفسها وآلامها هي .

أما في « المروض » فقد أحسنت الشاعرة في التفتل من قيود القافية ، فكانت قصائدها ثنائيات ورباعيات الخ . حتى لا تجد في ديوانها كله غير قصيدتين على قافية واحدة . وكذلك فعلت في الاوزان ، فكان اكثرها من العيار الخفيف الملائم للتفجع ، إلا انك لا تحس ذلك التشابه حين تقرأ ، لأن الشاعرة الموهبة الاحساس تشغلك بما تصوّره لك من محن تقاسي برحاءها ، فتتألم لألمها .

الصور قليلة في شعرها ، ولكنها عوّضت عنها بما سلحت به من شعور أضرم نار ثورتها العاطفية التي لا نظير لها عند الشاعرات العربيات . وهذه الثورة الفكرية القلبية شغلتها عن العالم الخارجي ، فهي من ذاتها كشخص مائل في قاعة كسيت جدرانها مرايا ، فعينه تقع على ذاته كيفما التفت . وعندي ان كرهها الحياة ناشىء عن حبها لها . وإذا قرأت ديوانها من أوله إلى آخره ، حتى المترجم منه . رأيته يدور حول عاطفة واحدة بل تحال انك أمام « فكرة ثابتة » مكنت صاحبها من اشباع موضوعها .

لا تبالي الشاعرة باللون المحلي لأنها تدبج ألواناً عاطفية كما قلنا ، فلا النهر ولا النخيل ، ولا الزورق تسترعي انتباهها ، فهي لا تذكر النخيل الا لتكون في ظلها كما تقرأ :

ما الذي ساقك طيفاً حالمًا تحت النخيل
مسند الرأس الى الكفين في الظل الظليل
مفرقاً في الفكر والاحزان والصمت الطويل

ذاهلاً عن قنّة الظلمة في الحقل الجميل

إن الرسام الماهر يستطيع ان يخرج لوحة رائعة من هذه الابیات ، وهي أصدق صورة لشاعرتنا ، صورة فتاة ذاهلة مطرقة في ظل النخيل ، مشغولة بذاتها عن روعة ما حولها . لقد تحيّلت هذه الصورة الرائعة وان لم ترسمها لي الشاعرة كما كنت أتمنى .

والآن قد حان ان نرى ما في هذا الوجه الفني الطريف من غش . تهمل نازك عبارتها احياناً ، لانها كما بشمورها الجامح . ولكن هناك وثبات رائعة أكاد أراها في كل قصيدة فتدلّني على موهبة الشاعرة وفنّها .

أما صحة التركيب فجيّدة ، وإن كان لي في ذلك ما يقال فهو ان نازك قد اكثرت من استخدام « السنين » قافية . واتبعت فيها أضعف الأقوال — اي اعرابها اعراب « حين » — وهذا ، وإن ورد ، فهو مقصور على السماع ، كما علمنا ابن عقيل . فهذه اللفظة تجري مجرى جمع المذكر السالم ، وعلى هذا جرى القلم في العصور الأدبية .

لقد شغلّني « سنین » نازك حتى حرت أخيراً في تعليلها وهي قافية هذا البيت :

علّه سائل غداً ، عن اغانيك وما قد جرت عليك السنين

فاذا شامت أن تجريها مجرى « حين » كان الاقواء . وإلا فهي مضطربة ان تقول السنون ، فما هذه العداوة بينها وبين الواو والنون حتى تؤثر اللحن على استعمالها ؟ ثم تجيز لنفسها ما لا يجوز في هذا البيت :

أترى تذكرين مثلي أيام صبا ، وحلما المفقود

فالمطف على صبا هنا لا يجوز ، واذا افترضنا « تكرار العامل » ثار العقل وأبى علينا ذلك .

ثم هذا الاستعمال الضعيف في قولها :

طلالما من امواجك الباردات اترعت في الاماسي كاسي
فالكلمات المكفوفة - مثل طالما - لا يفصل بينها وبين اللفظة التي
كانت معمولاً لها لولم تكفها ما عن العمل . وكذلك تظل الحال معها
لو جعلنا ما مصدرية كما أرى ، وان خالفت آراء شوخنا النحاة .
وفي هذا البيت لم ادر لأي حكمة قالت :

تتشكى الذين مروا بدنيا ها فلم تدر ما عسى سيكون
كان يسهل القول : ما عساه يكون . فاستعمال حرف التنفيس - السين -
مع عسى مثل استعمال الهمزة مع هل حين يقول بعضهم أهل ؟ وقد
استعملت كثيراً كلمة « لوحده » و « لوحدي » و « حد » هذه لا تدخلها
اللام . وقالت : حدقت في . وحدق تعدى بإلى وليس بفي . اما قولها
في هذا البيت :

وليسدل الستر المقدس حسبنا غماً ويأساً

فالرفع على الابتداء واجب هنا . ثم قولها :

واما جراح فؤادي الحزين فما زلن « يشكون » طول الصدر

اما هذا البيت فقد رأيته غير مستقيم الوزن :

آه وليمح لفظ الامس من سفر الوجود

اظنها : وليمح ، وقد قمتها على اخت لها وردت في ديوان الشاعرة .

اما في هذا البيت :

ها انا بين فكي الموت قلباً لم يزل راعشاً بحب الحياة

فأشهد انني اتعبت فكي حتى استقام الوزن ... فليتها تداركته ، ولم

تعب قارعاً بمداورته ، فالقراء اليوم مستعجلون .

ثم لا ادري ماذا ينقص هذا البيت :

في دمي لحن من الشوق جديد والمجالي حوالي نشيد

فهو في حاجة إلى « شدة » على ياء « المجالي » أو إلى « من » ... والله اعلم .
وبعد ، فأنا ممن يمجِّبهم هذا اللحن الجديد من الشوق ، ولست اكلف الشعراء
المنطق الذي أعدّه حجر عثره في درب الفن .

ثم هذا بيت آخر ينقصه شيء :

وغداً تتضرب الدموع وتفتى ضجة الموت في عمق السكون

اظنّها : عميق ، وقد رجعت إلى تصحيح الخطأ فوجدت لفظة مصححة
في هذه الصفحة في حين انه لم يشر إلى هذه الكلمة ...

اما لون الشاعرة الأدبي فجبراني قلّ فيه التلوين الذي تتمده السلالة
الجبرانية في مدرستنا الرمزية .

اما خلاصة الفقرة الحكيمة فهي ان الشاعرة تترك الملائكة ، عاشقة
الليل ، في طليعة بنات جنسها الشاعرات — ذوات النواوين — في هذا
الوقت ، ان لم تكن أولاهن .

ديوان شاعر الفصحى لسابا زريق

ما سمعت بمناسبة كبرى ، سواء أفي الشمال كانت ام في الجنوب ، وفي العاصمة ام في المواسم ، إلا وكان سابا زريق من فرسان ميدانها . فهذا الشاعر المطبوع اشتهر بمحبته ووفائه ، وكاد ان يكون محباً لجميع البشر ، ويعتبر لهم في كل مقام عن تلك المحبة الصادقة بأجود الشعر . بيان مشرق ، وقريحة مواراة فواراة كأنها نهر ابي علي ، ونفس سمحة لا تعرف ان تقول لا . ومع كثرة هذه المناسبات ترى شاعرنا المجيد لا يراجع شيئاً مما قال ، ويحاول دائماً ان يخرج من المناسبات وقد أتى بشيء طريف .

ليس لسابا زريق الخيال الذي يستولي على المدى الأبعد ، وهو لا يتعمل لذلك ، ففي عبارته التي لا غبار عليها ، وفي ضوره المقبولة المعقولة ، متجاة له وسلامة من لأذع النقد . وهو اذا لم يحلث دائماً في الأوج الشعري ، فلا يكون ابداً مسفهاً . ديباجة انيقة ، وشعر لا يعرف ما التقديم والتأخير ، ولا الألفاظ الخشنة . ان محبته الواسعة جعلت منه شاعراً لا يجارى في هذا المضمار ، وكل ما يصدر عفواً عن محبة واخلاص

يشق طريقه إلى القلب .

عبارة كلاسيكية ، فهو في شعره كأي فراس والبحاري ، تغنيه ان تكون كلماته راقصة مرقصة ، يحيي تركيبها على المهينة فيخلق جواً موسيقياً لا تمتل فيه ولا عناء . لم يجد عن خطة القدماء لا في تكوين القصيدة ولا في اسلوب بنيانها وزواياها ، فهذا شاعر ألمعي قضى ما قضى من عمره المديد لا يعمل غير الشعر ، فصفت ديباجته وقلّ النار في منظومه . ان الخطر ، كل الخطر ، على الشاعر متى كتب نثراً وقال شعراً .

ان الأستاذ ساجا زريق شاعر مناسبات ، ولكنه يخرج دائماً موضوعه اخراجاً شعرياً ، فتستحيل المناسبة تحت قلمه موضوعاً طريفاً مثل قصيدة يوسف الفاخوري . تحيل شاعر الفصحاء صديقه ونجته الملازم له الأستاذ الفاخوري ، فاخرج له صورة من لا صورة ، قلت تحيل ، وصوره من لا صورة لأن صديقنا العلامة الفاخوري كان قد استحال مومياء - تقريباً - حين نشط اصداؤه وطلابه الكثر للاحتفال بشكريه . وهذا ما قال فيه شاعرة زريق تحت عنوان : « طيف على قدمين » :

جسم يكاد يفسور في جلبابه	وقوى البيان تغور في اعصابه
يميه حمل بنائه متاقلاً	ويكرّ وثاباً على آرابه
طيف على قدمين يمشي طاورياً	سراً يضلّ نهى الننيه النابه
متلفت بالملك من اخلاصه	ومن الوداعة والتقى بلبابه

أرأيت هذا التلطف بالملك؟ لقد جاء به الشاعر ليعبر عن اسوداد جلده الأستاذ بعد حياة طويلة قضاها ، منذ فجر شبابه ، لا ينوق من الطعام غير كأس من الحليب ويضتين ويضع بكموات . اما الملح ، وهو قوام شعر المناسبات ، فما قال فيه الشاعر إلا ما يصح قوله في استاذ كيوسف الفاخوري الذي افنى العمر بين المهاجر والمهاجر .

ليس في ديوان شاعر الفصحاء ملحمة ، وان كان في مجموعته تاريخ حبة ، وهل

التاريخ غير تاريخ حياة المفرد ؟ فلو لأم الشاعر ووفّق بين بعض قصائد ديوانه لجاء من هذا البعض ما يشبه الملحمة ، قصيدة « هي الحرب » فرخ ملحمة . وقصيدة يوسف بك كرم ، وقصيدة عيد الجلاء ، وقصيدة الشيخ محمد الجسر ، وهي من طراز رقاء شوقي للملك حسين بن علي ، ومن وزنها عروضاً وقيمة . انها تتناول بالوصف حياة محمد الجسر في كل مواقفها الجهادية والسياسية .

فديوان الشاعر سابا الضخم الذي يقع في حوالي ٨٠٠ صفحة من القطع الكبير حافل بقصائد شتى من هذا الطراز الموشى . من عادي ان اقرأ الكتب المهيأة للنقد وانا مستلق في فراشي ، ولكن ديوان الاستاذ زريق قد اعياني حمله لضخامته ، وهو لو شاء تقسيمه لكان له منه عدة دواوين وكلها تمتع لذيد لأنه حافل بالذكريات . والذكريات ، كما قال شوقي : صدى السنين الحاكي .

خذ مثلاً قصائد البعث التي يتخيل فيه شاعر الفيحاء : العامل ، والتاجر ، وصاحب المال ، والمهامي ، والطبيب ، والقاضي ، والمقاتل ، والكاهن ، والعاخرة ، والشاعر ، وقد وقفوا جميعاً بحضرة الله القيوم وتقدموا ، كل واحد بدوره ، يبرثون ساحتهم ويطلبون المغفرة يوم الدينونة ، فهذه القصائد العشر التي يربطها خيط واحد ، لو اخرجها للشاعر اخراج دواوين اليوم ، لكان لنا منها ديوان شعر قائم برأسه . ولكن الاستاذ سابا زريق زجّها في هذا الديوان ، مع انها مستقلة عن المواضيع الاخرى قبلها وبعدها . ان سابا زريق غير خبير بتوضيب البضاعة ولا بطرق الأمبالاج ، فهو على طريقة « من زمان » يصدر الليمون بالكيس لا بالصندوق . وإلا لكان رش على بضاعته البهارات والفلفل ، وزينها بالرسوم الهزلية التي تزد القارئ ، فالموضوع قابل لكل هذا . وهو لو قسمه ، كما قلنا ، لكان له منه لا اقل من نصف دزينة دواوين .

وبعد كل هذا ، فلا يتوهم قارئ مقدمة ديوان شاعر الفيحاء ان الشاعر لم يقل شعره الا في المناسبات . كلا . فهناك مواضيع مستقلة قال فيها سابا شعراً وأجاد ، وما أحلى قوله في وصف دينار المعتصب الشحيح .

الغني القذر البخل اذا ما مضى ولتى كإحدى الحشرات
يخرج الناس به يقتادم بارع الهزء ومأثور التكات
كلهم من نفسه حين مشى خجل ، يخشى سهام النظرات
الأسى المر عليه ، نقده ، وانطلاق الفهقات ، العبرات
مأتم ، لكنه عرس الألى طالما في ظله ودوا المات
كم قنتت زوجه الموت له وتمناه بنوه والبنات
عاش والذلة تحدوه ، ومذ ألدوده شيعته اللعنات

ولأجل هذا أقول اتنا اذا قلنا انه شاعر مناسبات ليس غير ، كنا له من الظالمين .
ففي هذا الديوان قصائد مختلفة المواضيع حتى ان التي قيلت في مناسبة ما تكاد
تكون موضوعاً سافلاً بالمعاطفة الانسانية والفكر الاجتماعية ، فالاستاذ مخلص
دائماً لموضوعه ، نزاع إلى الاصلاح العام ، ولا ينسى المطالبة بحقوق منطقته ،
وقديماً كان الشاعر هو المدره المدافع عن حقوق القبيلة . والمنطقة والقرية اليوم
جلتاً محل القبيلة .

حياة سابا كلها شعر ، وقد يقوله في الطير الطائر اذا لم يوفق إلى موضوع
يرضيه ... ودوانه قطعة من زمان ، وثمنه الغالي تكريم لصاحبه .
عفواً نسينا المرأة . فللشاعر قصيدة عنوانها حواء ، يطري فيها المرأة نعتاً
حقى يقول في ختامها :

مها عصي الأمر جلبته على يدها من الدهاء وحسن الصبر آراء
والمعضلات التي ناء الرجال بها يكفي لها خاطر منها وإجاء
هم يشهدون وإيام لهم معها ان الحياة وما تحويه حواء
وكأن الشاعر اراد ان يحاسب ذمته فقال في الحاشية ، ان ما قاله لا يستحق
وعقيدته في حقوق المرأة ، ولكن قاله محابة نجل الاستاذ عنها ، ولذلك نظم
قصيدة فيما بعد تحمل عقيدته الصريحة في المرأة ومطالبها .
انه يريد المرأة في هذه القصيدة النابضة ما قبلها قصيدة دارها وسيده مملكتها
البيئية ، وفي ذلك يقول لها :

عرشك من حسنك شيدته ومن جلال الحق الميسل
لا تهدميه ضلة في الوغى تحت عجاج العنف والقسط
مزالق عوفيت منها فما اغناك عن أحدورها الموصل
واضيعة ان انت لم تكري طموحك الأعلى وتسرلي
قدرك لاحد له فاحذري تحديده طامحة تقشلي

نسيت ان الفت النظر الى خاصة من خواص هذا الديوان وهي ان قصائده الطويلة لا يضيق نفس قائلها عندما تشرف على النهاية ، وهذه الخاصة قلما تجدها عند الشعراء الكثيرين الطويلي النفس . وقد قرأت هذه الالوف المؤلفات من ديوان شاعر الفيحاء ولم يُعيني الا هذا البيت :

وطوت تلك الليالي في غلا نل الاستقلال اعقاب السنين !
وليس من الحق ، ولا بد من العدل ، ان نطلب من الشاعر غير ما تعود ولا ضد طباعه ، فهو من الرعيل الاول ، متأثر كل التأثر بشعراء العصور العباسية ، وحسب انه جرى شوطاً بعيداً في ميدانهم . ومع ذلك نقرأ له صرخات اصلاحية اوحى بها اليه حبه لبلاده فما اروع قوله مبكثاً لوطنه :

« الثورة البيضاء » منته فنام على المنى في غمرة الافراح
واذابه يدعو المنى متوسلاً فتصد طائفة بغير جناح
من منبىء بعد النوى بإياها والليل جان ، والصباح اباحي
ان اعجابنا بالقديم واحاطتنا اياه بهالة ثورانية من المجد الادبي يجعلنا لا نجد في المحدثين والمعاصرين من يتألمين ولعل الملاحظ كان اول من تنبه لهذا وأشار اليه حين أثر ابا فراس وابن برد على المتقدمين . وقبل وبعد فليس في الشعر والنثر مواضيع بل هناك اجادة ، فاكذب في أي غرض شئت وليس لاحد ان يسألك الا عن الاجادة .

واخيراً أقول : هنياً لشاعر الفيحاء هذا الحصاد المكتنز ، وهذا اليبدر الضخم ، وليس لنا ان نسأله غير ما اعطى ، فهذا ميدانه . ومن لا يصدق فليجرب ، فهو لا محالة مقصر عنه .

مَا وَرَاوِ الْجَسَارِ

مَدْرَسَةُ رُومَنْطِيقِيَّةٍ

إن الهجرة بدأ بيضاء على لسان العرب دينياً وأدبياً، ولا يعنينا الآن إلا الهجرة الأدبية . كانت الهجرة الأندلسية الأولى فأبدعت الموشحات ، فمرت في جو الشعر العربي مجاري هواء جديدة أنمشت من كانوا قد ملئوا الشعر المقال على غلط واحد ، فأقبلوا على ذلك الشعر الطريف بروونه وينشدونه ، ويخرجونه انقاماً والحائناً ، ثم انطوى بساط الحياة الأندلسية فسكنت فيشارة الشعر السارح ، وقبعت القرائح في كسر بيتها المربع الزوايا بعد تلك الدارات ذات الخرجات والشرفات ، المتنوعة الهندسة ، المختلفة التمام .

أما أدب المهجر الحديث فليس ابن الهجرة الحاضرة وحدها ، فقد كان قبل هذه الهجرة هجرات . هاجر الكثيرون قبل هؤلاء وعملوا المستطاع . وإن ننس الذين هاجروا في القرون الوسطى وما بعدها فلا ننس مهاجري القرن التاسع عشر ، الذين انشأوا المطابع العربية في العواصم العالمية ، ونشروا الكثير من آفرة القديمة التي كنا نسمع بها ولا نراها ، ثم احدثوا الصحف والمجلات العربية في تلك الغربة فكانت مدارس متنقلة في جميع الاقطار . ليس هنا مجال التدليل على جذور تلك المدارس الاولى المتأصلة في أدب المهجر ، ولكن كلمة جاءت في دستور « الرابطة القلمية » وهي

ان غاية هذه الرابطة : « بث روح جديدة نشيطة في جيم الأدب وانتشاله من وهدة الخمول والتقليد » .

اننا نقف عند هذه الكلمة لنعطي الحق صاحبه ، فاذا قال ذلك مؤسس الرابطة — جبران ونصيمه وغيرهما — فلا يعني هذا ان « رابطتهم » هي خرة ابن الفارض التي سكر بها من قبل ان يخلق الكرم : فلا قبلها قبل ولا بعد بعدها ... فنذمته سنة تقريباً سمعنا احمد فارس يقول في فاريافه : « السجع للمؤلف كالرجل من خشب للماشي » ، فينبغي لي ان لا أتوكأ عليه في جميع طرق التعبير لئلا تضيق بي مذاهبه .

ومن احب ان يسمع الكلام موثجاً بالاستعارات ، محسناً بالكنايات فعليه بمقامات الحريري او بالنوابغ للزنجشري . ثم شق طريق الجديد ومشى خلفه الناس . ومن قرأ نقده في « الفاريق » ، و « كشف الخبا » أدرك شأن هذا الفكر العظيم ، فهو ابو « المقالة » وعلى آثاره مشى اديب اسحق ونجيب الحداد إلى آخر السلسلة .

وقد سمعنا الامام محمد عبده ، في فجر القرن العشرين ، يردّ على بديع الزمان الهمذاني في شرحه مقامته الجاحظية . قال الهمذاني : وهل للجاحظ غير عريان الكلام ؟ فصاح به الامام محمد عبده : خنايك يا ابا الفضل ، إننا نؤثر هذا الكلام ونفضله .

ويحيى بعد هؤلاء كتاب وشعراء ، أخص منهم بالذكر فرح انطون و خليل مطران فكتبوا بأسلوب حيّ ، وتعبير لا خمول فيه ولا تقليد . لم يكن الشدياق واسحق والحداد وانطون والمطران والريحاني جماعة منظمة ، ولكنهم كانوا افراداً عملوا ما استطاعوا لإنعاش ادبنا العربي . وفي عهد الشدياق انفتحت جبهتان أدبيتان يأتيك خبرهما المفصل في كتابي « صقر لبنان » . ولم تتطرق إلى هذا الآن إلا لنصف من سبقونا إلى ما

نسعى إليه ، فبدون الإشارة إلى هذه الحلقة المحترمة من العاملين لا تستقيم سلسلتنا الأدبية ، ولذلك توّهنّا بهم اعترافاً بفضلهم وتنشيطاً للقافلة السائرة في الطريق بعدم .

أما ان « الرابطة القلمية » هي أول مدرسة أدبية منظمة تنزع إلى تكوين جماعة ذات طابع خاص في التفكير والتميز ، فهذا حق لا جدال فيه . كان قطب هذه الدائرة جبران ، وهو الطائر المحكي فيها . وقد مثل فيها ميخائيل نعيمة دور الناقد ، أولاً ، فكان لها كما كان سنت بيف Sainte - Beuve من المدرسة الرومنطيقية . إلا ان بين الاثنين فرقاً كبيراً فسنت بيف ، على تعصبه للرومنطيقين ، أراد الحاق نسبهم بقدماء شعراء وكتاب الفرنسيين . أما الاستاذ نعيمة فحاول قطع الصرّة ...

وكان في المدرسة الرومنطيقية الفرنسية عدة مصورين ، أما الرابطة القلمية فلم يكن فيها غير مصوّر واحد هو جبران ، زعم تلك المدرسة . وإذا عدنا إلى التاريخ رأينا ان الاسباب التي خلقت الرومنطيقية الفرنسية هي التي خلقت الرابطة القلمية . فهناك الثورة الفرنسية ، وهنا الحرب العظمى الأولى ، أما قبل هذا فما كنا نسمع غير صوت رومنطيقيين اثنين : الريحاني وجبران .

واتجه الأدب الأوروبي ، بعد الحرب الكبرى الأولى ، اتجاهاً جديداً . أما أدب المهجر الممثل في الرابطة فظل ينحو نحو ذلك الأدب الأوروبي الذي هجره أصحابه .

وكما ظهر جفاف الكلاسيكيين تجاه الرومنطيقين كذلك حصل عندنا ، فصادت طريقة الريحاني وجبران مريدين ومشايعين ، ولا يزال لها في كل قطر عربي من يقلدها وينحو نحوها ...

وكما فرقت الثورة الفرنسية وحروب نابليون الشعب الفرنسي في اقطار

الدنيا فتأثر بأدائها ، كذلك عملت الهجرة عندنا فاختلط أبناء الضاد بجميع شعوب الأرض ، وتأثر أدبنا بأداب الأمم كلها . وقد ترجمنا واخذنا من هنا وهناك كما ترجم الفرنسيون واخذوا من آداب الأمم الأخرى .

وكان التطور عندنا في المعاني أكثر منه في التعبير والطريقة لأن شعراء الاندلس سبقوا الجيل الحاضر إلى فك قيود الشعر ، وعلموا أوروبا ذلك منذ نيف وألف سنة ، ولهذا كان أثر الرابطة القلمية بيننا في الأغراض والمعاني ، أكثر منه في الحطة والأسلوب إذا استثنينا الريحاني وجبران .

أما الذين حاولوا نظم الشعر كل بيت على قافية ، فأخفقوا كما أخفق أحمد فارس من قبلهم ، ولم ينظم الا أربعة أبيات على ذاك الطراز - اقرأ الفارياق - بيد أنهم أفلحوا فلاحاً كبيراً في الشعر المنشور الذي بدأ به الريحاني ، ثم بلغ به حدان أعلى ذراه .

يعدّ الفرنسيون بيرون الشاعر الإنكليزي مؤثراً في شعرهم الرومنطيقي بحياته وآثاره ، أما العربية ففيها كثيرون من هذا الطراز . وإن وجد الغربيون في روسو مبعوضاً للهبة الاجتماعية فعندنا المصري الحافظ عليها...

لقد أنسى بيرون أدياء الفرنسيين كل شيء ، حتى قال ميشليه Michelet لقد التهمت بيرون فكتت كمن شرب شراباً قوياً . وقال لامرتين : إنه سكر بهذا الشعر . وقال ألفرد دي موسه : كأنه بعد مطالعة « Manfred » قد أتكر كل شيء في السماء والأرض . أما شاعرنا العربي الجديد فيرى هذه البضاعة مكذبة في مستودعات القدماء ، وإن لم تكن كبضاعة بيرون تماماً فهي تشبهها . ويعد الرومنطيقون الغربيون شاعر الطليان دانتي مؤثراً عديرتهم ، أما نحن فنعد دانتي متأثراً بالمصري .

والفرنسيون يعدون الاسيان مؤثراً بأدبهم بينما نرى المحققين الغربيين يعدون أدبنا مؤثراً بالأدب الاساني . والفرنسيون انقسم بقرون بأن

ادبنا الشرقي أثر في أدبهم الرومنطقي ، ليس من حيث بنيانه فقط ، بل انه قدّم له أزهى صور الوصف . وضربوا مثلاً على هذا كاتبهم الأشهر شاقوبريان في رحلته من باريس الى القدس ، وشاعرم العظيم هينو في مشرقياته ، وكاتبهم وشاعرم لامرتين برحلته الى الشرق .

وكا كان هدف الرومنطقيين في الغرب ان يعارضوا الكلاسيكيين وخصوصاً فولتير ، كذلك كانت الثورة عندنا على اغراض الجاهليين وغيرهم من القدماء ، وعلى تعابيرهم واساليبهم البيانية وصورهم . وكا جعل الرومنطقيون الخيال والشعور دعامة نثرهم وشعرهم ، كذلك عمل ادباء المهجر فأحبوا الطبيعة كما أحبها اولئك ، وحنا مثلهم الى الاوطان ذاك الحنين الذي سماه الناقد « تين » مرض العصر ، الا ان اصحابنا - ادباء المهجر - مالوا ككل شرقي الى الاستنتاج او استخراج الحكمة - كالاستاذ نعيمه في قصيدة « النهر المتجمد » وابو ماضي في « طلامسه » وكثير من قصائده ، والريحاني في وصفه وادي الفريكة ، وشعره المنثور ، وجبران في معظم مقالاته .

ان طلائع نهضتنا وخصوصاً جبران والريحاني ميّالون الى التصوف والتأله . وقد سار خلفهم نعيمه وأبو ماضي ونسيب عريضة . فبدلاً من ان يحبوا الناس بالحياة فإنهم يزدرونها ، يصفونها بتعابير تحتفي تحت حلاوتها وطلاوتها مراة وخيبة .

وكا أحب لامرتين وشاقوبريان الانشاء الزاهي الانيق كذلك فعلت مدرسة المهجر ، واكثرهم يعتمد على قول موسى : اضرب القلب فهنا النبوغ ، واشدّ الاغاني ياساً هي الاجمل . وكان اول من أسمى هذه الاناشيد الصوفية شعراً منشوراً ، الريحاني فجبران .

أما الاغراض الرئيسية عند مدرسة المهجر فاكثرها يتصل بالمشاكل

الدينية ، ويمنح الى إحياء مذاهب هرمة شائخة ، قوامها وحدة الوجود ، فقمعدوا يحترقون ما عند القائلين بها من آراء ، وينظفون الأكفان الصوفية ويكوونها . فالدودة أخت لنا ، والغراب ابن عمنا ، والطيور والحيوانات شريكة لنا في الرزق . أما عملياً فنصلي الوروار نأراً حامية اذا حام على خلية نحلنا ... ونقتل البقرة والعنزة والحمار اذا اغتالت ورقة من اغصان جنينتنا ! ان الفلسفة التي لا يعمل بها صاحبها ، قبل غيره ، لا تعيش . وهكذا شدوا اواصر القربى بينهم وبين مخلوقات كثيرة .

وقد كان للحياة والموت ، وما وراء القبر والزواج الحظ الوافر من اقلامهم . أما الحصة الكبرى فكانت لرجال الدين . كانت الثورة عليهم في كل مكان ، وعلى اسلوب واحد ، يكيلون لهم القدح بالمدح حتى جعلهم مصدر شقاء البشر . ثم ثاروا على كل سلطة تقريباً ، كما فعل قبلهم الرومنطيقيون الفرنسيون . وتكونت عندهم كأولئك آراء غريبة في الكاتب والشاعر فعدوا الكتابة وحياً يوحى ، وخال بعضهم انه لا يفنى .

ثم قامت في غيبتهم اوهام الصوفية العتيقة حتى سمعنا احدهم - نسيب عريضة - يقول : قد بدأنا نشاهد ... ماذا بدأ يشاهد ؟ لست أدري ! . إذا قال أبو ماضي : « لست أدري » فهذا كلام مقبول . أما ان نسيب عريضة قد بدأ يشاهد ، فهذا لا يخطر عقلي ... كان أمر الشؤون الدينية مفروغاً منه في أوروبا فتحول الإصلاح الذي ينشده كتابهم إلى بعض الأنظمة المدنية التي لم تكن مستقرة ، أما عندها فكان الشأن غير ذلك ، ولهذا اتجه كتابنا إلى الإصلاح الديني وعاربية التقاليد الشائخة ، كما ترى عند فرح انطون والريحاني وجبران ونسيب و أبو ماضي ومطران في قصيدة الزواج .

وقد شارك في هذا الكتاب الملون بعض المشاركة لان الحال عندهم

غيرها في المسيحية ، فكل ما نامضه هؤلاء كان لا شأن له كطلب المتفلاطمي
ان يتأني الناس في الطلاق . أما ولي الدين فتار ثورة الكتاب المسيحيين
الشاملة حتى على الصلاة والصوم .

إن في اقصيص وقصص جبران ثورة على كل شيء حتى على الحياة
نفسها ، ولولا القليل بنى العالم من جديد ... واعتقد جبران كما أعتقد
هينو شاعر الرومنطيقية الفرنسية : ان الكتاب قادة الانسانية ، فالكاتب
اكبر من المرزبان ، وعليه ان يحمل مشعله في يده حتى الموت ؛ واخيراً
تضخمت هذه الفكرة في رأس جبران ، فخال انه فرخ نبي ... اما اقصيص
نعيه - في المهجر - وخيرها « العاقر » فليس فيها ما في قصص جبران
من ثورة اجتماعية جامحة .

وكانت نهضة الرواية والقصة مسرح نهضة الثورة الاجتماعية الاوروبية ،
أما عندنا فظللنا نتمتع على المقالة والقصيدة حتى كتب فرح انطون وجبران
القصة ، وتطاول نعيمه على المسرح فاقتبس رواية « الآباء والبنون » عن
احد كتاب الروسية . وفي هذه الاقصيص الجبرانية ، وما نسج فيما بعد
على منوالها لا تمثل اللفظة القصد كله ، فادباؤنا اليوم فريقان : فريق قليل
الحظ من الآداب الاجنبية ، متمكن من الآداب العربية ولغة الضاد ،
والمعكس بالمعكس .

وكما انفرط عقد الرومنطيقين في فرنسا ، فراحوا في سبل مختلفة ،
كذلك أصاب مدرسة جبران - الرابطة القلمية - فانها أعطت فرصة ...
فنعيمه اشتغل للموسمات - اي الدولارات - كما سمّاها هو .

والريحاني ، وهو لم ينخرط في سلك الرهبانية ، تحول إلى كاتب نضال ،
يدعو العرب إلى الاتحاد ، ويحث الشرق على النهوض والإقبال على الوسائل
الحديثة في ميدان الفلاح والكفاح .

كما انصرف جبران إلى اللسان الانكليزي يكتب به دون غيره .
ولم يعد يتصاعد في ذلك الاقن الجليل غير بعض أغانٍ لأفراد تلك المدرسة .
أما الرفة الذي كان يفتسي مجتمعاً فتيماً . ولكن سرّاً آخر تجتمع في
اميركا الأخرى ...

جبران

جبران خليل جبران زعيم أدب المهجر بلا منازع ، وقد نحنا نحوه غنائيل نعيمه ، ولكنه لم يبلغ الامد الذي استولى عليه جبران . تخيل نعيمه ولكنه لم يشتط ولم يغرب وظل قريباً من الواقع .

مرّ جبران في أطوار ثلاثة . كان في طوره الأول ، في « دمعنة وابتسامة » ، أديب مقالات ، ومن يمن النظر يرّ في اسلوبها عناصر خفية مكتسبة من الشدياق واسحق وحداد ، ولكنها انيقة ناعمة غير مشددة كاساليب أولئك . فيها نسمة بليلة ، وروح شرقية صوفية كأنها من شعراء التوراة ، بيد انها تختلف عن أولئك جميعاً بخيال صاحبها العجيب . فجبران مصوّر في تعبيره أكثر منه كاتباً : فكأنما يكتب بريشة المصور لا بقلم الكاتب .

زر كشة ، وتدبج وتنسيق تذكرك قوس قزح . بيدع تعبيره صورة لا ينقصها الا الالوان ، وصوره كلها مستمدة من الفجر والظلام والنور . فيها الاشعة والظلال كمحيط شمالي لبنان الذي ربي جبران بين اوديته وجباله وتلاله . اما التعبير الجبراني ففيه شيء كثير من ثرثرة ينابيع تلك المنطقة المثلثة جمالاً ورهبة . فلا تروح إلى صورة من صور الانشائية وتكاد تم بها ، حق تقشعرّ اذ تمثل لك صورة تليها .

تلك هي طبيعة المكان التي عملت عليها في جبران صبيّاً وفقى ، انه عمل المحيط والمربى . اقرأ جبران في كل ما كتب ، من دمة وابتسامة إلى الاجنحة المتكسرة ، الى التي فيسوع ابن الانسان ، وآلهة الارض تران الشاعر او الكاتب جبران - سمته ما شئت - لا يستعير صورة ولا موضوعاً من مهجره ، فكأنه يكتب في محيط شرقي ، وكأن أذنيه مسدودتان لا تسمعان ضجيج البواب و زئير صواريخ المعامل والبواخر .

وهو في أروع ما كتب باللغة الانكليزية لا يتعدى هذه الحدود ، فالليل والثاني ، والوادي والنهر ، والبحر والثلج والضباب مواد منتوجاته الأولى . يذكر البيدر والكروم ونواح المعصرة ، فكان جرن المعصرة كان سريره ، والضباب اقطته والبيدر ملعب صوته . وهنا يعمل فيه شيطان : لبنان والتوراة .

إنشاء لدن مرن ناعم ، تعابير مملوءة الوانا وموسيقى ، تتعشها نفس صوفية كانت المثال الاعلى لإخوان الرابطة القلمية . فموتوا جميعاً على هذا الأسلوب الناعم الطري المزوج بالروح الصوفية وتقلسوا كلهم في شعرهم ونثرهم .

ان جبران كاتب مقلّ مجوّد متعمّل ، ولكن صقله الدائم لعبارته أخفى تعله ، فكاد ان يكون انشاؤه طبيعياً لا تحس أثر الصنعة فيه .

اما الطور الجبراني الثاني ، وهو طور الاقصوة والقصة ، فلا ينحرف فيه جبران عن أسلوب « دمة وابتسامة » الا قليلاً . يتجه اتجاهاً مملوفاً صوب الواقع لان القصص والحوار يحولان دون التحليق الكلي في سماء الخيال . وقصص جبران جميعها بل أدب جبران كله قوامه الحب . فحب اللحم والعظم هو القطب الجبراني وعليه تدور رحاه الطاحنة ... وما اغرقه في الصوفية الا رجاء الخلود في حضن المادة ، والتنتقل من حال

إلى حال ليظل يتمتع ببهامج الحياة وملذاتها . الحب الانساني المادي هو أنشودة جبران وهو غرضه في جميع اقاصيله . ففي قصته الاجتحة المتكسرة غشّى الحب المقهور أعذب الحان سمعها الادب العربي .

كان حب جبران حباً خاصاً ضيقاً في «سلى كرامه» ، و «وردة الهاني» ، و «مرقا البانية» ، و «صراخ القبور» ، ثم صار حباً عاماً مطلقاً في «الني» و «يسوع ابن الانسان» ، ولكنه ظلّ حباً لمحياً عظيماً ، فالشوق عند جبران غذاء روحي تحيا به الحياة نفسها ، ولولاه لم يكن شيء مما كان . فكأنه قد استمدّ هذا الشوق من اساطير الفينيقيين الاولين . فهو يتصور الضباب كما تصوّروه ، ويعتقد بتكثله العتيد وصورته في النغد القريب كياناً سورياً ... كما يعتقد الفلكيون بتطور النجوم السديمية .

وهذا المعتد الفينيقي الاصل جرّ جبران إلى الاعتقاد بالتقمص ، فبدأه في فجر حياته الادبية حين ظهرت اولى مجموعات اقاصيله «عرانس المروج» . ففي إحدى قصص هذه المجموعة وعنوانها - رماد الاجيال - يختار لها بعلبك محطاً يظهر بطلها «علي» قرب القلعة المشهورة ويلتقي بحبيبتة التي عرفها وعشقها منذ آلاف السنين . ان هذه الفكرة التي هلم بها جبران طول حياته لم تفارقه قط ، وبها ختم كتابه «الني» ، إذ قال : « وقريباً ترونني لأن امرأة أخرى ستليني » .

أما الطور الجبراني الثالث فهو طور الفلسفة ، عتبر فيه عن افكاره باللسان الانكليزي ، واراد ان ينقل إلى اميركا العملية صوفية الشرق ، فكتب لهم بلسانهم «المجنون» و «السابق» و «الني» و «يسوع ابن الانسان» ، و «آلهة الارض» ، وفي هذا الكتاب الاخير غرق جبران في الرمزية إلى ما فوق اذنيه .

وكأنني به ، إذ عنون كتابه «السابق» ، ذو غرض بعيد ، اظنه يعني

به أحد الانبياء وهو الذي يسمونه في النصرانية يوحنا السابق ، لانه سبق السيد المسيح مبشراً به ، وهكذا يحمل جبران كتابه هذا « سابقاً » لكتابه « النبي » .

أما كتابه « النبي » الذي زعموا انه يشبه كتاب نيتشه فهو بخلاف ذلك . ففيلسوف المانيا أنشأ النازية ، أما جبران فلم يفتش شيئاً ، بنى كتابه على المحبة ، والمحبة أساس اديانتنا . ان لولب كتاب فيلسوف الالمان يدور حول البغض فكان من نتائجه ما كان ...

أما نزعة جبران إلى « التأميم » فغلبت عليه في طوره الاخير ، فهو مثل نيتشه يريد أن يتشبح في برد النبي مها كلفه الامر . ولكن فكرته هذه لم تؤد به الى مستشفى المجاذيب كما أدت بنيتشه . كان جبران يتحدث عن الروح وتعاليمها وهو غارق في جسده ، يتحدث عن الحب الاسمي ، ولا يعني إلا الحب الانساني ، وهذا ما يحملي على التأكيد ان الرجل وثنى المتقد ، وان كتب عن يسوع ما كتب ؛ فينيقي عتيق يرى في مسيحه شخصية ادونيس ، بعد اجيال ، كما نقرأ في « يسوع ابن الانسان » . ومع هذا اخالني متأكداً ان « الحب » لم يسمع صوتاً ألت واعمق من صوت جبران ، ليس في الادب العربي فقط بل في الادب العالمي ، والغريب العجيب هو ان ما يكتبه جبران في هذا الموضوع آية في النعومة على ما فيه من ثورة هدامة .

أما اثر جبران في الرابطة القلمية وما بعدها فلا يزال ملموساً ، فكل اعضائها اقتربوا من طريقته في التفكير والتعبير . فقالة جبران « حفار القبور » ، وقصيدة الاستاذ نعيمه « اخي إن ضج ... » كأنها من مقلع واحد ، وان اختلفنا شكلاً . أما معتقد الخلود فواحد عندهم جميعاً .

هذا ابو ماضي الذي أعدّه صلة بين القديم والجديد يفلسف كأصحابنا

جميعاً . يحدثنا عن جهله كيف جاء إلى هذا الكون ، فذكرني بقول
الريحاني ، حين شبه وجوده في هذه الدنيا وجهله له يجرذ وجد في قبر
عتيق ... فهو يعيش فيه ولا يعرف من بنائه ، ولا متى شئد ، ولا
يوم تهدمه !!

تخيّل جبران في كتابه « النبي » مدينة أبحر إليها ، وقد جعل اسمها :
« اورفليس » على وزن اورشليم ، فالتقاء ناسها واخذوا يطرحون عليه
استلهم طالبين منه حلّ مشاكلهم الاجتماعية . فحلها لهم حلاً شريعياً ،
مفتاحه المحبة والسلام .

ومثل جبران فعل الأستاذ نعيمه ، حين عاد إلينا ، فركز هنا ،
وعلم هناك متصلاً بالناس مباشرة يراهم ويرويه ، ويكلّمهم ويسمعونه ...
ثم جمعت تلك الخطب في كتاب « زاد المعاد » . الخبز والادام واحد
في « النبي » و « زاد المعاد » . أما اختلافها ، في بعد مدى التأثير والسيرورة ،
فذلك ناشئ عن ان الأستاذ ميخائيل يحدث اناساً غير غرباء عن اورشليم
فما نفقت بضاعته عندهم كما نفقت بضاعة جبران عند الأميركيين ، الذين
ينفق عندهم كل شيء .

اما الاسلوب الذي اعتمدته هذه المدرسة فيلخصه جبران بقوله : « يكتب
بعضنا لمن ماتوا ، ولا يندري ان قرّاءه في المقابر . ويكتب بعضنا لإرضاء
معاصريه حاسباً ان في ذلك العظمة والجلود فيخطيء الرمي . ويكتب
بعضنا لانه ان لم يكتب يموت وهذا من الخالدين » .

أما رأيه في شعراء المهجر فقد قال : « لو تنبأ المتنبي وافترض الفارض ،
ان ما كتباه سيصبح مورداً لافكار عقيمة ، ومقوداً لرؤوس مشاعير يومنا
لأهراقاً المحابر في محاجر النسيان وخطماً الاقلام بأيدي الاممال .

ان عصرنا هذا قد كثرت فيه قلقلة الحديد وضجيج المعامل : فجاء

شعرنا ثقيلًا ضخماً كالقطارات ، ومزعجاً كصغير البخار .

وهنا يخاطر ببالننا جبران الشاعر « نظماً » فهل وفق يا ترى إلى الشعر الذي يريد ؟

لا . ان جبران شاعر في منشوره لا في منظومه . أراد ان يفلس نظماً فقال أشياء هي أفكار أكثر منها موسيقى .

كانوا في الأندلس يتخطون من الطب إلى الفلسفة ، وفي « اندلسنا الجديدة » كما ممام بعضهم ، يتخطون من الادب إلى الفلسفة ؟ وهذا ما وقع لجبران ونعيمه .

ويعد ، فقد عيسى أسلوب جبران كأسلوب ابن العميد ، ولكنه كيفها دارت به الحال يظل أسلوباً متبّعاً ، ويظل صاحبه زعيم مدرسة يبقى الكثير من عناصرها في الذرية ، تتمشى فيها تمشي الوراثة في الناس . وما هذه الالوان والجازات والاسنادات والاغراق في تعبئة الجملة إلا مظهر من مظاهر الادب الجبراني تحول وتطور كما تراه في شعر الشباب الحديث ونثرهم .

واذا ماتت « دمة وإبتسامة » واخوانها فلا تموت كلمات جبران . وانتي لأراها تنبعت يوماً بعد يوم من مراقدها لانتا نجد في تأليفه ما يميزنا في محنتنا ، وما يدفعنا إلى العمل بنصائحه لنصيب الاهداف التي تنصبها الاحوال الراهنة أمام أعيننا .

فزعم أدب المهجر شخصية لها مميزات القوة ، وعناصرها المتمردة . فهو شرقي عربي ، لم يكتب ليمغرب الشرق بل كتب ليمشرق الغرب ويكون له رسولا ... والشخص الفذ هو الذي يحتفظ بلونه لانه في غنى عن الالوان التي يكتسبها من محيط غريب .

ان النوابع يفرضون أنفسهم على الناس . والمجنون هو من يحاول طمسهم ... إنه كمن يبصق في وجه الهواء القالع .

المدرسة الجنبية

أقفلت مدرسة اميركا الشمالية ابوابها ، وتفرق السرب ، فهذا الريحاني يغني على ليلي جديدة ، ينفخ في بوق القومية العربية داعياً احفاد يعرب إلى الاتحاد ، بعد ان اضطجع على صفة ربة الوادي في الفريكة صارخاً مستطباً : داويني ربة الوادي ، داويني .

وهذا جبران قد امسى يكتب بلسان الدولار والشلين .

وهذا ميخائيل نعيمة يعود إلى لبنان ، بعد موت جبران ، ويحتلي في بسكتنا والشخروب ليكتب « المراحل » ثم كتاب « جبران خليل جبران » النفيس ، كتبه ليبدد غيوماً تكاثفت حول جبران ... خاف ان يفتن صديقه الحميم وزاء غيوم النبوءة الكثيفة ، فشق ثوبه عن صدره ليعمكه من تنشق الهواء النقي ... ثم خال ان ذلك غير واف بالمرام ، فبدأ منذ حبل به في البطن ، وأخيراً ، كشف عن عورته ... فتم الكتاب ... وفي كتابه هذا « جبران » يؤرخ لنا ميخائيل انشاء « الرابطة القلمية » واضعاً النقاط على الحروف .

أما ايليا أبو ماضي ، شاعر المهجر الكبير ، فاحترف الصحافة واقل من قول الشعر . أما الآخرون وهم « العمال » كما يسميهم قانون الرابطة فكادوا ان يصمتوا .

عاد الينا الاستاذ نعيمه خارجاً من معترك عملية نيويورك مثل الشعرة
من العجين ، فاسمع كيف يخاطب ابناء بلده :

يا ابناء بسكتنا ، يا لحمي ودمي . ما أنا بالنبي يصنع العجائب ، غير
اني منذ عدت اليكم والعجائب تكتنفي ، فكأنني في عالم مسحور . انظر
إلى الجبال التي كنت اتسلقها ، فاذا بها تتسلفني !! اكاد لا اسمع زقزقة
عصفور إلا سمعت فيها اجوافاً من الملائكة ، ترنم بصوت واحد : قدوس ،
قدوس ، قدوس .

ما أبعد السلام الخيم في جبالكم عن الجلبة العسكرية في مدينة كمدية
نيويورك ، وتلك الجلبة هي تطاحن المطامع والاهواء البشرية في سبيل
الريال . وليس أضلّ ممن يعتقد ان بإمكانه التوفيق بين ريال نيويورك وسلام
صنين . فريال نيويورك نقاب كثيف يحجب وجه الله ، وصنين عرش من
طهارة يبدو عليه وجه الله سافراً . من اختار منكم ريال المهجر وكل ما
في قلبه من جلبة لا تسكن ، فليطلق سلام صنين !

تقولون لي : وهل نأكل سلام صنين اذا عضنا الجوع ، او نلتحف
به اذا قرصنا البرد ؟

وأنا أقول لكم : بلى والف بلى . فالجمال الذي تنثره يد الله حوالكم
بسغاء هو الطعام والكساء والمأوى لكل ما هو ازلي وابدني فيكم .
ولكن أأكل نعيمه من التفاح والدراقن والحوخ ، أم أكل من سلام صنين؟

ثم يعلن في مقام آخر : انه حطم جميع أبواق الناس التي تعلم النفخ
ليستميض عنها ببوق واحد ، هو البوق الذي يمجّد به الحياة الكاملة ،
والحياة الكاملة التي يعينها نجد عناصرها في خطبه « زاد المعاد » ، وهي
تصلح دستوراً للحياة المثلى ، ولكن هل استطاع صاحبها ان يحب ويحود
ويضعي كما قال ؟ هل يعمل بما علّم ويعلم ؟ قال فيه صاحبه امين

الريحاني ، في كتابه « قلب لبنان » :

« وفي هذه الصرود كوخ في صخر اسمه الشخروب ، بقي طوال الدهر نكرة مثل المزارعين والرعاة الذين كانوا يأوون اليه . بقي نكرة الى ان شخّ فيه نور الفكر والادب ، اتخذه ميخائيل نعيمة « مقاماً » يطبخ فيه طبخات صوفية ، ويعمل التوابل والحوامض الادبية ، ويوزعها في الكتب والمقالات على الناس لوجه الله تعالى ... »

هنيئاً للنسك الاقدمين اجدادنا المتعبدين ، المتصوفين : هنيئاً لميخائيل ، فقد عاد اليهم في القرن العشرين عن طريق اميركا إلى صنين : واندمج في سلكهم الطاهر .

وهكذا تقلص ظل « الرابطة القلمية » تلك المدرسة الادبية التي ارتقى على يدها النثر العربي إلى ذروة فنية مرموقة . كانت كما تدلنا اقوال زعمائها وعملها ، مدرسة عامة لا نزعة خاصة لها ، تكاد تكون أمية ، بل قل شرقية شاملة . كان فيها شعراء ولكثهم ليسوا من الشعراء الكبار — اذا استثنينا أبا ماضي — كلهم قالوا شعراً منظوماً : من جبران إلى نعيمة ، إلى كل عضو من اعضاء الرابطة ولكن منشورهم فاق منظومهم .

أما المدرسة التي فتحت ابوابها في البرازيل — العصبية الاندلسية — فقد لا تكون كالرابطة القلمية تنظيمياً وجهاداً ، وقد لا يكون لها دستور كذلك ، وان كان لها مجلتان راقيتان لم يكن للرابطة القلمية مثلها . وهاتان المجلتان ظلتا تصدران حتى الأمس ، وهما « العصبية الاندلسية » و « الاندلس الجديدة » . من عنوان هاتين المجلتين تعلم ان الشعر غالب على هذه المدرسة . فالمهجر البرازيلي لم يتحفنا بغير دواوين شعر مختلفة الالوان والنزعات ، ينحو أكثر شعرائها نحو شعراء « الرابطة القلمية » في الاغراض الوجدانية وينغمسون دونهم بالشعر الوطني القومي . وهذا الضرب لم يعالجه شعراء

اميركا الشمالية .

كان المهاجرون البرازيليون قليلي العناية بالادب . لا يعني صنفهم الاول
إلا السياسة والاخبار ، وظلوا على ذلك حتى وصلت هذه الثقافة المتأدبة
إلى البرازيل ، فوجدت فيها مرتعاً خصباً لمبقرتها ، وجالية متمصبة
لجنسها وقوميتها ، وشعباً برازيلياً يحترم العروبة ويحلمها ، ويذكر ما لها
على أمتة في سالف الزمن من يد . فاتقنت جذوة الادب في صدورهم ،
والادب كالتجارة ينمو بالاخذ والعطاء .

ان شعراء اميركا الجنوبية او اللاتينية كثيرون ، من مشاهيرهم رشيد
سلم الحوري - الشاعر القروي - والياس فرحات ، وشكرا اله الجري
وأخوه عقل ، ونعمه قازان ، وفوزي المعلوف ، وأخوه شفيق .

قال فوزي في بساط الريح شعراً اندلسياً حقاً لولا ما فيه من غلو
واغراق ، تتجاوب الاصداء النفسية في منرجاته ومنحنياته ، ولكنها تلهث
تعباً . وهذه النشيدة الانيقة - بساط الريح - أحلت شاعرها فوزي
المعلوف منزلة عالية . أما قصائده التي قالها في مواضيع متشعبة فليست من
وزنها وبابتها . جرت فوزي أولاً في قصيدة عنوانها « الفردوس المستعاد »
فلم يقل غير الدون من الشعر ، واليك منه هذا النموذج الصغير :

فانحنى آدم لربّ الانام	ثم خراً
ساجداً قائلاً بكل احترام	ربّ شكراً
قال ايضاً لزوجته حواء	بابتسام
كفكفي الدمع أبشري بالصفاء	والسلام
لم يعد موجب الماضي البكاء	والسلام
استمدنا الفردوس بالابناء	بالحيام

أرأيت « خراً » و « بكل احترام » و « قال ايضاً » و « لم يعد موجب »

ما ابعدا عن الشعر ؟ فهذا شعر لا شعر فيه ، ولا يحسن صاحبه غير التجميل ، ويخفى عليك حق تظن انه ليس لصاحب « بساط الريح » . حقاً ان الشاعرية قريحة وطبيع ، اما اجادة السبك فمران .

واذا قابلنا بين فردوس فوزي المستعاد وبين « أوتار » اخيه رياض المتقطعة نكاد نجزم ان رياضاً سيكون بديراً كاملاً ، لأن الفرق بين « الفردوس المستعاد » و « الأوتار المتقطعة » بعيد جداً .

اما شفيق ، وهو من شعراء هذه العصابة ، فقد ركب متن طائفة ، مثل شقيقه فوزي فحملته إلى عبقر : فخاف وخوف ، وعاد من ذلك الوادي المسحور لا يحمل شيئاً لأن الحال في عبقر كما هي في بمالك ودول اليوم : ممنوع التصدير الا عن طريق المفاوضة . وشفيق لم يكن معه شيء ليقايض ويعود غانماً ...

وهؤلاء الاخوة ثلاثتهم : فوزي وشفيق ورياض ، محشو شعراً تشاؤماً ، ونصيحتي لرياض ان يعدّي عن تشاؤمه او فليكن صاحب الكوخ الاسود لا الاخضر ، فالاخضرار والتشاؤم كالصيف والشتاء على سطح واحد .

أما شعراء اميركا اللاتينية الباقون ففي شعراً طلاوة الشعر الاندلسي بل يفوقه جرماً وشدة أمر . فاذا قرأت روائع شكرا لله الجر وفرحات والشاعر القروي رأيت ان هؤلاء أخذوا من شعر الاندلس طلاوته دون ميوعته فقالوا شعراً طيباً .

اما نعمة قازان صاحب معلقة الارز ، فقد جمع فيها خواص الشعر الاندلسي ، بل قل اطواره كلها ، من الموشحات الرصينة حتى القوما والنوبيات ، يتبدئها بالميجانا والعتابا ، ويختتمها بالزجل ، وهذا البدء والختام من الشعر الرائع . اما شعر المعلقة فغامرة جريئة لا ادري ما يكون شأنها في الادب . ولست أدرسها الآن ، فوعدها مع شعراء المهجر جميعاً ،

في الكتاب الذي يلي هذا .

ان في هذه القصيدة مرامي بعيدة تستدعي التفكير ، والآن لا نقول فيها الا كلمة عارضة جرتا اليها موضوعنا . فالظاهرة الغريبة ، في هذه القصيدة ، منبثقة مما قلنا سابقاً ، اي ان اندلسينا الجدد يتخطون من الشعر الى الفلسفة : فنعمة قازان خلق لنا ثالوثاً جديداً وكاد ان يوجب علينا تقديسه ، وهذا الثالوث يتألف من ثلاثة : جبران وهو فجر ، وميخائيل نعيمة فجر في فجر ، والشعاع نعمة قازان ، رحم الله عظام مار توما ، فكم تعب حتى يحل عقدة المسيحية التي لم تفك ، وها هو الشاعر نعمة قازان يفكها على الهينة ! فـجـبران الآب ، ونعيمة الابن ، ونعمة الروح القدس ، ومن لا يؤمن يُدان ، وطوبى للنقية قلوبهم فإنهم يعاينون الله ... اما من هم مثلاً فما ابعدهم عن مشاهدة « صندوق الفرجة » ...

ففي نظر قازان ان جبران لم يقل كلمته ، ونعيمة الذي سماه قازان « فجر في فجر » - على طراز ما جاء في « قانون الايمان » : نور من نور ، اله حق من اله حق - قد قال بعضها . عثر نعمة قازان على هذا الفجر في فجر ، او النور من نور ، في الهيكل المعجيب حين دخله هو . ويؤكد لنا انه لم يجد فيه أحداً غيره ... ولذلك يخاطب نعمة قازان الناس جميعاً في بده كل مقطع من معلقة الارز بهذا البيت :

وقفتم بياي ولم تدخلوا فإذا تريدون يا اخوتي

سلامتك يا اخي ... الا انه ، على نبه وكرمه ، اشاح بنظره عنا وطار كإيليا ، وبرفت عين بلع السدرة ...

لم يقاس شيئاً بما قاساه شقيق معلوف في رحلته تلك ، بل قفز قفزة عريضة فاذا به حد الله جلّ جلاله :

وحلقت حتى دنوت اليه فقلت « السلام على العزة »

وقطع الكلام خاتماً معلقته بهذا البيت ، ثم لم يقل لنا شيئاً عن الرد
على هذه التحية ، أمثلها كان أم أحسن منها . وهذا الشاعر الذي بلغ ما
لم يبلغه احد من بني آدم حق الرسل والانبياء ، يتواضع ويقول :

وليس كبير سوى نعمة وليس صغير سوى نعمة
فيكم الخير والبركة ، كلاهما كبيران يا اخي نعمة ... نجاتا الله وإياكم من
هذه الوسوس !

وها نحن نبهر او نظير من الاميركتين عائدتين إلى لبنان ، ونستريح
قليلاً للاستجمام ، مرجئين نقد المدرسة الشعرية الحديثة وتحليلها مبتدئين
بزعيمها سعيد عقل والجاللين معه في المعمة ، ولن نهمّل احداً حق
المقلدين الخاسرين .

ثم غرّ عجالي على المدرسة النثرية الجديدة لأنها مشتقة من تلك . ان
هذه الطريقة في النثر قد شغلت عقول الناشئين وأذهانهم حتى كادوا ان
يفسدوا صورها وتعايرها . والأغرب من هذا ان ينزع اليها بعض المشايخ
ويوغلوا في غاباتها غير خائفين على عمامهم وأردانهم وأذيالهم .

فهرست الاعلام

۳۳	ابن مالك	I	
۵۵	ابن المعتز	۱۴۲ ، ۳۸	ابراهيم حافظ
۶۹	ابن هاني	، ۵۵ ، ۵۴ ، ۱۰ ، ۹	ابن الاثير
۲۰۷ ، ۵۴ ، ۹	ابو تمام	۹۹ ، ۵۹ ، ۵۸	
۱۵۲	ابو راشد عبود		ابن ابي حفصة ۱۰
(۱۴۹ - ۱۰۵)	ابو شبكة الياس ۸۳ ،	۴۹ ،	ابن ابي ربيعة عمر ۱۹
۱۷۵ ، ۱۶۶ ، ۲۶	ابو العنابية	۷۲	ابن بطوطة
(۲۴۴ - ۲۲۳)	ابو ماضي ايليا ۳۶ ، ۳۵	۱۲۳	ابن حرب
، ۵۳ ، ۳۳ ، ۳۲ ، ۳۱	ابو نواس		ابن الخطيب
، ۱۱۵ ، ۶۹ ، ۶۳		۱۷	لسان الدين
۱۸۵ ، ۱۴۲ ، ۱۲۰		، ۳۴ ، ۳۳ ، ۲۶ ، ۹	ابن الرومي
۱۴۵	اخوخ	، ۱۱۸ ، ۱۰۱ ، ۵۵	
، ۳۲ ، ۲۱ ، ۲۰	الاخطل	، ۱۹۷ ، ۱۹۵ ، ۱۶۳	
۶۷ ، ۳۳		۲۲۲	
۱۰	ايسون	۸۴	ابن سيرين
۷۳	ارميا	۲۲۴ ، ۱۹۲	ابن عقيل
۱۰	الاصمي	۲۰۶ ، ۱۱۴	ابن عوانة
۲۳۰	اسحق اديب	۶۶ ، ۲۱	ابن الفارض

٨	البستاني بطرس	١٧٩ ، ١٤٢ ، ٥٢	الاعشى
٢١	بسمرك	١٨٠ ، ١٢١	اغوسطينوس
٣٢ ، ٣١ ، ١٦ ، ١٠	بشار	١١١ ، ٩١ ، ٨٩	الفرد دي فيني
٣٨ ، ٣٧ ، ٣٣		١٨٠ ، ١٢٦ ، ١١٤	
١٤٢	بشير	١٨٧ ، ١٢٦ ، ١٩	الفرد دي موسى
٦٦ ، ٦٥ ، ١٩	البهاء زهير	٢١٥	
٨٨ ، ٨١ ، ٨٠ ، ١٩	بودلير	٢١ ، ٢٠ ، ١٠	امرؤ القيس
١٢٦ ، ١١٢ ، ٩٨		٩٧ ، ٩٥ ، ٦٩ ، ٣٦	
٢٣٢ ، ١٩	بيرون	١٧٣ ، ١١٦ ، ١١٤	
٥		١٨٤ ، ١٧٩	
٢٩	تأبط شراً	٢٣٠ ، ١٤٦ ، ٣٦	انطون فرح
(١٤٤ - ١٣٧)	تقي الدين امين	(٢٣٤)	
١٤٢	تقي الدين خليل	١٤٥	ايليا
٧١	تقي الدين رشيد	٣٤ ، ٢٤	ايوب
١٤٢	تقي الدين سعيد	ب	
٧٣	تولستوي	٦٤ ، ٦٢	بابا دياناقوس
٢٠٥	تين	٥٨ ، ٣٠	البارودي
ج		٢٨	باغي
٦١ ، ٣٩ ، ٣٢	الجاحظ	٣٣	البيضاء
١٠٢		٩ ، ٩٠ ، ١٠٦	البحري
١٢٢	جان جاك روسو	١٨٧ ، ١٧٩ ، ١٦٦	
٧٣ ، ٧٢ ، ٧١ ، ٣٨	جبران	٢١١	
(٢٤٨ - ٢٣٠)	٨٧	٧٨ ، ٧٧	برغسون
٤٧ ، ٤٥	جيريل	٢٠٥ ، ١٧٩	بروتنير
٢٤٦ ، ٢٤٥	الجر شكرا	١٠	بريمون الاب

٣		٢٤٥	الجر عقل
١٩٦ ، ١٨٠	دانتي	١٠٧	جرير
٧٣	دانيال	٣٥	جودت صالح
١١٩	داوود	١٧٥	جيل ليتمر
١٤٣	الدباس	ح	
٢٠٣	دون كيشوت	٥٨	حافظ
٥٨	دموس حليم	١٢٦ ، ١٢٥ ، ٩٩	حيث فؤاد
٧٧	دي ستال	٢٣٠ ، ٢٤	الحداد نجيب
٢١٢ ، ٣٢	ديك الجن المحصي	٢٣٠ ، ١١٣	الحريري
٢١٥	دي نواي	٣٤ ، ٣٩ ، ٦٤ ،	حسين طه
ر		١٠٣	
٣٩	الرافعي		الحلي الخوري
١٨٦	رستم اسعد	١٥٨	جرجس
١٦٦	الرصافي	خ	
٢٨	روستان		الحازن الشيخ
٢٣٢	روسو	١٦٢ ، ١٥٩	شامين
١٥	روكفلر	٢٠٧	خالد بن الوليد
٧٣ ، ٧٢ ، ٢٣	الريحاني امين	١٥٦	خوري اميل
١٤٩ ، ١٥٤ ، ١٥٥		١٥٦	الخوري بشاره
١٥٦ ، ١٨٩ (٢٣٠-)		٣٥ ، ٣٧ (٣٨-٦٠)	
(٢٤٤)		٦٥ ، ٧٠ ، ٧٣ ، ٩٠	
١٦١	الريس نصيف	٩٤ ، ٩٧ ، ١٠٠	
ز		١٠٣ ، ١٠٤ ، ١١٦	
	زريق سابا	١٩٢ ، ٢٠٠	
٨٠ ، ٧٨	زرواستر		الخوري رشيد
		٢٤٦ ، ٢٤٥	(الشاعر القروي)

٥٧ ، ٥٨ ، ٦٠ ، ٦٢

٦٣ ، ٦٤ ، ٦٥ ، ٦٨

٦٩ ، ٧٠ ، ٧٢ ، ١٤٠

١٤٨ ، ١٩٩ ، ٢١٢

ص

صبري اسماعيل ٥٨

صديقي عبدالرحمن ٣٤

ط

طرفة بن العبد ١٩ ، ٣٢

ع

عبد الحميد السلطان ١٦٢

عبد ماريون ٨ ، ٤٣ ، ٩٦

١٥٨ ، ١٦٢

عريضة نسيب ٢٣٣ ، ٢٣٤

العقاد ٣٢ ، ٣٥ ، ٣٧

٥٤ ، ٥٥

عقل سعيد ٣٨ ، ٦١ ، ١٠١

١٨٠ ، ٢٤٨

عقل وديع ٢٦

علي الامام ١٦٨

عمر بن ابي ربيعة ٢١ ، ٣٣ ، ٩٢

١١٦ ، ١٢٨

عمر ابوريشة (٢٠٤ - ٢١٤)

عمر بن عبد قيس ١٢٩

عنترة ٨ ، ٢٤

الزغشري ٢٣٠

الزهاوي ٢٦ ، ٣٦ ، ٣٧

١٦٦ ، ١٧٩ ، ١٩٤

ص

السري ٣٣

سليمان فؤاد ١٢٥

السموأل ١٧٩

سنت بيف ٢٣١

السودا يوسف ٧٦

سورل جورج ٢٨

سيمويه ١٦

سييلي برودوم ٨٨ ، ٢١٦

ش

شاتوبريان ٢٣٣

الشيبي محمد رضا (١٦٦ - ١٧١)

الشدياق احمد فارس ٨ ، ٢١ ، ٣٩ ، ٤٧

٢٣٠ ، ٢٣١

الشرقوني سعيد ٨

الشريف الرضي ١٦٦

شمشون ١١٣ ، ١١٤ ، ١١٧

١٢٠ ، ١٢٧

الشنفرى ٢٩

شوقي ٩ ، ٢٥ ، ٣٤ ، ٣٩

٤٠ ، ٤٥ ، ٤٧ ، ٤٩

٥٠ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ٥٦

١١٨	فولتير	٣٤	عوص
٧٢ ، ٧١ ، ٣٠	فياض نقولا	١٤٨	عوض فريد
ق		غ	
٢٤٧ ، ٢٤٦ ، ٢٤٥	قازان نعمة	٢١١	غازي الملك
٢٤٨		٢٩	غرمانيوس الدكتور ٢٨
١٤٢	قايين	٧٦ ، ٧٥ ، ٧١	غصوب يوسف
١٠٠	قس بن ساعدة	٧٧ ، ٧٩ ، ٨٠	
ك		(١٠٦ - ٨١)	
٥٠	كامل مصطفى	٥٩ ، ٢٦ ، ١٩	غوته
٢٣	كلوديل بول	٢٨	غوبلز
١٤١	كنعان رشيد	ف	
ل		١٠٧ ، ١٠٠	الفارابي
١١٢ ، ٤٩	لامنه	١٥٠ ، ١٤٧ ، ١٤٦	فارس حبيب
٢٣٣ ، ٢٣٢ ، ١٧٤	لامرتين	١٦١	
١٢٦	لانسون	٨٣ ، (١٦٥ - ١٤٥)	فارس فليكس
١١٩ ، ٣٤	لوسيفوروس	٣٤ ، ٢٤	فاليري
م		١٤٢	فخر الدين
١٦٣ ، ٥٦	مارا فرام الصرباني	٩٠	فرحات جرمانوس
٣٤	المازني	٢٤٥	فرحات الياس
١٩	مالرمة	٦٤	فرجيل
٣٩	مبارك زكي	١٩ ، ٣١ ، ٤٩	الفرزدق
٢٦ ، ٢٠ ، ١٩ ، ١٣	المتني	٥٠	
٤٧ ، ٣٧ ، ٣٣ ، ٢٨		٦٠ ، ٥٠	فرعون
١٤٤ ، ٨٨ ، ٧٠ ، ٥٤		٧٩	فرنكلين
١٩١ ، ١٨٥ ، ١٧٢		١٨٥ ، ١٢١ ، ٨٤	فرويد

٤٠ (٧٠ - ٥٠)	نخلة امين	١٩٧ ، ١٩٨ ، ٢١٦
٧٣ ، ١٠٠ ، ٢٢٠	نعيمة غنائيل	٢١٧ ، ٢١٨
(٢٤٨ - ٢٣٠)		١٦١ ، ١٦٢ ، ١٦٣
١٥٧	النقاش داوود	١٦٤
٢٣٩ ، ١٦٠ ، ١٤٦	نيتشه	٧١ ، ١٨٣
٥		٣٨ ، ٥٧ ، ٧٢
١٤٢	هابيل	٢٣٠ ، ٢٣٢
الهمداني عبدالرحمن ١١		٣٣ ، ١٧٤ ، ١٨٠
٢٣٠ ، ٢٢	الهمداني	١٨٨ ، ٢٣٢
٨٠ ، ٦٤ ، ٤٥ ، ٣٥	هوميروس	٢٤٦
٢٤	مياركليان	٢٤٥ ، ٢٤٨
٢٣	هيدروش	٢٤٥ ، ٢٤٦
٥٩ ، ٢٦ ، ٢٤ ، ٢٣	هيفو	٧١ ، ٧٢ ، ١٣٩
٢٣٣		١٤١
و		(٢٢٤ - ٢١٥)
٢٤	ولز	٣٦ ، ٢٣٥
٤		٢٠٤
١٩١	يعقوب	١٩٦
٢٣٥ ، ٣٠	يكن ولي الدين	ن
١١٩ ، ٢٣	يوحنا	٣٣ ، ١٧٢ ، ١٩١
٦٢ ، ٦١	يوتان	١٥٨
		النجمي احمد الصافي (١٧٢ - ٢٠٣)

فهرست

صفحة

٧	كمقدمة
١١	المجترون
٤٠	بشاره الخوري وأمين نخله في رثاء احمد شوقي
٤٤	شوقية بشاره
٥٢	شوقية أمين
٦١	دفتر الغزل لأمين نخله
٧١	القفص المهجور ليوسف غصوب
٨٧	الموسجة الملهبة ليوسف غصوب
٩٥	قارورة الطيب ليوسف غصوب
١٠٥	افاعي الفردوس للباس ابو شبكة
١٢٣	الى الأبد للباس ابو شبكة
١٣٢	ابو شبكة الكاتب
١٣٧	امين تقى الدين
١٤٥	فليكس فارس
١٦٦	ديوان الشبيبي
١٧٢	الامواج لأحمد الصافي النجفي
٢٦١	

١٩٤	الاشعة والاعوار والتيار لأحمد الصافي النجفي
٢٠٤	عمر ابو ريشة في ديوانه
٢١٥	عاشقة الليل لنازك الملائكة
٢٢٦	سابا زريق في ديوانه
٢٣١	ما وراء البحار
٢٣٣	مدرسة رومنطقية
٢٤١	جبران
٢٤٧	المدرسة الجنوبية

لمارون عبود ، في دنيا الأدب ، ركائز راسخة الاصول ،
قائمة على مزايا تفرض نفسها فرضا حتى على المكابرين ، ومنها
الصراحة ، والجرأة ، وخفة الروح التي تصقل النقد صقلا فتجعله
ضربا من التندر السائغ . ومارون سيد كبير من سادة النكتة
العفوية التي تطل في حينها ، فتكسو الموضوع كأنها مفصلة
على قدّه

ولعلّ هذا الكتاب «مجدّدون ومجتروّن» يحتوي على
قسم كبير من الركائز العبّودية ، لأن المؤلّف تناول فيه شعراء
كباراً وناشئين ، فقال فيهم كلمته بمحبة ، تلك المحبة
التي توجع احبانا كمبضع الجراح ، فلا يتنكر لها الا من يجهل
مارون عبود ، او من يضيق صدره بكلمة حتى تقال من فوق
السطح .

